مجلّة
العلوم الاجتماعيّة

جَمِيع الحُقُوق محْفوظَة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

العلوم الاجتماعية - بيروت

مجلة فصلية - مؤقتاً نصف سنوية - اكاديمية - ثقافية - متخصصة

تصدر عن معهد العلوم الاجتماعية

(الفرع الأول) - الجامعة اللبنانية

الإشراف الإداري :

د . محمد شيا

د . نبيل سليمان

الإشراف العلمي :

هيئة تحرير المجلة

سكرتير التحرير :

أحمد ياسين

□ العنوان :

بيروت - ساقية الجنزير - شارع عبد الله المشنوق - بناية الغندور .

ص . ب . : ٦٠٥٩/١٤

تلفون : ٨٠٩٧٠٤ - ٨٠٩٧٠٠

ملاحظة : إن الآراء الواردة في المقالات لا تعبّر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير أو معهد العلوم الاجتماعية .

العلوم الاجتماعية
بيروت

الفهرس

١ ـ هيئة التحرير ـ العلوم الاجتماعية لماذا؟ ٧
٢ ـ محمد شيا ـ ثقافة الجامعة وصناعة المستقبل ٨
٣ ـ عبد الأمير شمس الدين ـ الإنسان . . التربية والفلسفة ٢٠
٤ ـ فارس اشتي ـ مدخل إلى المنهجية في العلوم الاجتماعية ٣٣
٥ ـ أحمد بعلبكي ـ معاناة البحث في ضاحية قلقة ٤٨
٦ ـ عفيف عواد ـ النظرة الإنمائية في لبنان ٥٧
٧ ـ رجاء مكي ـ حول تقنية الشرائط ٧١
٨ ـ حلا نوفل ـ الاكتظاظ السكاني ٨١
٩ ـ مصطفى سليمان ـ الإحصاء والعلوم الأخرى والتعليم ٨٦
١٠ ـ صابر بو ضرغم ـ مقاربة ديموغرافية لمؤسسة الزواج ٨٩
١١ ـ خليل أحمد خليل ـ تاريخ العلوم (ترجمة) ٩٧
١٢ ـ حسن قبيسي ـ الفعالية الرمزية (ترجمة) ١٠٩
١٣ ـ منى دياب ـ المعرفة ١٢٧
١٤ ـ ـ ندوات سمير أمين ١٣٥
١٥ ـ ـ نشاطات أكاديمية في معهد العلوم الاجتماعية ١٥١
١٦ ـ عزة شرارة بيضون ـ الهوية النسائية الجديدة ١٥٣

INTERBUREAU S.A.L.

PROFESSIONAL SOFTWARE TRAINING

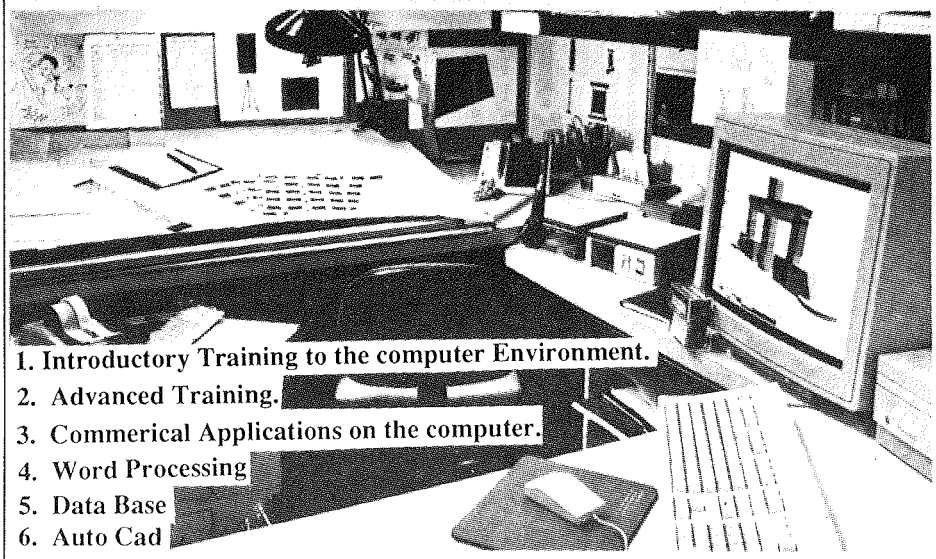

1. Introductory Training to the computer Environment.
2. Advanced Training.
3. Commerical Applications on the computer.
4. Word Processing
5. Data Base
6. Auto Cad
7. Structured Programming

FOR FUTURE INFORMATION , PLEASE CALL THE TRAINING CENTER

AT

INTERBUREAU S.A.L.
SABBAGH CENTER (ETOILE) , 11TH FLOOR
TEL : 862462/3

« العلوم الاجتماعية » . . . لماذا ؟

تدخل جامعتنا الوطنية في أسابيع قليلة عامها الأربعين ، ولا نجد نحن في معهد العلوم الاجتماعية هدية نرفعها بالمناسبة خيراً من إصدار عمل علمي يليق بالذكرى ويعطيها معناها الكامل والحقيقي .

والعمل العلمي الذي نرفعه ، لجامعتنا ، لأساتذتها ولطلابها ، ولمريدي العلم والثقافة في الجامعات العربية الشقيقة ، ولجمهور الثقافة والعلم بعامة ، هو مجلتنا الأكاديمية « العلوم الاجتماعية ـ بيروت » .

أما العدد الأول هذا ، ورغم أنه يستقطب خيرة علماء الاجتماع والثقافة ، فإنه بالتأكيد ليس النموذج المطلق أو الشكل الأخير لدوريتنا ، وإنما هو تحديداً العدد الأول بكل ما فيه من تجربة وخبرة من جهة ومن إخلاص وعلم من جهة ثانية .

ولذلك ، فـ « العلوم الاجتماعية ـ بيروت » تغدو في هذا العدد ، وفي أعدادها التالية ، في مستوى طموحاتنا بمقدار ما تستقطب من كتّاب ومن قرّاء ، والذين هم في النهاية أسرة تحريرها الحقيقية وأسرة أصدقائها الأكثر اتساعاً؛ وما دورنا المتواضع إلاّ التنسيق بين هذه الحلقات وصولاً إلى المستوى العلمي الذي يليق بجامعتنا وعلمائنا وجمهور قرائنا .

وأخيراً تتقدم هيئة التحرير من كل كتّاب هذا العدد ومن كل المؤسسات والإدارات التي ساندت مشروع إصدار هذه المجلة بأسمى آيات الشكر والتقدير لكل الجهد الذي بذلته ولكل الخدمات التي أسدتها ، مع الأمل أن يؤتي هذا العمل غاياته العلمية والأكاديمية ، في خدمة الجامعة والوطن والثقافة عموماً ؛ وهو خير أجر لنا أن نرجوه أو نطمح إليه .

تتقدم هيئة تحرير « العلوم الاجتماعية ـ بيروت » بخالص امتنانها وشكرها من إدارة الجامعة اللبنانية في بيروت للدعم المادي والمعنوي والإداري الذي بذلته والذي سمح لمجلتنا أن تبصر النور ، على أمل أن تكون مدماكاً آخر في الصرح العلمي والوطني الذي شيدته جامعتنا ، ولمّا تزل ، في سبيل هذا الوطن الصغير، أولاً ، وفي سبيل قيم الثقافة والعلم والإنسانية ، ثانياً ، وفي كل زمان ومكان .

هيئة التحرير

ثقافة الجامعة وصناعة المستقبل

د . محمد شيّا (*)

بينما تدخل جامعتنا الوطنية عامها الأربعين ، وبينما يصل الوطن إلى نهاية نفق المحنة والمعاناة ، نعود من جديد إلى حديث التأسيس والأولويات والمبادىء والتي لن يكون هناك ، من دونها ، تفاصيل أو لن تستقيم من دونها تفاصيل . إلّا أن اللافت في الجامعة هو أنها وهي تؤسس لسواها ـ للعلم ، للثقافة ، للوطن ـ تبدو هي نفسها بحاجة إلى تأسيس أو ، بكلام أكثر دقة ، إلى إعادة تذكير بالأسس والعمل على إظهارها والدفع باتجاه الإلتزام بهذه الأسس ـ المبادىء .

رُبَّ معترضٍ يقول هل تحتمل الجامعة في لحظة ضعف الوطن وشحوب إمكاناته وندرة مصادره حديثاً في الأسس والمبادىء ؟

جواباً على ذلك نقول : إنَّ حديث الأسس والمبادىء مطلوب الآن أكثر من أي وقت مضى ، فالاشتراك في التذكير بأسس فكرة الجامعة إنما هو اشتراك في إعادة تأسيس عملية الثقافة عموماً ، واشتراك تحديداً في إعادة تأسيس ثقافة الوطن ، أي صورة الوطن ومستقبله وبُناه كافةً .

وعلى ذلك ، فإشكالية هذا المبحث تقوم على المساءلة عن هوية ثقافة الجامعة ، وعن كيفية اشتراكها في قيام الجامعة المطلوبة .

يكتنف حديث الثقافة ، وثقافة الجامعة بالذات ، محاذير لا حدّ لها ، لعل أدهاها هو خطر السقوط في التنظير الأخلاقي السهل . وهو أمر اعتدناه وتوكأنا على نهجه ، فبتنا نرى مواطن التقصير ، وهي عديدة بلا شك ، بينما نغمض أعيننا عن كثير من الإنجازات التي تحققت على أيدي روّاد طليعيين آتوا أعمالاً كبرى ، وقاربوا ، حيناً بعد حين ، حد المستحيل(**) .

هذا ليس دفاعاً عن حاضر الثقافة ، ثقافة الوطن وثقافة الجامعة ، لكنه مَعلمٌ أوّلي يقينا شر الإسراف في اللوم والتوبيخ المتاح ، بالطبع ، في كل حين ؛ ولنقل على لغة طه حسين في محاضرة له سنة ١٩٥٥ في بيروت .

« ما أيسر المطالبة وما أيسر اللوم وما أيسر توبيخ الجامعات لأنها لم تؤدِ ما ينبغي أن تؤديه ،

(*) مدير معهد العلوم الاجتماعية (الفرع الأول) .

(**) نشرت أجزاء من هذا البحث في مناسبة سابقة ونستعيد أهمها في الذكرى الأربعين لتأسيس الجامعة اللبنانية .

[ولكن] هل أدت الدولة إلى الجامعة ما ينبغي أن يؤدى إليها ؟ »[1] .

وإذا كانت محاكمة ما يسميه طه حسين بالدولة تحمل قدراً واضحاً من التبسيط ، فإن توسيع الدائرة يصبح أكثر عدلاً فنقول : ماذا قدّم المجتمع للجامعة ؟ ما هي مهامها ؟ هل يُسمح لها باختيار أهدافها وغاياتها ؟ وهل يُسمح لها ، أخيراً ، باختيار ثقافتها ؟

لقد تحددت الأجوبة سلفاً ؛ فالمجتمع ، أو المؤسسات التي تمثّله ، تتولى تحديد أهداف الجامعة وتختار ثقافتها ، فالجامعة أبعد من أن تكون مشروعاً فردياً ؛ هي دائماً مشروع مجتمع ، أو جماعة في مجتمع ، تستدعي قيامها حاجات محدّدة وتوكل إليها ، مباشرة أو مداورة ، مجموعة وظائف ومهام . هي ، إذاً ، في متن الحياة العامة : أوثق حلقاتها قربى وأكثرها خطراً .

لكن الجامعة لا تقوم بمجرد الحاجة إليها ، وهي لو كانت كذلك لكان لكل الجماعات الإنسانية ، منذ البدء ، جامعاتها وهو ما لم يحدث قط . ورغم كون الحاجة تقوم في جوهر قيام الجامعة ، إلاّ أنها تستند كذلك إلى مستوى معقول من النضج والبلوغ والتعقيد ، الأمر الذي لم نلحظه إلاّ في مراحل متأخرة نسبياً .

الجامعة ، تعريفاً ، هي « المؤسسة التي تتولى التعليم العالي » . لكنها أكثر من مجرد تعليم عالٍ ، هي إسهام في العلم والمعرفة والثقافة . هي نقل للمعرفة ، لكنه نقل يهدف إلى دفعها قدماً إلى الأمام من خلال تحسينها وتنويعها والإفادة بها .

هي مشروع يحمل من الكونية أشياء وأشياء ؛ والذين لا يحسّون هذه الكونية عاجزون عن بناء جامعة . ولهذا غابت الجامعة عن حياة الإغريق ، على غناها ، باستثناء محاولة أفلاطون في طموحه الكوني نحو تحويل الفكر والنظرية واقعاً .

ولم تكن بدايات تصور الجامعة لدى العرب في القرون الوسطى فعل مصادفة ، بل فعل استيعاب ناضج لتطور الوعي والتاريخ :

« بدأت الجامعات الحديثة في أوروبا خلال القرن الحادي عشر . لكن الجامعات الأوروبية ليست الأقدم في العالم . فقد كان للعرب جامعاتهم في فترات أقدم من ذلك ؛ إذ أن جامعة الأزهر قد أنشئت حوالي سنة ٩٧٠ م . في القاهرة ، وهي من أقدم الجامعات التي ما تزال تؤدي وظيفتها »[2] .

وهناك ، بالإضافة إلى الأزهر ، مجموعة أخرى من المعاهد العليا التي أنشأها العرب في ظل

---

(١) هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت ، مهمة الجامعة في العالم العربي ، (محاضرات) ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٨٤ .

(٢) World Book Ensy. V. 20, p. 165.

صعود تيار العقل والعلم والإسهام فيهما ، مثل المدرسة المستنصرية ، والنظامية ، وقرطبة . هـذه الجامعات الأُوَل التي كرّست نفسها ، لا لتعليم القراءة والكتابة وهي مهمة مدارس ما قبل الجامعة ، وإنما للثقافة والفكر ، قد استندت في بنيتها ومناخها ومكتباتها إلى جملة ثقافات ، يونانية ورومانية وهندية وفارسية ، حُملت إلى الوعي العربي بدءاً من القرن الثاني للهجرة ، فتمثّلها تمثّلاً غنياً عميقاً أدى إلى تركيب جديد ، فيه كونية المعرفة والثقافة والمهام . هو فعل اكتناز بالمعارف المنقولة إليه ، وتمثّلٌ لها ، ووعي بضرورة الإسهام فيها .

ليست الثقافة غريبة ، إذاً ، عن بنية الجامعة ورسالتها ، إنما تدخل في حدّها وصلب تكوينها ومهامها . ويذهب « خوسيه أورتيجا » الفيلسوف الأسباني أبعـد من ذلك ، في أعمق مـا كُتب عن رسالة الجامعة ، حيث الثقافة عنده هي كل رسالة الجامعة :

« الجامعة هي ، بالمعنى الدقيق ، المؤسسة التي تعلّم الطالب العادي أن يكون شخصاً مثقفاً وعضواً ناجحاً في مهنة ما »[1] الجامعة « لأورتيجا » هي ثلاث :

١ ـ هي المعهد الذي يعلّم الطالب أن يكون شخصاً مثقفاً وعضواً جيداً في مهنته .

٢ ـ هي الفكر Intellect .

٣ ـ هي العلم وقد أضحى في معه .

لكن الثقافة التي يطلبها « أورتيجا » هي أوسع من التخصصـات الجزئيـة والتفصيلية ، هـذه تخصصات ، بينما الثقـافة علم Science بمعنى أكثـر شمولاً . تستمـد الثقافـة كينونتهـا من ميادين المعرفة المختلفة لكنها ترفعها بـاتجاه حقيقتهـا . هي ثقافـة تماثـل الحقيقة ، أو الحقيقـة ذاتها ، بمضمون إنساني شامل :

« الثقافة هي نظام الأفكار الأساسية التي يملكها عصر ما ، أو بكلام أفضل ، هي نظام الأفكار التي يحيا بها عصر ما »[2] .

ليست الثقافة ، بالتالي ، هـذه المعرفـة أو تلك ، هذا العلم أو ذاك ، وإنمـا هي « حقيقة » الحقبة التي نحياها ووعيها المتشكّل بعلمها وأدبها وفنها . هي تقوم بالعلم والأدب والفن ، لكنهـا تبقى أعلى من ذلـك كله ، تُرجـع جنباتهـا صدى الـزمن وتضرب جـذورها عمقـاً في كل أرض . والثقافة ، بمعناها الحق ، لا تنتسب إلى المحلية والإقليمية ، بل إن كل ما هو محلي وإقليمي وجه لها . هي في ذلك شمولية ، كونية ، وبعض من المطلق ؛ لكن شموليتها هذه لا تلغي تماسها مع ما هو جزئي وراهن وحاضر . هي تحمل في تجلياتهـا وألوانهـا مطالب النـاس ومطامحهم ، آمـالهم وآلامهم . ولو كانت الثقافة غير ذلك لانقطعت صلتها بالحياة ولغدت مطلقاً مجرداً خاوياً ومفتقراً ،

---

(١) Ortega, J., Mission of the University, Tr. by H. Nostraud, princton un press. 1944. p. 93.

(٢) Ortega, J., Ibid, p. 81.

حتى الموت ، إلى دم ونبض وأعصاب . لو كانت الثقافة غير ذلك لما شدها إلى الناس رابط فتصبح خارج حياتهم وأحاسيسهم وفكرهم وعملهم فتنتهي عزلاء بلا حول ولا قوة .

الثقافة ، إذاً ، تركيبٌ مبدع بين كونية مشروع الحقيقة وواقع لحظة ما في همّها وحركتها وتقدمها . هي تركيب بين الوعي بقيمه المطلقة الأخيرة وبين مظاهره الجزئية . وهي ، أخيراً ، تركيب جدلي بين ما هو ثابت في جوهر الإنسانية وبين ما يتغير ويتحول باستمرار . هي ربط لحلقات الوعي في مجرى واحد متقدم ومتعاظم أبداً .

ولأن الثقافة هي كذلك ، فإنها على الدوام وسط الناس وأمامهم ، تتعين وتتحدد بهم ، لكنها تمنحهم أفقاً أكثر اتساعاً فتسهم في إعادة صياغة وعيهم وأهدافهم .

ماذا يمكن للجامعة ، في إطار ثقافة كهذه ، أن تقدّم ؟ وماذا يمكن لجامعتنا الوطنية أن تقدّم ؟

تتميز ثقافة الجامعة ، أي الثقافة التي تملكها الجامعة وتشجّع عليها ، شكلاً ومضموناً . فهي ترتبط بكل أشكال المعرفة والحضارة بوشائج لا تنفصم ، غير أنها تبقى ، مع ذلك ، متميزة بخصائص لها وحدها ، تسهم في صياغة ثقافة هي غير كل أنماط الثقافة الأخرى : ثقافة الناس العاديين ، ثقافة الصحافة ، ثقافة الفنانين ، إلخ . تتشكّل ثقافة الجامعة ، كمضمون ، في ظلّ ثلاث مهام أو وظائف أساسية متداخلة :

١ ـ تحصيل الثقافة :

تقوم مهمة تحصيل المعرفة والعلم ، كجانب من الثقافة ، على رأس المهام التي توكل إلى الجامعة وأولى حلقات السلسلة التي تشكّل بنية مشروع الجامعة الثقافي . وهي من الأهمية بحيث أن كل المهام اللاحقة تستند ، في جزء منها ، إلى ماهية تحصيلنا لتلك الثقافة وكيفيّاتها .

وتحصيل الثقافة هو ، في البدء ، اهتمام بالثقافة . وهذا الاهتمام بالعلم والمعرفة هو الذي يفتتح مسار العلم والمعرفة ومن ثمّة الثقافة . الاهتمام والحاجة صنوان ، فالاهتمام Interest يجد ترجمته في المصلحة والمنفعة التي تقوم أساساً في الحاجة . والحاجة تبدأ مادية ثم تتدرّج وتترقّى نحو أشكال هي أقل مادة وأكثر روحاً . ولأن الحاجة إلى العلم والمعرفة والخبرة أكثر من أن تحصى ، بات طبيعياً بالتالي أن تستثير اهتماماً يفتح الباب في الاتجاه الذي يؤدي ، في النهاية ، إلى الثقافة . وهكذا ، « تتمحور » مهمة الجامعة في الأساس حول تقديم أهم إنجازات الإنسانية في حقول العلم والمعرفة : في الفرد (علم الحياة وعلم النفس) والمجتمع (علم الاجتماع وعلم التاريخ) والكون في وجهيه : الفيزيقي (الرياضيات والفيزياء) والميتافيزيقي (الفلسفة) .

إنَّ تقديم ميادين المعرفة هذه ، مع ما يرتبط بها ، هو في الأساس المهمة الأولى التي تضطلع بها الجامعة . وتجد هذه المهمة ترجمتها الفعلية في عودة مستفيضة إلى التراث ، المحلي

والإنساني ، إرساءً لقواعد معرفة أكثر اتساعاً وأكثر نفعاً . إذ يندر تحقيق مطلب التقدم ما لم نتمثل تاريخ العلم والمعرفة تمثلاً صحيحياً وكاملاً ، في حدود ما نستطيع . ولذلك كان نقل المعرفة من حقبة إلى أخرى شرطاً لافتتاح مسيرة العلم والمعرفة والثقافة : تمثُّل الإغريق لمعارف الشعوب الفرعونية والفينيقية وشعوب ما بين النهرين . . . . ثم تمثُّل العرب لثقافة الإغريق والهند وفارس . . . . ثم تمثّل نهضة الأوروبيين بدءاً من القرن الخامس عشر لإنجازات العرب ، في الأندلس والمشرق ، والإغريق وغيرهم . . . . ولنا في نقل العلوم والمعارف إلى العربية بدءاً من نهاية القرن الأول الهجري خير مثال ؛ لقد كان ذلك مقدمة ضرورية سمحت ، بعد ذلك ، بقيام إسهامات بارزة : علماً وفناً وفكراً .

ويدخلنا هذا في بنية ثقافة الجامعة. تتميز ثقافة الجامعة لا بكمّها وحسب ـ وهو أمر لا يمكن إغفاله ـ وإنّما تبرز أهميتها في نوعيتها وشكلها . فالجامعة تقدم العلم والمعرفة والخبرة ، لا كعلم ومعرفة وخبرة وحسب ، بل كحلقات مترابطة في مشروع واحد : الثقافة الشمولية الكونية . وعلى ذلك ، فإن الاهتمام لا يقف عند حدود العرض المدرسي لمعطيات علم ما وظواهره ، وإنما هناك عودة مستمرة إلى الجذور والأصول واستشراف للمستقبل . وفي العودة إلى الجذور والأصول تعميق لحدود معرفتنا بذلك العلم من جهة ، وخروج عن تلك الحدود ، من جهة ثانية ، في تبيان وضّاء لمدى مجاورته لباقي أقسام المعرفة وميادينها . ولنأخذ علم الهندسة مثالاً ؛ ففي تحصيل ما قبل الجامعة ، وما خارجها ، تجري معرفة واسعة لطبيعة علم الهندسة : تعريفاته ، مبادئه ، بدهياته Axioms ، مناهجه ونظرياته . هو إتقان ، دونما عودة ، بالضرورة ، إلى الأصول ، أو استشراف للمستقبل . أما في التحصيل الجامعي ، وفي إطار الثقافة الحقيقية التي رأيناها ، فإن الأمر هو أكثر غنى وشمولاً ـ بل وأكثر نفعاً إذا شئنا . فالعودة إلى جذور علم الهندسة وأصوله تغني معرفتنا به وتوسّع من حدودها ؛ لكنها تحقق ما هو أكثر من ذلك . إن معرفتنا لنشأة بذور علم الهندسة على ضفتي النيل استجابة لحاجات تحديد الأملاك بعد الفيضان ، هي معرفة بمدى التصاق العلم ، كل علم ، بحياة الناس وحاجاتهم وآمالهم . ثم إن معرفتنا بتحول نظريات الهندسة على وقع تحولات الفيزياء ، ليجعلنا أكثر معرفة بمدى ترابط ميادين العلم وتداخلها الفني وأخيراً فإن أي فحص أو تدقيق لمبادىء الهندسة ، وبدهياتها بالذات ، سيثبت أن مبادىء الهندسة إنما تستمد صدقها من صدق مبادىء المنطق ، وأن أي خلل بالتالي في صدق قواعد المنطق والتفكير سيحيل علم الهندسة عبث أطفال على صفحة محيط :

« بدأت بواكير البحث المنطقي في الجدل الايلي والرياضيات الفيثاغورية ، ثم جاء أرسطو ليقيم المنطق علماً شامخاً كنموذج لليقين ، فلما جاء إقليدس يقيم الهندسة علماً ، جعل معيار يقينها قوانين المنطق »[1] .

---

(١) د . محمود زيدان ، أزمة اليقين في الرياضيات والمنطق (في الفكر المعاصر ، ع ٧٩ ، سنة ١٩٧١) ، ص ٩٥ .

وينسحب ما قلناه في الهندسة على باقي فروع المعرفة وميادين العلم ؛ فما التجزئة والتخصص والتفريع المبالغ فيه إلاَّ لحظة أو مرحلة في تاريخ المعرفة والعلم وتقسيم عمل مدرسي جرى تأكيده وتعميمه في سياق اتقان تلك الفروع وزيادة إنتاجيتها . إلاَّ أن الوضع هذا ليس سرمدياً بالضرورة ؛ وما يصح في مرحلة ما وفي ظروف محددة قد لا يصلح ، بالضرورة ، قانوناً أبدياً . العلوم والمعارف والفنون هي الآن أكثر ميلاً لأن تتجاوز وتتحاور وتتداخل ، بل لتغدو كما كانت في البدء وحدة شاملة هي وعي الإنسان عموماً في ذاته ، وفي اقترابه من عالمه واشتراكه فيه .

هي ذي ، إذاً ، مهمة الجامعة الأولى في إطار رعاية الثقافة بالمعنى الشامل والاهتمام بها وتحصيلها . لكن الوظيفة هذه لا تكتمل ، في الواقع ، إلاَّ إذا جرى تعميم فائدتها كيما يتجذّر اتجاهها فتتسع دائرة نفوذه ، الأمر الذي يشكّل خطوة أخرى في ثقافة الجامعة .

٢ ـ نقل الثقافة :

في لحظتها الثانية ، تسجّل الجامعة إخلاصها لمبادئها ووفاءها الكامل للقيم والأهداف التي تلتزم بها . وهي إنما تؤكد ، في ذلك ، ارتباطها الديناميكي بمحيطها ومجتمعها . وإذا كان اكتناز مشروعها الذاتي أمراً مطلوباً في البدء ، فما ذلك إلاَّ مقدمات تسمح للجامعة أن تكون أكثر امتلاء وفعلاً وأثراً . أما أن تكتفي الجامعة بالجانب الذاتي من مشروعها ، فهي تضع نفسها ، إذ ذاك ، خارج الناس وعلى هامش حياتهم فتستحيل ، في أحسن الأحوال ، بيت عبادة لا مركز إشعاع . لكن الجامعة ليست صومعة تأمل ترقب الحياة من الخارج أو من علُ ، وإنما هي وعي الناس في أكمل صوره الممكنة ، يعمّق معنى حياتهم ويشدّها نحو الأفق الأرحب .

وهكذا ، فإن نقل المعرفة والعلم والفن ، أو نقل الثقافة عموماً ، يتضمن الأمرين معاً : تحقيق الجامعة لذاتها ، أي لحقيقتها وأهدافها وقيمها ، وانفتاحها على محيطها الأمر الذي يخدم في الكثير من جوانبه ، مشروع الجامعة وأهداف مجتمعها في آن . إن جامعة لا تسهم في جعل محيطها أكثر تقدماً ورخاءً وفي جعل أبنائه أقل جهلاً وتعصباً ، ليست جامعة في شيء ولا هي تنتمي إلى القيم والأهداف التي تشكّل جوهر مشروع الثقافة .

هوذا معنى كون الجامعة « منارة » و « مركز إشعاع » . هي منارة ومركز إشعاع وطليعة مجتمعها في ما لو تصدّت فعلاً لتحديات واقعها ومحيطها والتزمت ، أخلاقياً ، بهموم الناس وآمالهم وحاجاتهم . والتفكير الذي تقدمه الجامعة هو أكثر من تقنيات ، كما يقول هوارد جونز ، هو أخلاق :

« التفكير فعل أخلاقي وليس فعلاً ذهنياً »[1] .

---

(١) Jones, H., The University and the New World, uni. toronto press, 1962, p. 29.

الجامعة في ذلك ، تبذل ما في وسعها لتقديم حياة أكثر يسراً ، ووعي أكثر انفتاحاً ؛ وفي ذلك دخول بالجامعة وثقافتها إلى كينونة مجتمعها فتعيد صياغته وتبدّل فيه على هدي مراجعتها لصفحات التراث الإنساني المشرق وتثميرها له ؛ فتبطل المعارف والعلوم والفنون أن تكون لمعات وشطحات على هامش حياة الناس ، وتغدو بالتالي وقائع لأيامهم وخبرات ثمينة تبدّل في وعيهم وسلوكهم :

« والمواطن الصالح من صفاته أن تشتمل ثقافته على الأفكار التي يعيش بها عصره ، يُعمل الفكر في كل ما يعنّ له . حصل من المهارة على ما يفيد به مجتمعه ويسدّ نقصاً فيه ، ومن المعرفة ما يجعله متصفاً بسعة الأفق ، ومن العلم ما يهديه إلى فهم الأمور ، ومن الحلم ما ينعته بسعة الصدر ، ومن البصيرة ما يكسبه بعد النظر . . . . ومن الحصافة والشجاعة ما يجعله أهلاً لاتخاذ القرارات وتحمل المسؤوليات ، ومن النزاهة ما يملي عليه التجرد والموضوعية »[1] .

أما كيف تحقق الجامعة وظيفة نقل الثقافة ، داخل جدرانها وخارجها ، فأمر تحكمه ثلاثة حدود :

١ ـ شروط اللحظة وظروفها .

٢ ـ التقاليد الجامعية المعروفة .

٣ ـ اجتهادات الأفراد القيّمين على المهمة وإبداعاتهم .

تتأثر عملية نقل الثقافة ، أساساً بالأهداف والشروط السائدة في مجتمعها . فبالرغم من كونية مشروع الثقافة فإن الأولويات والغايات الآنية تتباين ، كمّاً ونوعاً ، بين مجتمع وآخر . ولذلك فإن تقديم المعارف المطلوبة في المكان المطلوب أمر كثير النفع والأهمية للجامعة كما لمحيطها . وهو يقوّي اللحمة بين الجامعة ومحيطها فينفي عن العلم (والثقافة) تهمة الترف والشكلية .

ويستند نقل الثقافة ، إلى تقاليد جامعية عريقة، ترتكز ، في جانبها الرئيسي ، على وظيفة الأستاذ وحسن تمثّله لمشروع الثقافة وخبرته في توجيه طلابه نحو الإفادة القصوى والمثلى من الإمكانات التي توفرها هيكلية الجامعة (الاختصاص ، المكتبة ، المختبر ، الدوريات ، حلقات البحث إلخ . . . .) .

لكن الأمر ليس بهذه الميكانيكية السهلة وإنما هو فعل ديناميكي نابض ، شديد الحساسية ويتحدد ، في النهاية ، بإبداعات الفريق المولّج بالمهمة واجتهادات أفراده . إن خير ما يُزوّد به ذلك الفريق هو الخبرة الغنية والإحساس بالمسؤولية وقدر كاف من الحرية التي سرعان ما تتجسد عطاء بغير حد وإنجازاً مبدعاً وتطويراً خلاقاً . هذا الالتزام الشخصي الأخلاقي الحر هو بديل لائحة الوصايا التي قد يفرضها مجتمع ما على جامعته ، والتي تتحول ، حُكماً ، سلسلة قيود وعراقيل تحدّ من انطلاقتها وتشل فعاليتها .

---

(١) د . حسين عثمان ، الجامعة ، (لا . م .) ، ١٩٧٢ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

٣ ـ الإسهام في الثقافة :

إذا كانت كل الطرق ، كما يقال ، تؤدي إلى روما ؛ فإن كل ما في الجامعة ، قياساً ، يجب أن يؤدي ويقود إلى الإسهام في الثقافة . هوذا دور الجامعة الأساسي ، تُوظّف له كل الإمكانات المتاحة وتعانقه بفرح الولادة . وهو ما يميّزها في النهاية عن مؤسسات التعليم الأخرى ؛ إذ لا تكتسب الجامعة لقبها كمؤسسة تعليم عال في كونها تقدم تعليماً يلي تعليماً آخر ، وإنما هي أعلى في كونها تلامس مناطق الإبداع في ذوات مريديها فتتعهدها وتصقلها وتضفي إلى المادة رصانة البحث ، فتفي بوعدها لمجتمعها وتحقق ذاتها في آن .

الإسهام في الثقافة هو ، إذاً ، غاية العمل الجامعي وكماله . وللإسهام هذا صيغ وميادين تتعدد وتتنوع وتتمايز ، لكنها تتفق جميعاً في كونها إضافة أصيلة متفردة .

للإسهام ، في البدء ، أن يضيف ؛ أن يقدّم جديداً . والجديد هذا متاح في ميادين الثقافة كافة : في العلوم، الرياضية والتطبيقية ، في الفن والأدب والفلسفة كما في باقي العلوم الإنسانية . وإذا كانت الإضافة ، كما قلنا ، متاحة وممكنة ، فلأنها في الأساس ، كحجر الزاوية ، مطلوبة بل وضرورية في مشروع الجامعة . فالعجز عن الإضافة لا يعني العجز عن ولوج بوابات المستقبل وحسب ، بل يعني كذلك فشَل الاحتفاظ بلحظة الحاضر . فالكبونة التي لا يضاف إليها تخسر من ذاتها فتتراجع إمكاناتها وتنحط حتى الصدأ والمرض والموت ، وتبقى في النهاية ، فيما لو بقيت ، قفراً قاحلاً مُجدباً . ذلك هو مصير جامعة لا تضيف إلى الثقافة مدماكاً ، ومصير مريدين ، ناهيك عن الأساتذة ، يمضغون نظريات ويرددون اجتهادات خلف اجتهادات ويبقون خارج همّ الإضافة وعظمة الإبداع . الإضافة هي إعلان الحق بدخول المستقبل وفعل انتصار على سلبية الطبيعة وتجاوز لحدود الموروث في سياق اكتمال مشروع الثقافة ، أو مشروع الحقيقة بتعبير آخر . والإضافة هي المعاصَرة ، في الواقع ، وهو ما يمنح مطلب التقدم مضمونه ومعناه . أما دون ذلك فنحن أسرى الحدود التي تم بلوغها وعاجزون عن تطويرها واستكمالها ودفعها إلى نهاياتها . ولأننا كذلك ، ولأنه لم يكن لنا معرفة حقيقية بغيرها ، نسكّن إذ ذاك حركة الوعي وننفي عن تلك الحدود طابعها التاريخي الموضوعي ، فتستحيل أوثاناً Taboos نتحصّن خلفها ، فنحفر للمستقبل قبراً ونخرج من التاريخ .

ورغم كون الإضافة أمراً نلح في طلبه ، إلاّ أنه يجب الاستدراك بالقول أن الإضافة المطلوبة ليست أية إضافة ، وإنما جرى تمييزها في إطار من الأصالة والتفرد .

والأصالة ، في جزء رئيسي ، هي العودة إلى الأصول والينابيع ، هي ترجيع للتراث : قراءة وإلهاماً ، إلاّ أنها عودة تاريخية وليست إيمانية(*) . هي قراءة الحاضر للماضي ، من موقع الحاضر

(*) هذا الفهم أو هذا النوع من العودة إلى التراث يتناقض جذرياً مع نزوات البعض التي تتقلب بين التراث والمعاصرة حسب صعود موجة ما أو هبوطها .

وعلى أبواب المستقبل . هي ليست ، إذاً ، نفياً للحاضر ، وهي في الحقيقة عاجزة عن ذلك . في العودة إلى التراث تجذير للمعرفة واستكمال لحلقاتها وتأكيد آخر لوحدة الثقافة وشمولية مشروعها . إن كل إضافة ، علماً وفناً وأدباً ، تستند بالضرورة إلى التراث المحلي والإنساني وتفيد منه . والتجديد في النهاية نسبي ؛ هو اكتناز تاريخي بعطاء الإنسانية في كل عصر ولغة ، ودفع له إلى الأمام على ضوء إلحاح الحاجات وأولويتها من جهة وإبداع العقل من جهة ثانية . هذا الجدل الفني بين التراث والحاضر هو الذي يمنح المعاصرة بعداً تجديدياً فعلياً ويبقى وثيق الصلة بالحدود التي اكتنز بها الوعي عبر التاريخ .

لكن الإضافة والأصالة تظلّان في حيّز ما هو عادي إلى أن يكتملا بالتفرد ؛ فيُبعث فيهما روحٌ متميز وطعم خاص . هي اللمسة التي تشعل دورة التيّار ، فيتبلور ويتجلّى ويتكوكب ، هوذا التفرد المطلوب ، لكنه ليس متاحاً دوماً ؛ فهو لا يلقّن ولا يُنقل بالدربة والمحاكاة ؛ وإنما هو استعداد شخصي غامض تتداخل فيه ، أو تكوّنه ، مجموعة جدليات فيزيولوجية ـ اجتماعية سيكولوجية ، ترتفع رويداً رويداً ، بل وتنضج ربما ، قبل أن يكون للجامعة يد في ذلك . لكن دور الجامعة يبقى حاضراً ، حتى في لحظات الإبداع والغموض هذه . فالجامعة ، وهيئاتها الأكاديمية والإدارية بالذات ، قادرة على اكتشاف هذه الكفاءات أو الثروات ورعايتها وإحاطتها بالمناخات والحوافز التي تسمح لها بأن تزهر وتعقد وتثمر : أليست الأدمغة ثروة وطنية كبرى مثل باقي الثروات ! الجواب بلى ، وللمجتمع ، بالتالي ، دين على جامعته وحق المطالبة باكتشافات أكثر ورعاية أعظم . غير أن الحوافز هذه ليست وقفاً لفرد أو نخبة ، أياً كان تميُّزها ، وإنما هي متاحة في الواقع لكل مريديها ، داخل جدران الجامعة وخارجها . تستطيع الجامعة ، في نقلها للثقافة وتقديمها آيات التراث الإنساني العظيم واستقبالها الحار لكل بريق توهج يشعّ في زاوية منها ، أو خارجها ، أن تؤدي مهمة يقصر غيرها دونها . الهاجس هذا في الذات ، لغدا همّاً شخصياً يحكمه على الدوام معيار شخصي قوامه الرضا والكمال والفرح : أبقى الأثمان وأعظمها ثواباً .

هوذا ، إذاً ، الإسهام المطلوب في الثقافة ، إسهام أصيل يضيف جديداً ويبقى ، في ذلك كله ، متفرداً : فيه ما يميّزه ويخصّه وحده . هذه اللمسة الذاتية ليست بديلاً عن المقدمات التاريخية والموضوعية للإسهام الثقافي ، لكنها تثريها وتستكملها وتحيلها همّاً شخصياً .

في تحصيل الثقافة ورعايتها ونشرها ثم الإسهام فيها ، تحقق الجامعة ذاتها ، وتتحد بتعريفها ، وتغدو جديرة بأن تكون فعلاً طليعة الحياة العامة . في ذلك ، تكون الجامعة ذاتها فعلاً ، فهي رسالة أولاً وأخيراً ، وهو ما يدخل في صلب ماهيتها وكينونتها . يقول قانون تنظيم الجامعة اللبنانية /٢٦ ك[1] ، ١٩٦٧/ في مادته الأولى : « الجامعة اللبنانية مؤسسة عامة تقوم بمهام التعليم العالي الرسمي في مختلف فروعه ودرجاته ويكون فيها مراكز للأبحاث العلمية والأدبية العالية ، متوخية في كل ذلك تأصيل القيم الإنسانية في نفوس المواطنين » .

تلك هي ثقافة الجامعة . ولكن كيف يجري تحقيق هذه الشعارات ؟ كيف يمكن تعزيزها ؟ وما هي المناخات والشروط والحوافز التي نستظلها في سياق إطلاق هذه الثقافة والانتماء لها ؟ لن نستعيد بالتأكيد ما جرى عرضه آنفاً ، وهو يدخل في صلب الإجابة عن تلك الأسئلة ؛ لكننا سنستكملها بحثاً عمّا يعزز ثقافة الجامعة ويبقيها أمينة ، على الدوام ، للمبادىء والقيم التي تلتزم الجامعة بها .

يتسم تناول الجامعة لمسألة الثقافة باعتبارها رسالة إنسانية شمولية . هي لم تكن يوماً أقلّ من ذلك ، ويجب ألاّ تكون في جامعتنا ومجتمعنا غير ذلك . هي بدهية أولى ، تتحدد على هديها فرص استكمال مشروع الثقافة أو تعطيله . إن ربط الثقافة بما هو جزئي ، وبأمل تحسين سبل المعاش ، لأمر صحيح ، لكنه يبقى عرضياً فيما لو قيس بأهداف الثقافة الأكثر جوهرية وشمولاً والتي تستهدف أساساً تقدم الإنسانية وسعادتها ، من خلال إطلاق طاقاتها والتنمية المتوازنة لجوانبها كافة .

ولثقافة كهذه ، فإن الفعل الذي تمارسه الجامعة هو فعل تربوي ؛ أي ليس مجرد فعل تعليم ، بل هو أوسع دائرة وأعمق أثراً . وهو يتصف ، بالتالي ، بنوعية تساوق الأهداف التي يجري تحقيقها ، ويستخدم من الأدوات والوسائل ما لا يتعارض مع إنسانية رسالة الثقافة وقيمها ، في التربية التي تمارسها الجامعة ، من العلم والتثقيف والخبرة ما يغني الوعي ويهذّب المريد ويحصّنه في مواجهة تحديات الحياة ، بعدة أفضل .

وثقافة الجامعة تعنى بتثقيف العقل لا بِمَلْء الذاكرة . لكن تثقيف العقل لا يتأتى مصادفة ، وإنما بعمل واعٍ هادفٍ وإرادي تختاره هيئات الجامعة الأكاديمية والإدارية وتترجمه في وسائل وأدوات ومناهج تُنبّه في العقل طاقات ومواهب وتوقظ الذات من سباتها السلبي . إن التثقيف، وفي كل فروع المعرفة ، هو حسب «ياردلي » حد الفلسفة :

« . . . إن غاية التدريب الذهني وغاية الجامعة ، أساساً ، ليس التعلم أو الاكتساب ، وإنما غايتها الفكر أو العقل وقد تمرّس بالمعرفة أو ما يمكن أن نسمّيه بالفلسفة »[1] .

ويجد هذا المطلب ترجمته العملية لحظة نتجاوز المعطى إلى جذوره ، ونرتفع عن الأجزاء إلى الكل ونمتحن المادة المنقولة إلينا على محك درجة انتفاعنا بها ، وتوظيفنا لها ، في إطار يخدم محيط الجامعة ومجتمعها ، حلقة في مشروع الإنسانية الأعظم .

وفي هذا الإطار يقوم إصرار الجامعة على تنمية روح البحث لدى مريديها . والبحث هو ، تعريفاً ، الفحص العلمي المنظّم في سبيل التدقيق في فكرة ما أو لاكتشاف معرفة جديدة . وقد

---

(١) Yardley, M., The Idea of a University, Cambridge, 1931, p. 63.

تكون مملكة البحث حساً فطرياً ، أو مكتسبة ؛ لكنها تحتاج في الحالين إلى مِران ودربة وخبرة وافية تعنى الجامعة بتوفيرها .

لمملكة البحث أن تبدأ فضولاً ودهشة ، فالدهشة أول العلم ؛ لكنها لا تقف عند حدود الدهشة بل تستكمل بشروط شكلية توثّق ما نبلغه من معرفة أو إنجاز وتجعلنا نطمئن إليه . وروح البحث تتسم بالصبر والإخلاص والصدق والموضوعية .

« ليس البحث مجرد جمع معلومات . . . . وإنما هو الجهد الهادىء الصبور الذي يقوم به الفرد بنفسه دون أن ينفي ذلك فكرة التعاون . . . هو جهد يستهدف الحقيقة »(١) وإذا كان تشجيع الأبحاث يقوم في علة وجود جامعتنا ، فإنها ما زالت ، مع معظم رفيقاتها في العالم الثالث ، دون هدفها هذا ؛ بينما تشكّل مراكز الأبحاث ، في البلدان المتقدمة التي تعيش هواجس مستقبلها ، عصب جامعاتها واقتصادها ومجتمعها .

ويستند تحقيق الجامعة لثقافتها ، بشكل مبدأي ، إلى حركة التفكير ، والحرية إطلاق ، دونما قيد ، لوعي الأفراد والمجموعات في أن تبحث وتختار وتؤمن في ما تعتقده صحيحاً . هي وعيٌ وثقة ومسؤولية . هي رمز احترام الإنسان ، والاعتراف به إنساناً ؛ وهي ، لذلك ، حافز مثالي للعطاء الأصيل . ولا نخشى في ذلك اختلافاً أو تعارضاً : فبالاختلاف والمفارقة تقوم المعرفة ، كما أنّ تقدمها وتعزيزها إنما يجريان من خلال تعارض عناصرها ونظرياتها ، مما يسمح بالاحتفاظ بما هو صحيح وتصويب ما هو خطأ . الحرية ، وحدها ، ضمانة للثقافة ، فهي تزيل الخوف وترفع الحواجز التي تعيق الإبداع والتقدم . لذلك كله ، تصر الجامعة على قدسية حرمها فلا تسمح بضغط من الخارج ولا بتدخل غير أكاديمي ، أياً كانت أسبابه أو ظروفه .

وللحرية في الكثير من الجامعات العربية تاريخ عريق ، ولعل أحمد لطفي السيّد الذي ترأس الجامعة المصرية سنة ١٩٢٣ ، أو أستاذ الجيل كما يلقبونه في مصر(٢) ، هو منارة تهتدي في سلوك هيئات الجامعة ؛ فإذا به يستقيل سنة ١٩٣٢ حين حاولت الحكومة المصرية نقل طه حسين تأديبياً من الجامعة ، ثم يستقيل ثانية سنة ١٩٣٥ فلا يعود عن استقالته إلاّ إذا أناطت الحكومة بمجلس الجامعة وحده صلاحية نقل الأساتذة ، ثم يستقيل مرة ثالثة احتجاجاً على دخول الشرطة حرم الجامعة سنة ١٩٣٧ . وما قلناه في أحمد لطفي السيّد أحد مؤسسي الجامعة المصرية ينسحب على أكثر من عَلم من أعلام حرية الجامعة في العالم العربي ، وحرية ثقافتها بالذات ، فضلاً عن التاريخ العريق للحرية في جامعات المجتمعات الديموقراطية .

وحرية التفكير تستتبع ، بالضرورة ، حرية النقد . إذ كيف يمكن لمسيرة المعرفة والعلم

---

(١) Flexner, A., Universities, Oxford university press, N.Y. 1930, pp. 125 - 126.

(٢) حسين فوزي النجار ، أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل ، الدار القومية للتأليف والترجمة ، مصر ، ١٩٦٥ .

والثقافة عموماً أن تتعزز ما لم يطلق العنان لنقد صادق حر لا يخضع لسلطة ، عدا سلطة الحقيقة والعقل ! كيف لتلك المسيرة أن تحقق مطامح الثقافة الإنسانية الشمولية ما لم تتجرّد وقائعها ومعطياتها وأجزاؤها من أردية الممنوعات والمحرّمات من جهة وأردية التعصب من جهة ثانية . النقد الحر هو الوجه السلبي ، الضروري ، لعملية تقدم المعرفة وبناء الثقافة المطلوبة . هو النفي القائم أبداً في كينونة كل إنجاز . أما إذا أسقطنا حرية النقد ، أو أسقطنا على النقد لائحة وصايا ، فإن ذلك ليورث معرفة بائسة ، هجينة ، ملفقة وأدنى من أن تستجيب لشروط الثقافة التي أؤتمنت الجامعة عليها . الجامعة مطالبةٌ ، إذاً ، إدارة وهيئات وأساتذة ، بتشجيع ذلك اللون من النقد فتحث عليه وتطلبه دوماً ، فلا يطغى التلقين على البحث ولا التصديق على النقاش ، ولا تقدم المعرفة ، أياً كانت ، جاهزة أخيرة ونهائية . « فالكلمة الأخيرة » اصطلاح لا محل له في العلم والمعرفة ، وإذا كان هناك كلمة أخيرة ، حقاً ، فهي للتجربة والاختبار والتاريخ .

هي ذي ، إذاً ، الثقافة المطلوبة في الجامعة اللبنانية وهي تسير نحو نهاية عقدها الرابع . هو مشروع طموح ، ولكن أليست الجامعة في الأساس مشروعاً طموحاً ؟

لكل بنى المجتمع وميادينه أن تتخلى ، جدلاً ، عن المبادىء والقيم والمثل ، أو المطلق ، لكن الجامعة تبقى شيئاً آخر كلياً . فهي الملاذ الأخير للمبادىء والقيم والمثل ، أو يجب أن تكون كذلك ؛ وهي المعيار والمقياس والحكم لحظة تنحرف المعايير والمقاييس والأحكام . حين يتحول الناس والأشياء أدوات ووسائل وفتات موائد ، وحدها الجامعة تعاني همّ المطلق وتخلص له . وحين يغدو الناس والأشياء موضوعات ، ويرتضون ذلك ، وحدها الجامعة تبقى ذاتاً ، وتصر أن تبقى كذلك .

ولأن الجامعة ، وجامعتنا بالذات ، تقوم في متن الوطن وتحيا هموم أهله ؛ ولأنها تلامس وتعي خصوصية محيطها وحاجاته ، بات عليها أن تمتلك مشروعها الثقافي الذي لا يستجيب لخصوصية اللحظة وحسب وإنما يدفع بها ، كذلك ، في سياق البعد الإنساني الأرحب .

والجامعة تستطيع ذلك ؛ إذ لها من خبرتها ، وخبرة غيرها ، ما يسهم في توفير انفتاح أكبر على مجتمعها والدخول معه بوابات المستقبل . فلتكن الجامعة نفسها أولاً ، ولتفتح من ثمة ذراعيها للناس ؛ فتغدو بذلك أكثر منعة وأوثق قربى وأعظم إخلاصاً لمبادئها وقيمها . والجامعة لا تتنازل ، في ذلك ، عن مشروعها أبداً ، بل هو أساساً تنازل غير ممكن لأنه يعني تنازلاً عن التاريخ ، تنازلاً عن المستقبل وتنازلاً عن الوطن !

الإنسان . . التربية والفلسفة

الدكتور عبد الأمير شمس الدين
أستاذ علم الاجتماع التربوي
في الجامعة اللبنانية .

« لسنا هنا بصدد تعريف للتربية أو للفلسفة ، وإنما في محاولة لتلمّس معالمها علّنا نُحسن الاختيار ونجيد الاستعمال » .

إنَّ الناظر إلى خارطة التربية من الخارج ، يتهيأ له على أنها على درجة من البساطة لا تحتاج إلى كثير عناء لكي يُلَمْلِم الباحث خيوطها ويقبض على ناصيتها ، ويُدرك كنهها وطبيعتها . لكن . . . عندما يدخل إلى عالمها ليبدأ معالجتها ووَصْل ما تقطَّع من خيوطها لا يمكنه إلاَّ العودة عن رأيه ، بعد أن يرى نفسه أمام جملة من التعقيدات والتقاطعات ، والمتاهات ، ويُدرك أن التربية وعمليتها ليست إلاَّ محصّلة لمعطيات فكرية وأيديولوجية ، سيسيولوجية وسيكولوجية ، منها النظرية ومنها العملانية ، فردية واجتماعية ، إنسانية وبيئية .

وما أكثر المحاولات ، وكم هي متنوعة ، سواء بغرضها أو بمنهجيتها التي قام بها الباحثون ، منها التاريخي ، ومنها الفلسفي ، منها الاجتماعي ومنها الأنثربولوجي . حتى قيل : إن تاريخ التربية هو تأريخ للفكر البشري ، أو تأريخ للحضارة الإنسانية ، أو تأريخ للتطور الاجتماعي السياسي والاقتصادي و . . . .

وهكذا تربط التربية الباحث بها إما بالفكر باعتباره طرفها الأول ومبدأها ، أو بالمجتمع باعتبارها محصّلة له ، أو بالكائن البشري باعتباره موضوعها وغايتها ، أو بالحياة ذاتها ، باعتبارها إحدى تجلياتها وصورها .

إنطلاقاً من هذه الحقيقة ، سنحاول أن نعالج الموضوع من جانبيه : النظري والعملي التطبيقي .

أولاً ـ **الجانب النظري** : إن العملية التربوية نشاط إنساني رافق المجتمعات البشرية والكائن البشري منذ كان وأنى وُجد . فصحَّ بها القول : إنها ظاهرة إنسانية ذات طبيعة إنسانية وماهية إنسانية .

وشأن الإنسان في هذه الظاهرة كشأنه في الظواهر الأخرى : طبيعية كانت مثل الموت والحياة والتكاثر . . . أو اجتماعية كالأسرة والدولة والتجمع البشري ، أو كونية مثل التجاذب والتنافر والسكون والحركة . . . أو إنسانية مثل اللغة والتفكير والعلم والثقافة والحضارة والفن . . . هذه الظواهر وغيرها ، ولأي نوع انتمت ، كانت ولا زالت موضع اهتمام الإنسان ومثار جدل عنده ، وموضوعاً لنشاطه الفكري ، إما للكشف عن طبيعتها وماهيتها من أجل التعايش معها ، وإما من أجل توظيف أفضل لها من أجل حفظ بقائه والترقي فيه . وإما تأكيداً لتمايزه عن غيره من سائر الخلق بميله الفطري للمعرفة ، ونشاطه الفكري الدؤوب .

وبالرغم مما طرأ على مفهوم (Conception) التربية (Education) من تغير عبر العصور ـ كما هو الحال في المفاهيم الأخرى ـ بقيت هذه الظاهرة كغيرها من الظواهر تُمارس وتُعاش من قبل الإنسان على أنها حقيقة لا غنى عنها ولا بديل . وليس هذا فحسب ، بل كان الإنسان دوماً يُمعن في جعلها أكثر طواعية وأبعد أثراً في كينونته وصيرورته .

ومهما اختلفت التفسيرات لهذه الظاهرة ، وتعددت إزاءها المواقف ، فإن الشيء الذي لا خلاف حوله هو : خطورة الدور الذي أُنيط بها ، وجسامة المهام الموكولة إليها . مما حدا بالبعض لاعتبارها الأداة الوحيدة والصالحة التي يمتلكها الكبار (الراشدون) ويمارسوها على الصغار (غير الراشدين) ليصبحوا راشدين (دوركهايم) حتى أن هناك من أنكر على المجتمع امتلاكه لهذه الأداة ، لأن المجتمع من شأنه أن يُفسد ما هو خيّر بالطبيعة (ج . جـ . روسو) . وكان لهم دوماً من قطبيها الكبار والصغار مرة ، والفرد والمجتمع مرة أخرى ، ومن تلازمهما وتكاملهما دليل على أهمية هذه العملية وخطورتها في أن : رأوا أن أهميتها وضروريتها بالنسبة للكائن البشري تكمن في حاجة كل من هذين القطبين للآخر . فالصغار بحاجة للكبار ليحفظوا لهم حياتهم وبقاءهم ، والكبار بحاجة للصغار ليحققوا بهم استمرارهم ويؤكدوا ذواتهم ـ الحالة نفسها بالنسبة للفرد والمجتمع ـ . أما عن خطورتها : لقد رأوا تجليات هذه الخطورة بممارسة الكبار (الراشدين) لها على الصغار (غير الراشدين) ، تلك الكائنات الطيّعة ، المرنة ، السريعة العطب ، والقاصرة ، التي لا نملك من أمرها سوى الطاعة والإذعان والاستجابة لما يمليه الكبار عليها . ولا قوام لحياتهم إلاّ من خلال ما يمدهم الكبار به ؛ من عناية ورعاية ، وتنشئة وتعليم . . . في الوقت الذي يعتبر الكبار أن الصغار هم امتداداً لهم ، وبهم وحدهم يكمن استمرارهم ، من هنا اعتبر البعض أن امتلاك هذه الأداة من قِبل الكبار هو امتلاك « تعسفي » لأنهم يمارسوها على من لا خيار لهم ولا إرادة .

إزاء هذه الظاهرة « التربية » كان للفكر البشري آراء ومذاهب ومفاهيم . إذ قدّم لها التفسيرات واتخذ إزاءها المواقف ، فأبرزها وحدَّدها وكأنها شيء قائم خارجه . فأقدم على دراسة وتحليل لطبيعتها ولماهيتها والكشف عن القوانين التي تحكمها. كما أسهمت هي بدورها في بنائه وتكوينه وسيرورته عندما تعامل من خلالها مع ذاته ومع محيطه وكأنها شيء قائم داخله . فهي إذاً منه وإليه ، منه تبدأ وبه تنتهي . فكانت التربية بحق وبإجماع الآراء الأداة الصالحة ليس فقط لحفظ الإنسان

وبقائه ، بل لينحو بهذا البقاء نحو الأفضل الذي يرغب فيه ، وليبلغ المصير الذي يأمل به[1] . إذ حقق من خلالها إنسانيته ، بتجلياتها المختلفة ، وبصورها المتعددة : الإرادة ـ الحرية ـ الوعي ـ التكيف ـ الفائية . . . وغيرها الكثير من الصفات والخصائص النوعية التي اكتشفها في ذاته ، فجعل من نفسه كائناً متميزاً حيناً ، ومتفوقاً حيناً آخر .

وهكذا كانت التربية ولا زالت وستبقى ، بالإضافة لكونها الأداة الصالحة لحفظ الكائن البشري واستمراره وتفوقه ، هي أيضاً الوسيلة للانتقال بهذا الكائن مما هو كائن إلى ما يرغب أن يكونه ، مما هو موجود بالقوة ، وكامن (Poteutiel) إلى ما هو موجود بالفعل (actuel) . لذا قيل : الآباء فقط يرغبون بأن يكون أبناءهم أفضل منهم .

حول هذا الجانب للتربية التقى الجميع ، وافترقوا على كل ما سواه . افترقوا حول منطلقها « الإنسان » وطبيعته ؛ فتعددت المذاهب والفلسفات ، وحول غاياته وماهيته اختلفت الآراء والمقاصد ، وما بين المنطلق والغاية تقع « المنهجية » La méthodologia كانت تظهر دوماً مدارس وتيارات ما تلبث أن تختفي ليحل مكانها مدارس وتيارات أخرى .

ومع الزمن ، وفي الوقت الذي كانت أهمية هذه الظاهرة « الأداة » تتضح وتتحدد لدى الإنسان ، كانت أهميتها وفاعليتها تنمو وتزداد أكثر فأكثر ، وقد تجلى ذلك بقدرة الإنسان (مالك تلك الأداة) المتنامية بالسيطرة على ذاته من جهة وعلى محيطه من جهة أخرى ، وبمحاولاته الدؤوبة والممعنة في إخضاع كل ما عداه لإرادته ومشيئته . ومما زاد من خطورتها غياب الاجماع حول طبيعة الإنسان ـ موضوع التربية وغايتها ـ وغاياته القصوى . مما أفسح في المجال لتعدد الغايات ولتضاربها . وبالتالي لتنوع البشر واختلافهم . مما دفع بالفيلسوف التجريبي الإنكليزي جـ . لوك (Loke) إلى القول : « إن البشر هم كما هم عليه ، نتيجة للممارسات التربوية ، وإذا أردنا غير هذا النوع من البشر ، فلنغيّر ممارساتنا التربوية » .

وهكذا أخذت الهوة تزداد وتتسع بين الأفراد ، وبين الجماعات والمجتمعات ، بقدر ما اختلفت الآراء والنظريات في هذا الكائن من جهة، وبقدر ما وُضع له من غايات ومقاصد، وبالتالي بقدر ما مورست عليه من أساليب تربوية من أجل تحقيق تلك الغايات. فكان لكل طائفة في المكان والزمان ، حتى في المكان الواحد والزمن الواحد (أثينا وسبارطة) آراء مختلفة ومقاصد متضاربة ، فكانت نماذج وعيّنات من البشر لا عدّ لها ولا حصر .

فكان من الطبيعي إن لم نقل من الضروري أن تتعدد المفاهيم للتربية وتختلف بقدر ما تتعدد المفاهيم للإنسان ـ موضوع التربية وغايتها ـ وبالتالي لغاياته القصوى . إن منهم من تبنى مفهوماً لها

---

(١) إن أوسع التعريفات للتربية انتشاراً هو : إن التربية هي العمل الذي يمارسه كائن على كائن آخر . حول التعريفات المختلفة والمتعددة للتربية انظر : La liste dans l'Encyclopédie Française; Le mot: Education .

انطلاقاً من الغايات القصوى التي افترضها للإنسان ، ووجد في التربية أداة لبلوغ تلك الغايات : الإنسان الفرد (سبنسر وهربارت) والإنسان الاجتماعي (أفلاطون ، وأرسطو ودوركهايم) والإنسان الأخلاقي (كنط) والإنسان الروحي (الإلّهيون) والإنسان العقلاني (المثاليون) والإنسان الواقعي أو العملي (البرغماتيون) . . . وهكذا في سلسلة لا نهاية لها من الغايات وكان من الطبيعي أن يلجأ كل منهم إلى التربية ويتبنى مفهوماً لها ، يكفل له تحقيق إنسانه . وهكذا لترتبط سيرورة الإنسان وكينونته بالتربية ، فرداً كان أم جماعة (الإنسان محصلة تربوية) . مما دفع بعالم النفس واطسون إلى القول : « أعطني اثني عشر طفلاً طبيعياً وخذ كلاً منهم الإنسان الذي تريد » .

ولعلَّ الذي زاد مفهوم التربية إبهاماً وغموضاً ، حتى غدا هذا المفهوم كالسراب يُرى ولا يُدرك ، وحقيقة نعيشها ولا نعيها ، تعدد التفسيرات للإنسان ولطبيعته باعتباره موضوعاً للتربية وغاية لها .

لقد أجمع الكل ـ لأي فلسفة انتموا ـ على أن الإنسان هو موضوع التربية ؛ بما فيه الكبار منهم والصغار ، الراشدون وغير الراشدين ، معلمون ومتعلمون ، آباء وأبناء ، مؤثرون ومتأثرون[1] . . . وكل ما يستجد حول هذا الكائن من منطوقات . وبكلمة واحدة العالم الأصغر (Micro-cosme) ، وما قيل في طبيعته وماهيته وما قد يقال . وما أُعتمد حوله من مفاهيم وما قد يُعتمد . . وما أكثرها . ونرى من المناسب أن ندرج هنا على سبيل المثال وليس الحصر بعضاً مما قالته الفلسفة في طبيعة هذا الكائن وفي ماهيته :

١ ـ هناك من افترض أن الإنسان ذو طبيعتين متنافرتين ؛ وأن حياته صراع قائم بين هاتين الطبيعتين : الروح والبدن . مع كل ما يرافق هذا المفهوم من اختلاف حول طبيعة وماهية كل منهما من جهة ، وطبيعة العلاقة بينهما من جهة أخرى . لِمَن الأفضلية ؟ لِمَن الغلبة ؟ متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ وعلى ضوء هذا المفهوم للإنسان موضوع التربية صُنّفت الفلسفات إلى مثالية (Idealisme) أو عقلية (Rationalisme) حيناً ، وإلى تجريبية حسيَّة (Expermentalisme) أو واقعية (Rèalisme) حيناً آخر ، وما أكثر ما تفرَّع عن الفلسفة الأم من فلسفات وتسميات كانت ناتجة إما عن النظرة لطبيعة كل منهما ، أي الروح والبدن ، وإما عن طبيعة العلاقة التي تحكمهما .

وقد ترتب ما ترتب على تلك الرؤية من تربية وتكوين وتنشئة وتدريب وترويض وسيرورة لهذا الكائن . بما يناسب هذه الفلسفة أو تلك ، فجاءت بالمقابل تصنيفات للتربية تتناسب مع فلسفاتها :

---

(١) نذكّر هنا بطروحات التربية الحديثة للتربية المستمرة أو المستديمة (L'éducation Permenente) .

(٢) أفلاطون هو من أطلق هذه النظرية وبنى عليها فلسفته التي شاعت وساهمت في بناء الفكر البشري ولا تزال تتفاعل فيه .

إما تربية للماهية (Pédagogie de l'essence) وإما تربية لما هو موجود (Pédagogie de l'existence)[1] .

٢ ـ هناك من قدَّم لنا الإنسان على أنه ذو قطبين متنافرين ومتصارعين : وحياته صورة عن ذلك الصراع الدائر بين الفرد والمجتمع . مع كل ما قد يحتمله هذان القطبان من اختلاف وتناقض في الطبيعة وفي الغايات مما يوجب هذا الصراع . وبناء على هذا المفهوم للإنسان قامت فلسفات ونظريات منها الفردية (Induvidialisme) ومنها الاجتماعية (Socialisme)[2] . كل منهما يغلب قطبه على الآخر . ومنها التوفيقية أخذت موقفاً معتدلاً من هذه وتلك وُصفت بالإنسانية (Hummanisme) مرة ، وبالعقلانية (Rationalisme) مرة أخرى ، وراحت توفق بين القطبين (لا فرد بلا مجتمع ولا مجتمع بلا فرد) . وهكذا على أساس هذا المفهوم للإنسان ولماهيته نشأت تيارات ومذاهب حتى داخل الفلسفة الواحدة (هوبز وروسو) على درجة من التناقض والتعارض . وراح كل منها متخذاً من التربية أداة لبلوغ هدفه وتحقيق إنسانيته . فكانت تربية من أجل الفرد مرة (Pédagogie de l'individi) وتربية من أجل المجتمع مرة أخرى (Pédagogie de sociale) أو تربية توفيقية بين ما هو فردي وما هو اجتماعي .

٣ ـ وهناك من قدَّم لنا هذا الكائن وحياته على صورة صراع قائم بين طبيعتين : الطبيعة الداخلية (Interne) والطبيعة الخارجية (Externe) أو بين العالم الأصغر (Microcosme) الإنسان ، والعالم الأكبر (Macrocosme) الكون . صراع بين طبيعتين مختلفتين ، مرة من أجل حفظ البقاء ، وأخرى من أجل حفظ النوع . مع ما رافق هذه الرؤيا من درجات التمايز والاختلاف بين الطبيعتين من جهة ، ومع المفهوم القائم بالذهن لكل منهما من جهة أخرى . منهم من دعا إلى التوفيق والانسجام بينهما (أبيقور وأفلوطين) ومنهم من دعا لتغليب إحداهما على الأخرى وقهرها .

وفي كل الأحوال كانت التربية هي الوسيلة والأداة لتحقيق هذا الإنسان أو ذاك . فكانت مرة طبيعية وفق الطبيعة البشرية (روسو) ومرة أخرى تربية تخالف تلك الطبيعة باعتبارها مصدر الشرور والآثام (هوبز) أو تربية ما هو موجود (Pédagogie de l'exatentialisme) ، وهكذا كانت التربية هي المرتجى وعليها المعوَّل .

٤ ـ هناك من يقدّم لنا هذا الكائن وحياته في صورة صراع مع الذات : باعتمادها غايات مختلفة ومتناقضة للإنسان ولحياته ، ليدار هذا الصراع دوماً من الداخل ، وبصرف النظر إن كان هذا

(١) النوع الأول من التربية (تربية الماهية) يشمل كل تربية تضع مثالاً (Idéal) للإنسان سواء كان في الفكر ، أو في عالم غير هذا العالم ، وتعمل على البلوغ بالإنسان ذلك المثال كغاية قصوى لها . مقابل النوع الآخر من التربية (تربية ما هو موجود) ، الذي ينطلق من حقيقة ما هو موجود لدى الإنسان (حاجات ـ قدرات ـ استعدادات . . .) ويعمل على تنميتها وتربيتها للبلوغ بها أقصى ما يمكنها بلوغه ، ليغدو كل فرد نموذجاً ومثالاً لذاته .

(٢) يقول العالم الاجتماعي دوركهايم : إنَّ الإنسان الذي تود التربية تحقيقه فينا ، ليس هو الإنسان كما خلقته الطبيعة ، وإنما الإنسان كما يريده المجتمع أن يكون .

الصراع بين العلم والجهل (سقراط وأفلاطون) أو بين الخير والشر (بوذا وكونفشيوس) أو بين الحق والباطل ، أو بين الظلمة والنور ، أو العدل والظلم ، لينعكس هذا الصراع سلوكاً وممارسات ومواقف إزاء ما هو خارج الذات. وإن كان الجميع قد تنبأوا بتغلب ما هو خير وعدل وعلم وحق ودعوا لنصرته ، وإلى أن يحين ذلك ، تبقى حياة الإنسان في حالة كرّ وفرّ بين الضدين ، وهو ما تنطوي عليه النفس البشرية. هنا أيضاً كانت فلسفات ومذاهب وآراء قُدّمت للإنسان إما من أجل مساعدته على إدارة هذا الصراع ، ولتوجيهه ، أو من أجل تجاوزه والخلاص منه . وهل بغير التربية يمكن بلوغ ذلك ؟

إنه غيض من فيض ، مما قيل في هذا الكائن[1] ـ موضوع التربية وغايتها ـ وما قد يقال ، إنها نماذج وعيّنات ، عبارة عن خطوط عريضة وبارزة تميز هذا المفهوم عن ذاك ، وهذه الفلسفة عن تلك ، إنها دليل يسترشد به كل باحث في التربية ، ويهتدى به إلى المعالم والمنعطفات التي رسمت خريطة التربية وحددت مسارها وممارساتها عبر المكان والزمان . وكان من الطبيعي أن يترتب الكثير على هذا الاختلاف في النظرة للإنسان ؛ أقلها في الإجابات التي ترد على التساؤل الذي كانت التربية تطرحه على الفكر ولا زالت في كل مكان وكل زمان : أي إنسان نريد ؟ وما هي الصيرورة التي نسعى إليها ؟ فكانت الإجابات بالطبع مختلفة . وبالتالي نماذج من البشر مختلفة ومتفاوتة . ليبدو وكأن الإنسان محصّلة تربوية . فهل نريده إنساناً صالحاً أو مواطناً صالحاً ، كائناً اجتماعياً ، أم كائناً فرداً . فرداً قومياً ، أم دينياً . . . وهكذا في سلسلة من الأسئلة لا نهاية لها . فالغايات دوماً متغيرة ، وأيضاً النماذج والعينات . ومما لا شك فيه ، نتيجة لما توصلت إليه العلوم مؤخراً ـ الإنسانية منها على وجه الخصوص ـ علم النفس ، والاجتماع ، البيولوجيا والأنثربولوجيا والفيزيولوجيا ، من الكشف عن حقائق بلغت درجة اليقين هذا من جهة ، وبفضل ما تحقق في مجال المنهجية والطرق والأساليب والأدوات والوسائل التقنية من جراء التقدم التكنولوجي والتقني الحديث ، مما جعل من هذه « الأداة » أكثر فعالية وأبعد أثراً ، وأشد خطراً ، في يد الإنسان من أجل بناء الإنسان وتكوينه . فجاءت بالتالي المراهنات تنطوي على درجة أعلى من المجازفة ، ويكتنف مصير البشرية أفراداً وجماعات الضبابية والضياع .

وخلاصة القول : كما إن التربية لا تمارس في فراغ ، هي أيضاً لا تنبع من فراغ . حقاً إنها « تمارس على فرد أو جماعة ، من قبل فرد أو جماعة »[2]. لكنها لا بد أن تنبع من فكر فردي أو جماعي ، إنها مُحصّلة لتصورات فكرية (Perceptions) ولممارسات عملانية ولخبرات فردية واجتماعية ، قبلتها الجماعة وركنت إليها ، وأخذت تعمل على بناء أبنائها وأفرادها بمقتضاها ،

---

(١) لقد تجاوزنا بهذه النماذج ما جاءت به الرسائل السماوية في الإنسان وطبيعته ، لأننا بصدد الفلسفات العقلية فقط ، وما عدا ذلك يكون خارج إطار البحث . ولكن لا بد من كلمة هنا وهي : ان الفلاسفة مسيحيون كانوا أو مسلمون قد تأثروا بشكل أو بآخر بهذه الفلسفة أو تلك ، طالما أن العقل هو رائدهم .

(٢) هذا المفهوم للتربية وهو الأكثر شيوعاً أخذ به المربي والفيلسوف ، جـ . ديوي .

فكانت التربية « أداتها » ووسيلتها . يقول الفيلسوف الإنكليزي بتراندرسل : (إنَّ لكل مجتمع نظامه التربوي ، وعدته التربوية . . وإن هناك علاقة ودٍ بين النظام الاجتماعي والنظام التربوي) .

بقي كلمة عن الموقع الذي تحتله كل من الفلسفة والتربية بالنسبة للأخرى ، وعن طبيعة العلاقة التي تحكمها .

ثانياً ـ **الجانب التطبيقي**: إذا أخذنا بالمفهوم التقليدي للفلسفة، على أنها المحاولات التي يقوم بها الفكر البشري لفهم العالمين: الأكبر والأصغر، أي الكون والإنسان، وتقديم تفسير للعلاقة بينهما، والموقع الذي يأخذه كل منهما بالنسبة للآخر ، إن هذا المفهوم وتلك المحاولات لا بد أن تتضمن بالضرورة تصوراً للطبيعة الإنسانية ولماهيتها . فتكون التربية والحالة هذه هي الترجمة العملية والتطبيقية لهذه الرؤيا ولتلك التصورات الفكرية النظرية ، وإن تلك التصورات لا مجال لتحقيقها على أرض الواقع إلاَّ من خلال ممارسات عملانية على هذا الكائن ، وما هذه الممارسات بالذات إلاَّ التربية حسب ما فهمها معظم الفلاسفة وبها عملوا على الانتقال بالإنسان مما هو كائن في الواقع (La réalité) إلى ما يجب أن يكون في المثال (Idéale) ، أو الانتقال مما هو موجود بالقوة (Poteutiel) إلى ما هو موجود بالفعل (Reéle) . وسواء كان الهدف هو « الوجود بالفعل »أو «ما يجب أن يكون»، لا يعدو كونها تصورات ورؤى أقامها الفيلسوف في « الفكر » لهذا الكائن ، كنموذج أو كمثال نظري للإنسان . وهذا الذي هو « بالفكر » ليس إلاَّ المثال الذي اختاره الفيلسوف لإنسانه[1] . ومن الطبيعي أن يبقى هذا « المثال » في الإطار الفكري النظري (التصورات والتخيلات) طالما لم يُتح له من يحققه في الواقع . والتربية هي فعلاً « أداة » ذلك التحقيق . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تُقدّم لنا الفلسفة والحكمة (La sagesse) عادة على أنهما مرادفين لمفهوم واحد[2] . والحكمة تقتضي من الفيلسوف البوْح عما توصل إليه من حقائق ، والدعوة إليها وتعميمها ونشرها . وليس العكس . إذ ليس من الحكمة في شيء أن تكون قبضتك مليئة بالجواهر (الحقائق) وتُبقي عليها مقفلة . كما أنه ليس من الحكمة في شيء أن يعيش الفيلسوف « السعادة » التي بلغها في كشفه عن الحقيقة وحيداً في « محرابه » وبمنأى عن بني جنسه . لذا نرى دوماً من أولى مهام الفيلسوف أو الحكيم الإعلان عن فلسفته ونشرها ، والدعوة للانضواء إلى محرابها ، والعمل بموجبها ، والحياة بمقتضى حقائقها . حتى لو اقتضى ذلك منه أحياناً تقديم حياته قرباناً لها ، أو التخلي عن ما يمتلكه (سقراط ، بوذا ، الرسل والأنبياء ، والكثير من الحكماء والعارفين) ، ولنا من سيرة حياة هؤلاء وأمثالهم الكثير من الدروس والعبر . ولنا أمثلة كثيرة مما أقدمت عليه هذه الفئة من البشر من تضحيات ومعاناة من أجل

---

(١) هذا المفهوم للتربية : تأخذ به كل فلسفة تعتمد العقل أداة للمعرفة ، وتعتمد العقل وسيلة لتحقيق ماهية الإنسان باعتباره « كائناً مفكراً » . وهذا النوع من التربية يُدرج تحت عنوان التربية المثالية إذ تبدأ التربية حيث ينتهي الفكر ، ويبدأ الفكر حيث تنتهي التربية .

(٢) أفلاطون هو أول من أطلق على الحكيم فيثاغورس لقب فيلسوف ، ومن تاريخه أصبحت الفلسفة تعني الحكمة ، والعكس صحيح .

الانتقال بمجتمعاتهم ، أو ببني قومهم ، أو ببني جنسهم ، مما « كانوا عليه » ورفضوه ، لينتقلوا بهم إلى ما رأوا لهم فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم ، أي ما « يجب أن يكون » . فكان الفيلسوف أو الحكيم يقدّم فلسفته (حقائقه) التي اكتشفها بيدٍ ، ويُقدّم باليد الأخرى نظامه أو مذهبه التربوي الكفيل ببلوغ تلك الحقائق ؛ راسماً لمريديه ، ولتلاميذه ، ولحواريه . . . الطريق الصحيح ـ كما رآه هو ـ فكراً وعملاً ، رأياً وممارسة ، معتقداً وسلوكاً ، لتصبح الفلسفة تلك واقعاً معاشاً وأسلوب حياة للأفراد كما للجماعات ممن أخذ بتلك الحقائق والنظريات . ومن الطبيعي أن يستعين الفيلسوف في المكان والزمان بكل ما أُتيح له من مُقدّرات ومعطيات ، وسائل وإمكانيات مادية وفكرية ، من أجل تحقيق غرضه (حلقات درس ، جدال ونقاش ، فتح المدارس والجامعات ، تعليم وتربية وتنشئة . . .) . وهل التربية غير هذا يا ترى ؟ إنها في أحدث مفاهيمها عند : جـ . ديوي ، وتيراندرسل ، وكلاباريد ، والكثيرين غيرهم من الفلاسفة والمربين المعاصرين : « التربية هي الحياة » .

وهكذا تكون العلاقة بين الفلسفة والتربية علاقة وظيفية ، تقدم الفلسفة للتربية تصوراً ومفهوماً للطبيعة الإنسانية ولماهيتها ، وما على التربية إلاّ أن تترجم هذا المفهوم إلى وقائع وحقائق . والتربية بدورها تصوّب توجّه الفلسفة وممارساتها بما يناسب طبيعة هذا الكائن في حال التفاعل معه بما ليس من طبيعته أو يتنافى معها . لتبقى الفلسفة والتربية صنوان لا يفترقان ، فلسفة بلا تربية مبتورة ، وتربية بلا فلسفة عمياء . والحالة هذه في الفلسفة مع التربية والتربية مع الفلسفة ، فلا مندوحة لنا إلاّ أن نضمّ صوتنا إلى صوت المربي الفرنسي رينيه أوبير (R. Hubert) متوجهاً إلى رجال الفكر وإلى أهل الفلسفة قائلاً : (إنَّ أكبر خدمة يقدمها رجال الفكر إلى عصر تعيس ، أن لا يقولوا لأبنائه غير الأفكار التي أخذوها على عاتقهم بعد أن أطالوا النظر والرويّة فيها ، وعملوا مديداً على إنضاجها)[1] . لتكون هذه الفلسفة (هي الشاهد على اعترافات الفكر وهو يبوح بخير ما عنده وليس بشر ما عنده ، وليس كشأن المرء صاحب الخطيئة أمام القسيس للبوح بما أقدم عليه من شر وخطيئة)[2] .

وها نحن أمام حقيقة لا غبار عليها ، وهي أن كلاً من الفلسفة والتربية تضطلعان بمسؤوليات جسام وبأخطر المهام الموكولة إلى الإنسان كإنسان وخاصة التربية ، وهو ما يقع على عاتق العظماء من البشر : أنبياء ومرسلين ، حكماء وفلاسفة . . . هم من أخذوا على عاتقهم تبعة سيرورة الإنسان وصيرورته، وليس فقط لهذا الشطر من الحياة في الدنيا، بل في شطرها الآخر، في الحياة الآخرة. فإذا كان من واجبنا أن نذعن وننقاد ، فمن حقنا أن نعرف : لِمَن ؟ وإلى أين ؟ ولماذا . . . ؟ أما كيف ؟ يبقى هذا الأمر متروكاً إلى علم التربية أو فن التربية (La Pédagogie) الذي من شأنه البحث

---

(١) انظر ،

Traité de Pédagogie générale, par René Hubert, presse uni, de France, Paris, 1946.

(٢) نفس المرجع .

عن أفضل الطرق والأساليب التي ينبغي أن تُتبع لتكون التربية أكثر عمقاً وأبعد أثراً في الكائن .

والآن ، أين نحن على أرض الواقع ، من تلك العلاقة الصورية أو النظرية التي أقمناها بين الفلسفة والتربية ؟ أو بشكل آخر ، هل هناك في الواقع ما يبرر هذا القول ويثبته ؟

سوف لن نذهب بعيداً بالإجابة على هذا التساؤل ، ولن نسمح لأنفسنا لأن نعيد قراءة الفلسفة أو شرحها من جديد ، فنضيع في متاهاتها ، ونفقد غرضنا . بل سنكتفي بأخذ عيّنة كنموذج من أمهات الفلسفات والأثر الذي تركته من أجل الإجابة على هذا التساؤل .

لعلَّ لنا من فلسفة : سقراط (ت ٤٦٩ ق. م .) وأفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٨ ق. م .) وأرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م .) هذا « الثالوث المعتدل » الذي تربع على عرش الفكر البشري أكثر من عشرين قرناً ولا يزال ، مخلفاً في الفكر البشري بذوراً فكرية كانت تنبت وتترعرع وتَيْنَع ثماراً تقطف البشرية جمعاء أُكلها ، في الشرق كما في الغرب ، كلما أُتيح لها المناخات المناسبة والظروف المؤاتية .

قدّمت هذه الفلسفة حلولاً لكبرى المشاكل التي كانت ولا تزال تواجه الفكر البشري باحثاً لها عن إجابات وحلول ، والتي يمكن تلخيصها كالتالي :

أولاً ـ مشكلة المعرفة الإنسانية (طبيعتها ـ أنواعها ـ أدواتها) :

اعتمدوا العقل لها « أداة » بصرف النظر عن طرق الكشف عنها ـ سواء كانت هذه الحقائق مخزونة في العقل ويحملها من عالم المُثل الذي كان يعيش به قبل هبوطه الجسد ـ حسب أفلاطون ـ أو كان مصدرها العالم الخارجي ـ حسب أرسطو ـ ليبقى العقل بما يتضمنه من قوانين فطرية بموجبها يتقبل ما يوافقه ، ويرفض ما لا يوافقه[1] . في كلتي الحالتين يبقى العقل هو المقياس والمعيار لما هو معرفة حقيقية وثابتة ، وما هو غير حقيقي وغير ثابت .

فكانت المقولة المشهورة والمفهوم الذي اعتمده هذا الثالوث للإنسان على أنه « كائن عاقل أو مفكر » . الفكر أو العقل هو الفصل بينه وبين غيره من الكائنات . عليه المعوّل ، وإليه توجهت الأنظار ، وعلى تربيته وتكوينه تضافرت الجهود . . . ولا زالت . . مفهوم للإنسان اعتمدوه وعملوا على توكيده وتثبيته في النفوس والعقول .

أما ماذا ترتب على هذا المفهوم ، يكفي النظر بما بلغه هذا الجوهر الإنساني (العقل) سواء إبان القرون الوسطى ـ ما قبل عصر النهضة ـ أو في عصر النهضة ، أو العصور الحديثة . من مرتبة لم يبلغها أي جوهر آخر فيه . إنَّ أقل ما قيل فيه ، إنه أصبح الحكم ، بل المحكمة التي تقاضي كل ما عداه . وتنطق أحكامها على كل ما سواها رفضاً أو قبولاً ، صواباً أو خطأ . بالرغم من كل ما

---

(١) نذكر هنا بقوانين أو بالمقولات العشر لأرسطو ، واضع أسس المنطق الصوري أو الارغانون .

تعرَّض له من اضطهاد أحياناً ، وكبت ، واستبعاد لدوره ، واستعداء له[1] .

ثانياً ـ مشكلة الثنائية في الطبيعة الإنسانية ، وعلاقة الروح بالجسد :

إن اعتماد هذا الثالوث كمفهوم للإنسان على أنه «كائن روحي مفكر» ـ بصرف النظر عن التفسيرات والنظريات التي قدَّموها هم أو غيرهم للروح. حول هذا المفهوم للنفس الإنسانية ولعلاقتها بالجسد ـ حقاً إن أفلاطون اعتمد نفوساً ثلاث هي : الذهبية ، والفضية والحديدية والتي تتجسد في ثلاثة أنواع من البشر ـ الرجل الذهبي والرجل الفضي والرجل الحديدي ـ ولكل نفس فضيلتها (الذهبية « الفكر » ، والفضية « الشجاعة » ، والحديدية « الطاعة والاذعان ») وهذه النماذج الثلاث تنضوي في طبقات اجتماعية تشكل بمجملها المجتمع ، بطبقاته الثلاث : الفلاسفة ، الحراس ، العاملون . وكل نفس تحقق فضيلتها بانتمائها إلى الطبقة المؤهلة لها والتي استطاعت بلوغها ، وبالطبع يكون الإنسان الذهبي في قمتها ، وتحقق النفس البشرية ماهيتها ببلوغ فضيلة « التفكير » وما عداها من النفوس تبقى في درجة أدنى من ذلك ، حيث لم تستطع تحقيق ماهيتها .

أما أرسطو قد رأى ثلاثة أنواع من النفوس : الفاذيّة ، والشهوانية ، والناطقة ، وفي هذه الأخيرة تتحقق الماهية الحقيقية للإنسان . فعلى النفس أن تجتهد وتكابد لتتجاوز المراتب الدنيا لتبلغ ما فيها « سعادتها »[2] ، أي مرتبة النطق باعتبارها هي ماهية الإنسان الحقيقية . وكل نفس من هذه النفوس تتجسد في أحد أنواع الكائنات الحيَّة (النبات ، والحيوان ، والإنسان) . وسعادة كل فئة في انتمائها إلى الطبقة التي استطاعت بلوغها ، فإن للنبات « سعادته » في تحقق ماهيته بالغذاء . وللحيوان سعادته في تحقق ماهيته في تأمين شهواته والانقياد لها . وللإنسان سعادته في تحقيق ماهية « النطق » التي هي أسمى وأعلى مراتب النفوس .

أما ماذا ترتب على هذه الفلسفة ، إنه الكثير والكثير ، إن لجهة تنويع النفوس على أساس ما بلغته من درجات الكمال ، ومن الترقي من أجل تحقيق ماهيتها . وإن لجهة انتماء كل نوع منها إلى الطبقة أو الفئة من النفوس المشابهة لها ، إن فيه ما فيه من النظرة للإنسان : أولاً باعتباره قادراً على الترقي وبلوغ أعلى الدرجات ، وبالتالي وجود سلم للمثل التي على النفس الإنسانية أن تندرج به لتبلغ ماهيتها الحقيقية . مما جعل تصنيف أفراد المجتمع ، وطبقاته يقوم على الترقي الروحي والفكري وليس على أي شيء غيره كالسلطة ، أو الثروة ، أو القدرة الجسدية ، أو المادية .

هذا ما قدمته هذه الفلسفة على هذا الصعيد . بالنسبة لطبيعة الكائن البشري ولعلاقة الروح

---

(١) نذكر أيضاً بالصراع الذي قام ، ولا زال في بعض الأحيان ، بين العقل والنقل ، بين العقل والحواس . طيلة القرون الوسطى ، وفي عصر النهضة ، ليسجل العقل انتصاراته ، ويتابع مسيرته وتفوقه مرسخاً سيادته دوماً .

(٢) لم يقل أرسطو بأن لكل نفس فضيلة، بل قال بأن لكل نفس سعادتها ، بانتمائها إلى الفئة التي استطاعت أن تدركها . وسعادة الروح الانسانية تكون في بلوغها مرتبة « النطق » .

بالبدن ، أو الفكر بالجسد ، فهو كائن روحي والجسد ليس إلاَّ أداة للروح إما عليها أن تتغلب عليه وتقهره ـ حسب أفلاطون ـ لتنتقل الروح إلى عالمها المثالي الذي كانت به[1] ، وإما لتوظيفه من أجل الكشف عن الحقائق الموجودة في هذا الكون بعد إحالتها على محكمة العقل ليطلق حكمه عليها بموجب القوانين الفطرية المزوّد بها ـ حسب أرسطو ـ .

لتبقى مقولة « الإنسان كائن روحي مفكر » التعريف الدارج والشائع ، والمفهوم الواضح والمحدد ، لقد تعامل هؤلاء الفلاسفة بموجبه مع أنفسهم ومع الآخرين ، وكل من أخذ بهذه الفلسفة وتلك الرؤيا ممن جاء بعدهم . حتى غدا في بعض الأحيان وعند بعض الأقوام ، ان اضطهاد الجسد ، ونبذه هي السمة التي تميز ما هو إنساني عن ما هو غير إنساني .

ثالثاً ـ المشكلة الثالثة التي قدّم لها هذا الثالوث حلولاً ، هي **مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع** . إنها مشكلة أخرى كانت قد قامت ولم تقعد حتى الآن . مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، أيهما الأسبق ؟ لمن السيادة ؟ ولِمن كلمة الفصل ؟ فكان لهم من تلك المقولة « الإنسان كائن اجتماعي » التي اعتمدوها وعملوا بموجبها على تنظيم الجماعة وعلى تنظيم العلاقة بين الأفراد والمجتمعات ما أسهم في حلول الكثير من المشاكل وأجاب على الكثير من الأسئلة التي كانت تُطرح ولا تزال . لقد اعتمدوا المجتمع ـ بصرف النظر بمن يُمثِّل ، بالفلاسفة ، أو بإحدى الطبقات ، أو بالحاكم ـ كمحكمة لها حق إطلاق الأحكام في حال النزاع والخصام . فكما أن من حق المجتمع أن يحمي ذاته ، ويدافع عن كيانه ويسعى إلى تقدمه وتطوره ، وترقيه ويتحقق له ذلك عن طريق تقدم وتطور وترقي أفراده ، فمن واجب هؤلاء الأفراد أن يعملوا على حفظه ورفع شأنه والتقدم فيه نحو غاياته وغاياتهم ، لأنه (لا اكتفاء ذاتي للفرد ولا للأسرة خارج المجتمع) . كما أن من حق المجتمع على أفراده العمل جميعاً في إطاره ومن خلاله ، ومن أجله ، فإن من واجب المجتمع نحو أفراده ، أن يهيأ لهم جميعاً الظروف ، ويتيح لهم كل الفرص من أجل بلوغ أقصى ما عندهم من طاقات ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لينخرط كل منهم بالفئة أو الطبقة التي استطاع بلوغها محققاً فضيلته بها أو سعادته[2] والعمل معها من أجل الكل. وكانت التربية هي « الأداة » ، فوضعوها في يد المجتمع من أجل تحقيق هذا الغرض . بعد أن وجدوا أن هناك علاقة « سببية » بين التربية والمجتمع (فلا مجتمع بدون تربية ولا تربية بدون مجتمع) وهو ما قال به مؤخراً عالم الاجتماع دوركهايم : فلا تحقيق للطبيعة الإنسانية إلاَّ في إطار المجتمع المنظم .

أما ما الذي ترتب على هذا المفهوم وعلى تلك المقولة في الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما ، يكفي أن نستعرض ما قام من نظريات فلسفية اجتماعية وفردية . وما تلاها من صراعات بين الأفراد والجماعات ، بين الطبقات ، وبين الحاكم والمحكوم . ولا يزال ، عبر العصور والقرون ، لتأخذ

---

(١) وُصِفت تربية أفلاطون بأنها تربية مثالية تقشفية لاضطهادها الجسد .

(٢) طلب أفلاطون الفضيلة ، وأرسطو السعادة .

المجتمعات المنظمة الوضع الراهن الذي تعيشه ، وكانت محور هذه الصراعات دوماً ، من له حق تمثيل المجتمع ، وكيف[1] ؟ وفي كل الأحوال كانت تحمل في ثناياها تلك البذور التي غرستها فلسفة أفلاطون وأرسطو في الفكر البشري ، حول الفرد والمجتمع وعلاقتهما .

بقي علينا أن نتساءل الآن : **لماذا** ؟ بلغ هؤلاء الفلاسفة ما بلغوه من الثبات والاستمرار بالتربع في قمم الفكر البشري ، وتبلغ هذه الفلسفة ما بلغته من قوة الأثر والتأثير في كل من جاء بعدها ، لتبقى طيلة القرون التي تلتها هي الشغل الشاغل ، للفكر وللمفكرين : في القرون الوسطى سواء منها المظلمة (٥٠٠ ب م ـ ١٠٠٠ ب. م) وعصر النهضة المتجددة (La renaissance) (١٠٠٠ ـ ١٤٥٣) ، بصرف النظر كانوا « مع » أو « ضد » هذه الفلسفة . فعلى عقل أرسطو ومنطقه الصوري تغذى فكر القرون الوسطى هذه ، وعليه تربّى ، وبه استعانت المسيحية في الرد على الوثنيين وعلى العقلانيين المتطرفين . ليبقى أرسطو طيلة هذه القرون « سيد العارفين » ومنطقه أداة لبناء العقول وتربيتها . ومادة للتعلّم والتعليم[1] . في هذه القرون بَذَرَت فلسفة أفلاطون وأرسطو بذور « المثل العليا » في العقول والنفوس، في الأفراد والجماعات . لتيْنَع في عصر النهضة وما بعده . مذاهب وفلسفات وتيارات تحررية : عقلية ، وتجريبية ، طبيعية ، اجتماعية وإنسانية . لتعطى أُكلها لمجتمعات العصور الحديثة علماً ومكتشفات ، ثقافة وحضارة ، تنظيماً لحياة الأفراد والمجتمعات . إن خلاصة القول : أحد يُنكر ما كان لهؤلاء الفلاسفة ، ولذلك الفكر من بُعْد أثر على مسار البشرية جمعاء ، إلاّ متعصب جاهل ، أو قصير نظر .

تبقى الإجابة على ألـ « لماذا » الكبيرة تلك . هي مدار البحث وغايته ، ووراء كل ما قدمناه .

ولعلَّ بصياغة بعض التساؤلات ، يُحدّد مسار الإجابة على الـ « لماذا » هذه وتكمن فيها الإجابة .

لا بدّ أولاً من الاعتراف أن هناك الكثير من الفلسفات والمفاهيم والنظريات سواء طرحها فكر فرد أو جماعة في مكانه وزمانه لم يُكتب لأي منها ما كُتبت لفلسفة سقراط الذي ترك لنا أفلاطون ، وأفلاطون الذي ترك لنا أرسطو ، وأرسطو الذي ترك لنا ما ترك من ثبات ، واستمرار وبُعد أثر . لتتوالى التساؤلات فيما بعد على ضوء ذلك :

١ ـ هل لأن هذه الفلسفة وتلك المفاهيم كان يُتاح لها باستمرار من يتبناها ويُروّج لها وينشرها في أوساط الفكر عبر العصور والمجتمعات ؟ ولماذا هذه الفلسفة وليس غيرها ؟

---

(١) نشير هنا إلى الصراع الذي قام بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية طيلة القرون الوسطى ، وما تبعه من صراع بين الطبقات الاجتماعية (الأشراف ، والبرجواز) والذي يتجلى في العصور الحديثة بنزاع الأنظمة السياسية ، وطرق تنظيمها . وطرح الديمقراطية كحل لهذه المشكلة .

(٢) نذكّر هنا بالعهد المدرسي (Scholastique) من القرن العاشر بعْد الميلاد في الخامس عشر الذي اعتمد منطق أرسطو وتعاليمه مادة التدريس في الجامعات اللاهوتية منها وغير اللاهوتية .

٢ ـ هل لأن هذه الفلسفة وتلك المفاهيم كانت مطابقة بشكل كلي أو جزئي لما هو في واقع الحال (لكل من الطبيعة الإنسانية ، وللفرد والمجتمع ، وللمعرفة الإنسانية) أي أنها تحتمل درجة عالية من الصدق والصواب أكثر ما احتمله غيرها ؟

٣ ـ هل لأن هذه الفلسفة وتلك التعاليم مورست عملياً وطُبّقت فعلياً على الأفراد والجماعات ، بموجب تعاليمها نُشِّئوا ، وبمقتضى مستلزماتها كُوِّنوا ، عقلياً وروحياً ، وجسدياً وخلقياً . . . إلخ ؟ .

٤ ـ هل لأن أصحابها كان عندهم من بعد النظر ، أدركوا بموجبه بأن الفلسفة مهما كانت صائبة ، ومهما كانت معقولة ومقبولة ، إذا لم تقترن بنظام تربوي مناسب ، ليُربي ، وينشِّأ الأفراد والجماعات عليها وبها ، لا يمكن أن يُكتب لها لا الثبات ولا الاستمرار ؟ .

٥ ـ هل إن الواقع المعاش (الحق والحقيقة) تكمن في المعادلة التالية :
فلسفة محكمة (فهم صائب للواقع) + تربية مناسبة = الواقع (الحق والحقيقة) .

والحالة هذه تكون مقولة « كما تفكر تعيش » هي الوعاء الذي تلتقي داخله الفلسفة (الفكر) بالواقع ، ما هو في الرأي مع ما هو في النظر ، ما هو كائن مع ما يجب أن يكون .

إنَّ المذهب التربوي الذي قدَّمه كل من أفلاطون[١] وأرسطو[٢] مقرونين بفلسفتهما وبالنظام التربوي الملحق بهما واللذين عملا بموجبه على تربية وتنشئة تلاميذهما وأتباعهما ، ومن ثمة عمل به كل من استنار وتأثر بفلسفتهما . لا شك إنه كان نظاماً مناسباً لتلك الفلسفة حيث استطاعا من خلالهما (الفلسفة والنظام التربوي) تحويل ما في الفكر إلى واقع ، والانتقال مما هو في الواقع إلى ما هو بالفكر ، لتصبح الفلسفة كما التربية سلوكاً وممارسة ، وبكلمة هي الحياة .

فما أحوجنا في مجتمع تعيس أن نعيش فكراً نمتلكه ، لا أن نعيش كما يفكر الآخرون ، أو نفكر كما يعيش الآخرون . . !؟ .

---

(١) ضمَّن أفلاطون مذهبه التربوي في كتابيه « الشرائع » و « الجمهورية » .
(٢) ضمَّن أرسطو مذهبه التربوي في كتابه « السياسة » الفصلين ٧ و ٨ .

مـدخل إلى المنهجية في العلوم الاجتماعية

د . فارس اشتي

يخلط بعض الدارسين بين جملة مصطلحات مستخدمة في حقل المعرفة كالمنهجية والمنهج وأسلوب البحث والابيستمولوجيا ونظرية المعرفة والمنطق ، لا بل يصل الخلط إلى كـل مصـطلح من هذه المصطلحات فتتباين الآراء وتتعدَّد .

وإذا كان الوصول إلى توضيح قاطع في هذا المجال أمراً لا ندعيه فإن محاولة في هذا المجال ستبذل في إطار تحديد مصطلح من هذه المصطلحات : المنهجية .

إلاَّ أن هذه المحاولـة لا تكتمل إلاَّ بتـوضيح المصـطلحات الملتبسـة معها لإجـراء المقارنـة ومقاربة الوضوح ، لذا سنحاول تحديد المعنى لغوياً واصـطلاحياً ثم نعـرض معنى المصطلحـات الملتبسة بالمقارنة مع المنهجية لنصل إلى التحديد الممكن والواضح .

I ـ المنهجية ، لغة

فالمنهجية ، في اللغة العربية ، من نهج ، ونهج الطريق : وضـح واستبان ونهجت الـطريق سلكتـه ، وطريق نهـج : بين واضح والنَهْـج (النَّهْج) : الـطريق الواضـح البين وكذلـك المنهج والمنهاج[1] .

وهي المصدر الصناعي للمنهج ، وهو في الأساس اسم يدل على صفة فيه ويكون ذلك في الأسماء الجامدة كالحجرية وفي الأسماء المشتقة كالعالمية ، وحقيقته الصفة المنسوبة إلى الاسم .

---

(١) تتفق معظم أمهات المعاجم العربية على هذا المعنى ويورد بعضها نون النهج مشددة (ابن دريد ، والزبيدي) بينما يوردها الآخرون بدون تشديد . انظر :

- ابن دريد ، **جمهرة اللغة** (تحقيق رمزي منير بعلبكي) ، دار العلم للملايـين ـ بيروت ١٩٨٧ ، ص ٤٩٨ .
- الجوهري ، **الصحاح** (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار) ، دار العلم للملايـين ـ بيروت ، ١٩٧٨ .
- الزبيدي ، **تاج العروس** (تحقيق حسين نصار) ، مطبعة حكومة الكويت .
- ابن منظور ، **لسان العرب** ، دار صادر ـ بيروت .

وقد أكثر منه المولدون في اصطلاحات العلوم وغيرها بعد ترجمة العلوم بالعربية وهو يختلف عن الاسم المنسوب التي تلحقه أيضاً ياء النسبة مردفة بالتاء في أنه غير مراد به الوصف كالإنسانية في حين مراد بها الوصف كاللغة العربية ، بل يراد به مجموعة الصفات الخاصة بذلك اللفظ ، فكلمة « إنسان » مثلاً تعني المخلوق الناطق المفكر . . . أما مصدرها الصناعي « إنسانية » فتدل على مجموعة الصفات المختلفة التي يختص بها الإنسان كالرحمة والحلم والخير . . . إلخ[1] .

وعليه فالمنهجية اسم دال على معنى مجرد لم يكن يدل عليه المنهج وهو مجموعة الصفات الخاصة بالمنهج ، فإذا كان المنهج هو الطريق الواضح فالمنهجية هي مجموع الصفات التي يختص بها الطريق كالوصل والوضوح والاستقامة . . .

والمنهجية Methodology ، في اللغة الإنكليزية ، من Method المأخوذة من الكلمة الفرنسية أو الإنكليزية في العصور الوسطى Methode المأخوذة بدورها من الكلمة اللاتينية Methodus والمأخوذة بدورها من الكلمة اليونانية Methodos وتعني الطريق . وأبان قاموس وبستر المعنى الحديث لها بأربعة معاني :

١ ـ إجراء أو عملية لبلوغ الموضوع مثل :

أ ـ إجراء نظامي للاستعلام يستخدم في حقل معين أو خطة نظامية توضع لتحضير المواد للبناء .

ب ـ طريق أو تكنيك أو عملية لعمل شيء ما ، أو جسم من المهارات أو التعليم في المجالات العلمية .

٢ ـ حقل يتعاطى مع المبادىء والتقنيات للاستعلام العلمي .

٣ ـ ترتيب أو تكامل أو تصنيف : خطة ، الخبرة العملية في التنظيم والإدارة .

٤ ـ التكنيك الدرامي الذي يبحث فيه فاعل عن ربح كامل[2] .

والمنهجية في اللغة الإنكليزية Methodology هي علم المنهج أو نظريته أو عقيدته ، لأن اللاحقة Logy ـ تعني علم أو نظرية أو عقيدة .

وقد عرفها قاموس وبستر بالآتي :

ـ جسم من المناهج والقواعد والفرضيات المستخدمة في حقل ما ، الإجراءات الخاصة .

---

(١) مصطفى الغلاييني ، جامع الدروس العربية ، الجزء الأول ، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ، ط ١٢ ، ١٩٧٣ ، ص ١٨١ .

ود . اميل بديع يعقوب ، موسوعة النحو والصرف والإعراب ، دار العلم للملايين ـ بيروت ط ١ ، ١٩٨٦ ، ص ٥٠٦ .

(٢) Webster's New Collegiate Dictionary, G. and C. Merrian Company, springfield, Massachusetts, U.S.A., 1979.

ـ تحليل مبادىء الاستعلام في حقل ما أو إجراءاته[1] .

وعليه فالمنهجية في اللغة الإنكليزية هي علم المنهج ، فإذا كان المنهج هو الطريق أو الإجراءات لبلوغ الموضوع فإن المنهجية هي العلم بهذا الطريق أو الإجراءات .

II ـ المنهجية ، اصطلاحاً

هي مصطلح حديث نسبياً ارتبط ظهوره بظهور مصطلح المنهج في القرن السادس عشر ، إلاَّ أنه تأخر عنه قليلاً ويرد بدوي استخدامه الأول للفيلسوف الألماني Kant ـ ١٨٠٤ م[2]، وكُرس موقعه المميز ـ حسب رأي بينك Bunge مع الفيلسوف Whewell (١٨٣٧) حين تكرس نفوذ فلاسفة العلوم[3] .

وقد عرّب البعض Methodology بالمنهجية وعرّبها آخرون بمناهج البحث وعرّبها فريق ثالث بعلم المناهج وسنستخدم التعريب الأول لها : المنهجية لاعتبارين :

الأول : مستند إلى التعريب اللغوي لها : علم المنهج .

الثاني : مستند إلى أن صيغة المصدر الصناعي العربية التي تضيف ياء النسبة والتاء المربوطة إلى الكلمة لتعطي صفاتها هي إلى حدٍّ ما العلم فيه .

وقد تعددت تعاريف المنهجية في الموسوعات والمعاجم الفلسفية والاجتماعية والسياسية وتنوعت ، فلم يفرد بعضها للمنهجية عنواناً[4] ، وإن أدخلها صليبا في بند المنهج Method[5]

---

(١) Webster's New Collegiate Dictionary, Op. Cit.

(٢) د . عبد الرحمن بدوي ، **مناهج البحث العلمي** ، وكالة المطبوعات ـ الكويت ، ط ٣ ، ١٩٧٧ ، ص ٦ ـ ٧ .
وقد قسم Kant المنطق إلى قسمين :
ـ مذهب المبادىء وموضوعه شروط المعرفة الصحيحة .
ـ علم المناهج Methodology الذي يحدد الشكل العام لكل علم والطريقة التي تكون بها .

(٣) Mario Bunge, Epistemology and Methodology I,D. Reidel Publeshing Company, Boston, 1983, P. 4.

(٤) مثل : جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧١ .
د . معن زيادة (رئيس تحرير) ، الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الأول ، ط ١ ، ١٩٨٦ والمجلد الثاني ، ط ١ ، ١٩٨٩ .
د . عبد الرحمن بدوي ، موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤ .
David I. Silles (ed), International Encyclopedia of Social Science, the Macmellan Company and the free Press, 1968.
Adam Kuper, The Social Science Encyclopedia, Roulledge and Kegam Paul, London, 1985.

(٥) ترجم صليبا Method بطريقة ، Curriculum بمنهج أو منهاج .

وأدخلها بدوي في بنـد المنطق فـاعتبرهـا الأول فرع من المنـطق يقوم على دراسـة الطرق العـامة كالتحليل والتركيب . . . وعلى دراسة الطرق الخاصـة بعلم من العلوم ، واعتبرهـا الثاني المنـطق المادي وهو قواعد التفكير في العلوم الجزئية .

وأعطى بعض من خصص بنداً للمنهجية معنيـين لها هما :

- مجموع طرق البحث في علم معين .
- نظرية أو عقيدة في مناهج المعرفة[١] .

وأعطى البعض الآخر منهم معنيـين آخرين لها هما :

- الدراسة المنطقية والمنظمة للمبادىء التي توجه الاستقصاء العلمي والتي تهتم بـالأسس العامة التي تبرهن على صحة النظريات دون التعرض لمضمونها .
- الوسائل الفنية المستخدمة في أي فرع من فروع العلم لمعالجة معطياته[٢] .

واكتفى القسم الثالث بمعنى واحد لها هو فرع من المنطق ينصب على دراسة المنهج بـوجه عام وعلى دراسة المنـاهج الخـاصة للعلوم المختلفـة ـ حسب المعجم الفلسفي ـ[٣] وهو التكنيك المستخدم في حقل معين لتجميـع المعطيـات بالعـودة إلى دراسة الأسس المنـطقية للحقـل نفسه ـ حسب قاموس علم الاجتماع ـ[٤] ، وهو منطق الاستقصاء العلمي ويتضمن الفرضيات الأسـاسية للعلم وعملية بناء النظرية والعلاقة المتبادلة بين النظرية والبحث وإجراء الاستقصاء التـجريبي ، ولا يتعلق ببناء المعرفة بل بالإجراءات التي بنيت بها ـ حسب القاموس الحديث لعلم الاجتماع ـ[٥] . وهو المبادىء الأساسية للاستعلام السياسي ـ حسب رأي آلان إسحاق ـ[٦] ، وهـو « مجموعـة من

---

(١) م . روزنتال و ب . بودين (إشراف) الموسوعة الفلسفية (ترجمة سمير كرم) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٧ .
و B. I. Frolow (ed)., Dictionary of Philosophy, Progress Publishers, Moscow, 1984.

(٢) Peter A. Angeles, Dictionary of Philosophy, Barnes and Noble Books, New York, 1981.
وقد أعطى أربع معاني دمجنا ثلاثة منها في المعنى الأول وهم : دراسة المناهج ، فرع المنطق الذي يصوغ المبادىء ويحللها ، المبادىء نفسها .
ومحمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ .
ونخبة من الأساتذة ، مصطلحات العلوم الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .

(٣) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، وقد عرّب Methodology بمناهج المبحث .

(٤) G. Duncan Michell (ed.), Dictionary of Sociology, Aldino Publishing Company, Chicago, 1970.

(٥) George A. Theadorson and Achelles C. theadorson, A modern Dictionary of sociology, Thomson Y. Growel Company, New York, 1969.

(٦) Alan C. Isaak, Scope and Methods of Political Science, the Dorsey press, Homewood, Georgetowen, 1969, p. VII, VIII.

المبادىء التي تساعدنا على التثبيت من صحة المعرفة أو عدم صحة المعرفة » ـ حسب رأي ملحم فريان ـ[1] . وهو النشاط النقدي المتعلق بنتائج البحث المختلفة[2] .

ويبدو ـ مما ذكرنا ـ أن المنهجية التي هي ـ في اللغة ـ علم المنهج أو الصفات التي ينبغي أنْ يتصف المنهج بها ويتميز ، هي ـ في المصطلح ـ متأرجحة بين معنيين :

ـ معنى مجموع طرق البحث أو الاستقصاء أو الوسائل أو التكنيك في علم معين .

ـ معنى المبادىء أو المنطق أو النظرية أو العلم أو النقد في طرق أو مناهج الاستقصاء أو البحث .

وبرغم ما بين المعنيين من تقارب وتداخل ، فإن المعنى الثاني أقرب إلى الأصل اللغوي للمصطلح وأكثر دقة اصطلاحية ، إذ أن المعنى الأول يتراوح بين المنهج وتقنية البحث بتركيزه على مجموع الطرق . . . في علم معين بينما المعنى الثاني يركز على العلم في هذه الطرق والمناهج .

III ـ المنهجية والمصطلحات المتداخلة في حقل المعرفة

إن الخلاصة التعريفية للمنهجية لا تفِ الموضوع حقه إذ تثير التباساً مع جملة مصطلحات متداخلة معها في حقل المعرفة كالمنهج ونظرية المعرفة والابيستمولوجيا والمنطق وتقنية البحث ، الأمر الذي يستدعي تحديد هذه المصطلحات ليسهل مقارنتها بهم وضبط حدودها .

١ ـ المنهجية والمنهج :

يلتقي المنهج مع المنهجية في الأصل اللغوي الواحد[3] وهو الطريق الواضح في اللغة العربية والطريق في اللغة اليونانية القديمة والطريق أو الإجراءات أو التكنيك لبلوغ موضوع معين في اللغة الإنكليزية الحديثة .

والمنهج في الاصطلاح حديث نسبياً إذ ظهر في القرن السادس عشر للميلاد وورد في كنايات مولينا Molina ونونيز Nunez وزبرلة Zabarella (١٥٧٨) وأوستاش دي سان بول Eustache de Saint-Paul (١٦٠٩) وعنوا به طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم[4] .

---

(١) د . ملحم فريان ، المنهجية والسياسة ، دار الطليعة ـ بيروت ـ ط ١ ، ١٩٦٣ ، ص ٤٧ .

(٢) Raymond Baudon and Français Bourricaud, Acritical dictionary of sociology, (Translated), the University of Chicago press, 1989.

(٣) وضحنا هذا الأصل في البند (I) .

(٤) د . عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ، مصدر سابق ، ص ٤ .

إلاَّ أن المحاولة الواضحة في استخدامه كانت لراموس Ramus ـ ١٥٧٢ م الذي قسم المنطق إلى التصور والحكم والبرهان والمنهج ثم شاع استخدامه بعد ذلك في كتابات بيكون (الاورغانون الجديد) ـ ١٦٢٠ م وديكارت (مقال في المنهج) ـ ١٦٣٧[١] .

وقد تعددت تعاريف المنهج فهو وسيلة لتحقيق هدف وطريقة محددة لتنظيم نشاط[٢] . وهو وسيلة محددة توصل إلى غاية محددة[٣] ، وهو « الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة »[٤] ، وهو مرتبط بالعمليات العقلية اللازمة لحل المشكلة وتتضمن وصف الظاهرة والتعرف على مراحلها والتنبؤ بمستقبلها واستخلاص تعميمات منها[٥] . وهو « السبيل الذي يمكن أن يتطرق منه الباحث إلى الغرض الذي تهدف إليه تلك الدراسة أو ذلك البحث »[٦] .

وقد حملت هذه التعاريف معنيين :

- معنى الطريقة أو الوسيلة أو الأسلوب للوصول إلى الحقيقة (الحقيقة العامة للوجود أو حقيقة موضوع محدد) أو الهدف .
- معنى الإجراءات المستخدمة للتنظيم أو للبحث .

وبرغم التداخل بين المعنيين ، يبقى المعنى الأول الأقرب إلى الأصل اللغوي وإلى الدقة الاصطلاحية ، إذ أن المعنى الثاني يقترب من أسلوب البحث ـ كما سنرى ـ .

ويبدو من هذه التعريفات اختلاف معنى المنهجية عن معنى المنهج رغم التقارب المتعدد الاتجاهات بينهما ؛ فالمنهج هو الطريق إلى الهدف أو الحقيقة والمنهجية مقوّم هذا الطريق ، وقد أوضح العالم الاجتماعي لازارسفيلد P.F. Lazarsfeld الفرق بالقول : « العالم الاجتماعي يدرس الإنسان في المجتمع والعالم المنهجي يدرس العالم الاجتماعي في العمل »[٧] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤ ، و د. جميل منيمنة ، المنهج العلمي المعاصر ، **الفكر العربي** العدد ٥٥ ، س ١٠ ، ١٩٨٩ ، ص ٩٢ .

(٢) م . روزنتال ، وب . بودين ، الموسوعة الفلسفة ، م . س .

و B. I. Frolov (ed.) dictionary of Philosophy, Ibid.

(٣) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، م . س .

(٣) عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ، مصدر سابق ، ص ٤ .

وقد تبنى التعريف أحمد بدر في كتابه ، أصول البحث العلمي ومفاهيمه ، وكالة المطبوعات الكويت ، ط ٧ ، ١٩٨٤ ، ص ٣٣ .

(٥) هذا التعريف لهويتني Uhitney وقد أورده بدر في كتابه الآنف الذكر ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٦) د . ماجد فخري في بحثه إشكالية المنهج ، مجلة **الفكر العربي** ، العدد ٤٢ ، سنة ١٩٨٦ ، ص ١٠ .

(٧) ورد هذا القول في بند المنهجية في :

G. Duncan Michell (ed.), Dictionary of Sociology, Aldine publishing Company, Chicago, 1970.

٢ ـ المنهجية والابيستمولوجيا (نظرية المعرفة ؟) :

الابيستمولوجيا Epistemology مصطلح جديد وضعه الفيلسوف الاسكتلندي جيمس فريدريك فـرير Ferrier (١٨٠٨ ـ ١٨٦٤) وصـاغه من كلمتين يـونانيتين Episteme ومعنـاها علم و Logos ومعناها : علم ، نظرية ، نقد ، دراسة . فيصبح معناها اللغوي علم العلوم[١] .

أما نظرية المعرفة فهي أحد أقسام الفلسفة التقليدية وتختص بالبحث في إمكانية قيام معرفة ما عن الوجود وما هي أدواتها ، إذا كانت ممكنة ، وما حدودها وما قيمتها[٢] .

وقد اختلط مضمون كل من المفهومين ولم تحـدد حدود كـل منهما ، فـالبعض ، وبخاصـة الكتاب الفرنسيـين ، يفرق بين الاثنين فيعتبر الابيستمـولوجيـا فلسفة العلوم وتحـوي ضمناً نـظرية المعرفة إذ تعالج ناحيتين :

ـ مبادىء العلوم (موضوعاتها ، طرقها ، قوانينهـا ، نتائجهـا) وتدرسهـا دراسة نقـدية فتبـرز أصولها المنطقية وقيمها الموضوعية ومدى شفوفها عن الحقيقة ودرجة اليقين فيها .

ـ نظرية المعرفة وتدرس منشأ المعرفة عامة وطبيعتها وقيمتها وحدودها[٣] .

ويتبنى د . جميل صليبا التفرقة ويـرى الابيستمولـوجيا مـدخل لنـظرية المعـرفة ويبحث في المعرفة من جهة ما هي معرفة بعدية أما نظرية المعرفة فتبحث في المعرفة من جهة ما هي مبنية على وحدة الفكر[٤] .

كما يتبنى د . محمد عابد الجابري التفرقة مع إقراره بـاتصالهما ويرى الابيستمولوجيـا تهتم بالمعرفة العلمية وهي من اختصاص العلماء بينما تتناول نظرية المعرفة أنواع المعارف كلها وهي من اختصاص الفلاسفة[٥] .

أمـا الكتـاب الآخـرون ، بـالأخص الإنكليـز والأميـركـان والسـوفيـات ، فـلا يفـرقـون بين المصطلحين ويعتبرون مصطلح الابيستمولوجيا نظرية المعرفة وتتناول :

١ ـ أصل المعرفة البشرية ومصدرها . و ٢ ـ طبيعة المعرفة البشرية . و ٣ ـ صدق المعرفة . و ٤ ـ حدود المعرفة[٦] .

---

(١) د. محمد عابد الجابـري، تطور الفكـر الريـاضي والعقلانيـة المعاصـرة، دار الطليعـة ـ بيروت، ط ٢، ١٩٨٢، ص ١٢ .

(٢) القسمان الأخيران : الانطولوجيا وتعني البحث عن الوجود المطلق والاكسيـولوجيـا وتعني البحث في القيم : قيم الحق والخير والجمال .

(٣) د . معن زيادة (رئيس تحرير) الموسـوعة الفلسفيـة العربيـة ، المجلد الثاني ، معهـد الإنماء العـربي ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، مادة فلسفة العلوم ، تحرير عبد الكريم اليافي .

(٤) د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي . . . ، م . س .

(٥) محمد عابد الجابري ، تطور الفكر الرياضي . . . ، مصدر سابق ، ص ١٥ ـ ١٦ .

(٦) د . معن زيادة ، الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الأول ، م . س . مادة : الفلسفـة لكريم متى ، والمجلد =

ويتفق المعجم الفلسفي مع هذا التعريف ثم يميزها عن السيكولوجيا الوصفية التي تقتصر على التفرقة بين العمليات الذهنية ووصفها كما يميزها عن المنطق الذي يصوغ قواعد تطبيق المبادىء دون أن يبحث أصلها ويناقش قيمتها[١] .

ويكتفي فرولوف بتعريف الابيستمولوجيا بنظرية المعرفة ذاكراً استخدامها في الفلسفات البرجوازية الأميركية والبريطانية وبشكل نادر في الفلسفة الفرنسية والألمانية[٢] .

ويمزج انجلز بين الاثنين ويعتبرهما دراسة أصول المعرفة وفرضياتها وطبيعتها وحدودها وصحتها . وهي فرع من الفلسفة يسأل من أين أتت المعرفة وكيف تشكلت وعبر عنها ، وما هي المعرفة وهل التجربة الحسية ضرورية في كل أشكال المعرفة . . . إلخ[٣] .

فالابيستمولوجيا ، سواء أكان تعريفها « إنكليزي » أم « فرنسي » ، تتضمن نظرية المعرفة وتدور حول محاور أربعة عند من ذكرنا هي أصل المعرفة البشرية وطبيعتها وصدقيتها وحدودها .

وهي بهذا تختلف عن المنهجية ، رغم أنها في حقل المعرفة ذاته ، إذ تختص بإمكانية المعرفة وطبيعتها وحدودها وصدقها بينما تسلم المنهجية بهذه الإمكانية ، وبإمكانية الصدق فيها لتقوّم الطرق المسلوكة للوصول إلى الصدقية في المعرفة .

فالمنهجية مهتمة بالطريق ومسالكه المتنوعة بينما الابيستمولوجيا مهتمة بالطريق ومآله ومؤئله ، فالأولى متخصصة ، والثانية عامة ـ كما قال الجابري ـ[٤] .

والمنهجية مراقبة لسالكي الطريق ولأدواتهم ، تقوّم وتنقد ، بينما الابيستمولوجيا عاملة للوصول إلى نهاية الطريق ومعرفة كنهها . فالأولى معيارية نقدية والثانية وصفية كما قال بيونج وخلافاً لما قال الجابري[٥] .

= الثاني ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، مادة فلسفة العلوم لعبد الكريم اليافي .

(١) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، مادتي : Epislemology و Theory of knowledge .

(٢) J. Frolov (ed.), Dictionary of philosophy , Op. Cit.

(٣) Peter A. Anleles, Dictionary of Philosophy , Op. Cit.

(٤) يرى محمد عابد الجابري في المقارنة بين المفهومين **تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة** ، م . س . أن المنهجية تتناول كل علم على حدة ومقصورة على الدراسة الوضعية بينما الابيستمولوجيا نطمح إلى أن تكون نظرية عامة في العلوم وترتفع إلى مستوى البحث النقدي .

(٥) يرى بيونج في : Epistemology and Methodology I. Op. Cit. ان الابيستمولوجيا وصفية تجيب على سؤالين : كيف نعرف X ؟ وما هي المادة المدركة Y ؟ بينما المنهجية هي ابيستمولوجيا معيارية تجيب على سؤالين : ما قيمة X ؟ وما هي الطريقة الصحيحة لعمل Y ؟ فإجابة الأولى وصفية بينما إجابة الثانية معيارية .

٣ ـ المنهجية والمنطق :

أما المنطق فتعددت تعاريفه ، كغيره من المصطلحات ، بتعدد المدارس الفلسفية فاعتبره البعض وسيلة أو آلة (أرسطو) واعتبره البعض الآخر علماً وفناً معاً (جوبلو) واعتبره البعض الثالث علماً نظرياً (ميل) واعتبره المعاصرون علم التفكير الصحيح (كرانون) أو علم البحث في الحقيقة وليس عنها (هيجل)[١] .

ويتجه غالبية الكتّاب إلى اعتماد المعنى الرابع للمنطق فهو علم يبحث في قوانين التفكير التي ترمي إلى تمييز الصواب عن الخطأ فينظم البرهنة ويقود إلى اليقين ـ حسب رأي البعض ـ[٢] وهو علم يدرس الاستدلال من حيث الصحة والفساد ـ حسب رأي كريم متى ـ[٣] وهو العلم الباحث في المبادىء العامة للتفكير الصحيح ـ حسب رأي كينز وبدوي[٤] .

وقد قسمه بعض المعاصرين[٥] إلى قسمين : منطق صوري : وهو منطق التفكير بوجه عام ومنطق مادي : يبحث في مادة البرهنة ويسمى استقراء حسب مجمع اللغة العربية ـ وهو قواعد التفكير في العلوم الجزئية ويسمى علم المناهج ـ حسب رأي بدوي[٦] .

ونستنتج من تعريفات من ذكرنا أن المنطق علم يبحث في المبادىء التي تحكم التفكير إنْ من حيث الشكل أو المضمون ، وقد يضمر في حدود الشكل فيقتصر على ما عرف بالمنطق الأرسطي وقد يتسع ليشمل المنطق الأرسطي وما عرف في عصر النهضة الأوروبية وما تلاه بالمنهجية .

٤ ـ المنهجية وأسلوب البحث :

أما تقنية البحث Technique وتسمى أسلوب البحث فقد حددها قاموس ويستر بأربعة معاني :

أ ـ أسلوب أو طريقة معالجة التفاصيل الفنية من قبل الكاتب والفنان .
ب ـ البراعة الفنية .
جـ ـ الطرائق التقنية وبخاصة في البحث العلمي .
د ـ طريقة لإنجاز غرض منشود[٧] .

وقد سمَّاها د . أحمد بدر أسلوب البحث في تقسيمه البحث إلى نوع البحث Type ومنهج

---

(١) د . مهدي فضل الله ، مدخل إلى علم المنطق ، دار الطليعة ـ بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٧ ، ص ١٧ ـ ٢١ حيث أورد هذا التقسيم نقلاً عن تقسيم وليم هملتون .

(٢) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، م . س . وجميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، م . س .

(٣) د . معن زيادة ، الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الأول ، م . س .

(٤) عبد الرحمن بدوي ، موسوعة الفلسفة ، م . س .

(٥) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، م . س . وعبد الرحمن بدوي ، موسوعة الفلسفة ، م . س .

(٦) المصدران السابقان .

(٧) Websters New Collegiate Dictionary, Op. Cit.

البحث Method وأسلوب البحث Technique وأداة البحث Tool ومدخل البحث[1] .

وقد فصّل أنواع البحوث (تنقيب عن حقائق أو تفسير نقدي أو بحث كامل) ، وأنواع المناهج (وثائقي ، تجريبي ، مسح ، دراسة حالة . . .) وأدوات البحث (ملاحظة ، مقابلة ، تحليل محتوى . . .) دون أن يتطرق إلى أسلوب البحث[2] .

أما آلان إسحاق فقد اعتبر تقنية البحث نصائحاً خاصة لجمع الوقائع وتحليلها حول الظاهرة السياسية وميزها عن المنهجية[3] .

ويمكن في حدود البحث اختيار المعنى الأول من ويستر للدلالة على تقنية البحث والذي يتفق مع تعريف إسحاق ومع الحيز الذي تركه بدر لأسلوب البحث في تقسيمه الآنف الذكر وإن لم يحدده .

وتكون المنهجية مغايرة لأسلوب البحث ، ففي حين تقوّم المنهجية منهج البحث ، ينحو أسلوب البحث باتجاه سجم معطيات أدوات البحث المستخدمة ضمن منهج ما لتقدم بشكل يفي بالموضوع .

إلاّ أن المغايرة لا تلغي الترابط إذ قد يكون أسلوب البحث ضمن مشرحة المنهجية في تقويم المنهج المستخدم .

IV ـ خلاصة

يظهر من عرضنا السابق للمصطلحات المتداخلة مع المنهجية ـ المنهج ، نظرية المعرفة ، الابيستمولوجيا ، المنطق ، تقنية البحث ـ إن هذه المصطلحات كالمنهجية تستخدم في حقل المعرفة ، فتحدد الابيستمولوجيا (نظرية المعرفة) أصل المعرفة وطبيعتها وصدقيتها وحدودها وتشكل المناهج طرق الوصول إلى المعرفة والتي كان المنطق أحدها تاريخياً ، ومدخلها الأولي فيما بعد ، بينما تشكل المنهجية المقوم لهذه الطرق وتقتصر تقنية البحث على أسلوب معالجة المعطيات .

إلاّ أن حقل المعرفة ومعه مصطلحاته هذه تطور عبر التاريخ مع تطور حركة الناس وصراعهم مع الطبيعة لمعرفتها ثم السيطرة عليها فكان لكل عصر مضمون لأي من المصطلحات المعرفية وكان لكل حقل من حقول المعرفة مضموناً خاصاً ، لا بل سنرى في عرضنا للمناهج أن بعض المصطلحات ورث البعض الآخر وأن ميلاد بعضها مرتبط بعصر معين .

---

(١) د . أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه ، م . س . ص ١٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) Isaak, Scope and Methods, Op. Cit. P. VII.

فالمعرفة عملية مغالبة للجهل متصلة يراكم فيها كل جيل خبراته في شتى الحقول ليأتي بعده جيل آخر يفند ما وصل إليه فيشطب ويصحح ويضيف بما يغني الحقيقة . وهكـذا يغتني المخزون المعرفي للناس بتعاقب الأجيال وحركتها ، دون أن يتوقف هذا الجهد أو يمتلىء ذاك المخزن طالما الحياة قائمة .

وإذا كانت المعرفة تبغي الوصول إلى الحقيقة ، حقيقة الوجود أم حقيقة الموضوع المبحوث وهي كذلك ، فإن الابيستمولوجيا تسأل :

هل يمكن الوصول إلى الحقيقة ؟ وإذا كان الجواب نعم فإلى أي الحدود يمكن الـوصول ؟ وإلى أي مدى يتطابق ما نعرفه مع الحقيقة ؟

أما المنهج فيسأل :

كيف نصل إلى الحقيقة ؟

ويسأل المنطق :

أين الصواب وأين الخطأ في طريقنا إلى الحقيقة ؟

وتكمل المنهجية سؤال المنطق :

ما هو الطريق الأصح ، شكلاً ومضموناً ، للوصول إلى الحقيقة ؟

وعليه فالمنهجية ـ موضوع بحثنا ـ في دراستها للمناهج لا تنفصل عن الابيستمولوجيا والمنطق والكل مرتبط بثقافة العصر وتطور وسائل الإنتاج المرتبطان بدورهما بالإنسان .

والمعرفة ـ حقل المنهجية ـ معرفة حقيقة الوجود الكلية أم معرفة حقيقة جانب من جـوانبه أو موضوع من موضوعـاته هي جهـد يقوم بـه الناس ، أفـراداً أو جماعـات ، في مواجهـة الطبيعـة أو المجتمع . فهي عملية مثلثة الأبعاد قوامها :

العارف ، فرداً أو جماعة ، والمعروف ، وجود ، طبيعة أم مجتمع ، سياسة أو اقتصاد ، وأداة المعرفة .

وعليه فإن المنهجية التي هي علم المناهج تفترض ثلاثة مقومات : مقـومات في العـارف أو الباحث ، ومقومات في الموضوع أو المبحوث أو المعروف ومقومات في أداة المعرفة .

أما المقومات في العارف ، فيفترض أن نواجه ما يسمى بالموضـوعية في تعـاطي العارف أو الباحث مع موضوعـه وتعيـين درجة الموضوعية في المنهج المقوم وعند الباحث .

وإذا كانت الموضوعية المطلقة متعذرة ، وبخاصـة في العلوم الاجتماعيـة فإن ذلـك لا يلغ

تحديد المنهجي لحدود الموضوعية المتوفرة في منهج ما أو بحث ما . والتي تدور حول مدى تأثر الباحث بوضعه الخاص والشخصي وبالمعايير الثقافية السائدة في عصره ومدى تأثير القيم والأيديولوجية في انتقاءه للمشكلات وفي تحديده للوقائع وتقديره للبينات .

وتفترض المنهجية مقومات في العارف سماها د . قربان المقومات الذاتية[1] هي :

أ ـ الإيجابية وتعني الجدية في الجهد لإيجاد الجواب على السؤال المطروح أو لحل الإشكال المثار أو للوصول إلى الحقيقة .

ب ـ الانفتاحية : وهي الاستعداد للاستجابة للمتغيرات التي تثار أثناء العمل سواء أكانت بيِّنات جديدة أو أخطاء في خطوات العمل السابقة .

جـ ـ الأمانة الفكرية : وتعني الالتزام بجمع البيِّنات المتعلقة بالموضوع سواء أكانت متوافقة مع رغبة العارف أم متعارضة معها ثم التوصل إلى وضع تصور ، ففرضية فاستنتاج لا اتخاذ الموقف مسبقاً ثم جمع البيِّنات المؤيدة له . كما تعني أيضاً التجرد ما أمكن عن الهوى والمصلحة في عملية جمع البيِّنات ومعالجتها واستخلاص النتائج .

د ـ النظرة الشمولية : وتعني أن يكون للعارف أو الباحث خيالاً علمياً يرى من خلاله الظاهرة بمجملها ومن خلال انتظامها العام مع الظواهر الأخرى ، فهي نوع من الحدس أو الرؤيا التي تسجم جزئيات الظاهرة في إطارها الملائم .

٢ ـ أما مقومات الموضوع فهي عديدة ومتشعبة وأهمها منهجياً :

أ ـ قابلية الموضوع لأن يعرف ، فالمنهجية تحوي ضمناً القبول بإمكانية معرفة الوجود ، طبيعة ومجتمعاً وإنساناً ، إلاَّ أن هذه الإمكانية اتسع مداها مع تقدم الاكتشافات وتطور العلوم وسيتسع هذا المدى مع ازدياد التقدم .

إلاَّ أن هذا القبول الأولي بإمكانية المعرفة مبدأ عام وجانب أول من هذا المقوم يستدعي تخصيصاً يعطي للمقوم معناه ، ذلك بأن يكون الموضوع المحدد المعروض للبحث قابلاً بحد ذاته للمعرفة إذ أن كثيراً من الموضوعات القابلة للمعرفة حالياً كانت معجمة على الفهم في مراحل سابقة وقد تكون موضوعات معجمة حالياً قابلة للمعرفة في المستقبل .

ولهذا لا تصح المنهجية في التعاطي مع مسألة معجمة وإن توفرت مقومات العارف ومقومات الأداة ، فاختيار موضوع أنواع الكائنات في السماء السابعة ، مثلاً ، اختيار لموضوع غير قابل للمعرفة ضمن إمكانات البشر الراهنة ، وبالتالي يسقط الاختيار أحد أركان المنهجية . ولا يعني هذا

---

(١) أورد د . قربان في كتابه المنهجية والسياسية نوعين من المقومات للمنهجية : المقومات الذاتية (إيجابية ، انفتاحية ، أمانة) ومقومات موضوعية (البينة ، قواعد المنطق) م . س . ، ص ٤٩ ـ ٥٣ .

استبعاد البحث في الموضوعات المعجمة ، فقد يكون بعضها معجماً لنقص في الجهد المبذول لمعرفته كما قد يكون بعضها معجماً ضمن معايير وأدوات محددة ، وإنما المقصود ، من زاوية منهجية بحتة ، أن يثبت العارف أو الباحث إمكانية معرفة الموضوع المطروق والتي قد تضيف جديداً على السائد في الأدوات المعرفية .

كما لا يعني هذا نفي صحة المعرفة عن موضوعات غير قابلة للمعرفة بالوسائل المعروفة والمتأتية عن حدس ما أو ممارسة عرفانية ، إذ قد تثبت التطورات المستقبلية صحتها ، ولكن ، من زاوية منهجية ، لا يصح القبول بها .

ب ـ قابلية الموضوع لأن تكرر معرفته من قبل الآخرين ، إذ قد يدعي أحدهم الوصول إلى معرفة موضوع ما بطريقته الخاصة ، وقد يكون محقاً في ذلك لقدرات ذاتية خارقة عنده وقد تكون معرفته صحيحة ، إلاَّ أنه ، وفي نفس الوقت ، قد يكون مدعياً وكاذباً وقد تكون معرفته غير صحيحة والمعيار للتمييز هو تمكن الآخرين ، إذا ما استخدموا نفس الوسائل ، من الوصول إلى نفس النتائج .

جـ ـ قابلية الموضوع للاختبار بطرق أخرى :

هذه المقومات في الموضوع تأخذ طابعاً خاصاً في العلوم الاجتماعية حيث الإنسان هو موضوع البحث ، وللإنسان خصوصية مغايرة للموضوعات الأخرى ، وتتجلى في حرية الإرادة وصعوبة التجريب . فتضيف هذه الخصوصية تدقيقاً أشد صرامة على طرق الاختبار المعتمدة وعلى حدود وحدة البحث وعلى الحدود بين الموضوع والباحث .

٣ ـ والمقومات في الأداة عديدة وطالها التطور كغيرها وربما أكثر من غيرها من المقومات ، ويمكن إيراد أهم هذه المقومات وهي :

أ ـ الاعتماد على البينة في الجهد المبذول للوصول إلى الحقيقة ، والبيِّنة متعددة بتعدد المواضيع المدروسة فقد تكون البيِّنة واقعة أو حدثاً كما قد تكون علاقة بين حدثين وقد تكون تعريفاً .

والبيِّنة مقوم لا تصح الأداة بدونه ، وإلاَّ أصبحت ضرباً من الذاتية أو الهوى يمكن أن تكون ذا مغزى وذات قيمة خارج نطاق المنهجية .

وفي إطار البيِّنة لا بد من ضبط المفاهيم المستخدمة والمعبرة عن البيِّنات وتحديد التعريفات .

ب ـ الاعتماد على قواعد المنطق في التعاطي مع البيِّنة[1] ، وقواعد المنطق ـ كما عرضنا

(١) اعتبر الدكتور قربان البيِّنة وقواعد المنطق المقومات الموضوعية للمنهجية ، دون أن يفصل معنى قواعد المنطق . =

سابقا ـ تعرضت للتطور على مدى العصور ، إلاَّ أن هذا التطور شكل إضافات أغنت المنطق ولم تلغيه ومن أبرز قواعد المنطق الواجبة المراعاة الآتي :

١ ـ العلاقة السببية بين الظواهر (السبب والنتيجة ، السبب والذريعة ، الضرورة والصدفة ، الإمكانية والواقع) .

٢ ـ مراعاة قواعد المنطق الصوري في كل مرحلة من مراحل البحث وفي كل قضية في لحظة ثباتها النسبي وهذه القواعد هي :

ـ قانون الهوية أو الذاتية أو التطابق ، كل شيء هو ما هو : أ هي أ .

ـ قانون التناقض ، الشيء لا يمكن أن يكون كذا ولا يكون كذا معاً : ليست ب ولا ب معاً .

ـ قانون الثالث المرفوع ، الشيء إما أن يكون كذا أو لا يكون كذا : أ إما أن تكون ب أو لا تكون ب .

٣ ـ الإحاطة بجميع جوانب الظاهرة وجميع صلاتها ووسائطها ، لا الاكتفاء بجانب واحد أو إهمال صلات معينة لصالح إبراز صلات أخرى .

٤ ـ أخذ الظاهرة بنموها وتطورها ، فالظاهرة ، أية ظاهرة ، وبخاصة الظاهرة الاجتماعية ليست ثابتة ويحكمها قانون النمو والتطور ، وإذا كان من الأهمية بمكان درس الظاهرة في لحظة ثبوت نسبي فإن الأهمية الأكبر متابعة نمو الظاهرة وتطورها .

جـ ـ محاكمة البيِّنات وأسلوب التعاطي معها وتقويمها على ضوء صلاحيتها الواقعية إنْ بالتجريب أو بالتجربة[1] .

وستكون فرضية البحث والنماذج التوضيحية الموضوعة والإجراءات الاختبارية المستخدمة موضوع تقويم المنهجي في هذا المجال .

وهذه المقومات التي افترضناها شابها التطور وتداخلت مع غيرها من العناصر ، فاختلطت مع المقومات الذاتية (مقومات العارف) المقترب الذي ينظر منه العارف والخلفية التي نشأ عليها ، دينية أم اجتماعية أم ثقافية أم سياسية ، والأيديولوجيا التي حملها .

= المنهجية والسياسية ، م . س . ، ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(١) فرق د . حسن الساعاتي في بحثه إشكال المنهج في العلوم الاجتماعية بين التجريب Experimentation والتجربة Experiment وعنى الأول المعاناة المتكررة أو التكرار في الحدوث وعني الثاني الحدوث دون التكرار . ورأى أن التجريب ممكن في العلوم الطبيعية ومطلوب بينما التجربة هي الممكنة في العلوم الاجتماعية والمطلوب اعتمادها . مجموعة من المؤلفين ، إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي ، دار التنوير ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٥١ .

وتعددت الآراء في مقومات الموضوع فالبعض نفى إمكانية المعرفة وتعددت أشكال النفي عبر العصور ، والبعض الآخر قال بإمكانية المعرفة إلاَّ أنه قال بذاتيتها في حين قال آخرون بموضوعيتها ، واكتفى بعض هؤلاء بالقول بنسبية إمكانية المعرفة بموازاة قول آخرين بالمعرفة المطلقة وجمع ثالثون بين الاثنين .

وتشعب فهم مقومات الأداة فالبينة فهمها البعض معطى نـظرياً وفهمهـا البعض معطى حسيـاً وفهمها آخرون الاثنان معاً . وقواعد المنطق الأرسطي كانت لفترة طويلة خلت هي الأداة أو الطريق المسلم به فأصبحت في مرحلة لاحقة متهمة ومشكوك فيها (القرنين ١٦ و١٧) فبرز التجريب إلى أن أعيـد الاعتبار لضرورتها دون الاكتفاء بها .

ومقومات المنهجية هذه ، بتطورها ، يفترض أن تكون ماثلة في عرض المناهج الاجتمـاعية والسياسية في تاريخ الفكر البشري ومناقشتها .

مورفولوجيا التنافر والتآلف داخل ضاحية حاشدة

(الجناح الغربي ـ بيروت)

معاناة البحث الاجتماعي في ضاحية قلقة

أحمد بعلبكي

تقديم :

جرى هذا البحث الاجتماعي عام ١٩٨٧ في قطاع السان ميشال ـ السان سيمون من ضاحية الجناح في جنوب غرب بيروت وكانت فكرته في البداية بعيدة بآفاقها النظرية عن هموم الخدمة الاجتماعية اليومية التي تقدمها مؤسسة « الحركة الاجتماعية » لأهالي هذه الضاحية . إلا أن التداول المعمّق مع المكتب التنفيذي للحركة ما لبث أن أعاد الاعتبار للوحدة المعرفية بين الأهداف البعيدة النظرية من جهة والهموم اليومية التطبيقية من جهة ثانية .

وهكذا تميز هذا البحث الشامل (Exhaustive) بأنه جمع إلى الغاية النظرية التي تستهدفها عادة الأبحاث الميدانية المشابهة غاية تأهيل فريق العاملات الاجتماعيات في مركز الجناح التابع لـ « الحركة الاجتماعية » . فكانت غاياته على هذين الصعيدين كما يلي :

أولاً ـ على الصعيد النظري :

حيث تركز الاهتمام على الجهد السوسيومتري أي الجهد المبذول لقياس علاقات التآلف الاجتماعي بين الجماعات الأساسية المتخالطة داخل الحي (لبنانيون بغالبية شيعية وعشائر عربية سنيّة ما زالت تغلب على حياتها البداوة وأكراد وفلسطينيون وآخرون من بلدان مجاورة) من جهة، إلى جانب الاهتمام بتعليل استمرار تآلف هذه الجماعات في مثل هذه الضاحية من جهة أخرى في الوقت الذي مالت فيه العوام في الجماعات الإسلامية هي أيضاً وفي ضواحي المدينة الأيسر حالاً بعد الاجتياح الإسرائيلي إلى الإنفراز الطائفي المذهبي والاتني استكمالاً لما شهدته البلاد منذ بداية الحرب . وتراءت لنا ظاهرة تواصل هذا التآلف بالرغم من استعار معارك المخيمات الفلسطينية مع حركة أمل النافذة في الوسط الشيعي من جهة وبالرغم من الصدامات المتكررة بين هذه الحركة والجماعات الكردية والعشائر العربية المنضوية في إطار ميليشيا الحزب التقدمي الاشتراكي النافذة في الوسط الدرزي من جهة أخرى . وشكل هذا التآلف ظاهرة فارقة (Fait Polémique) يجب أن

تفسر بالمزايا الاجتماعية المختلفة لدى كل جماعة في هذه الضاحية عن مزايا قريناتها في منطقة التجمع الأساسي لكل منها أي في الضواحي والمناطق البيروتية الأيسر وتبلور حدسنا هذا في فرضية بحث مؤداها :

«**أنه في مستوى ما من العوز يسهل التحاشد الديني والاتني في الضواحي البائسة حيث ترجح دينامية التآلف وليس دينامية التنابذ المشهود في الضواحي الأيسر**». وإذا كان الاحتشاد السكاني في ضاحية الجناح قد نتج أساساً عن مستوى العوز الملحوظ إلا إنه يقود بدوره إلى تغيير نوعي للعلاقات بين الجماعات المتحاشدة على مجال ضيق حيث تعيش ٢٠٪ من الأسر في بيوت تقل مساحتها عن ٢٠ متراً مربعاً وتعيش ٢٥٪ من الأسر في بيوت متلاصقة لا فسح بينها، تفصلها جدران من الطوب الرقيق (١٠ سنتيمترات) الذي يكاد لا يفصل بين حرماتها . وفي هذا الصدد يشير دوركهايم في كتابه (قواعد المنهج) إلى ان الكثافة المادية (السكانية) تسير جنباً إلى جنب مع الكثافة الدينامية وأن هذه الكثافة الأخيرة ينبغي أن تفهم لا على أنها فقط التقارب المادي (السكني) الخالص بين أفراد المجموعة بل التقارب الروحي الذي لا يكون التقارب المادي إلا معيناً له . . .

هذه المقاربة المورفولوجية القائمة أساساً على الجغرافيا السكانية تمثل علم التشريح الحقيقي للمجتمع المدروس وتُبرز ما للكثافة السكانية من فعل في حياة الجمهرة في مجال معين خلال زمن معين وان اختلاف هذه الكثافة يؤدي إلى اختلاف في دينامية الحياة وقد سبق لمارسيل موسى في المجلد التاسع من النشرة السنوية لعلم الاجتماع أن لاحظ خلال وصفه لحياة الأسكيمو نظامين مختلفين متناوبين في الاقتصاد العائلي والحياة الدينية وتقوم الاختلافات النوعية بينهما على « اختلافات كمية في قوة الحياة الاجتماعية المتباينة جداً بين فصول السنة بحيث إن أثر الظواهر المورفولوجية يمتد إلى المناطق العليا من الفسيولوجيا الاجتماعية » .

وفي هذه المقاربة المورفولوجية لضاحية الجناح تصبح فرضيتنا المصاغة أعلاه أو تعليلنا الحدسي المسبق (Interprétation Anticipeé) لظاهرة التحاشد الديني والاتني ولحدود التنافر والتآلف الضروري هاجساً يستحكم باختيار مؤشرات قياسها وبصياغة أسئلة استقصاء هذه المؤشرات كما سنرى عندما نعرض لذلك في الحديث عن الاستمارة المعتمدة .

ثانياً ـ على الصعيد التطبيقي التأهيلي :

وما كان لصحة هذه الفرضية النظرية أن تختبر لولا الإفادة من حظوة مركز « الحركة الاجتماعية » داخل الضاحية المدروسة ومن تآلف فريق العاملات الاجتماعيات فيه مع كبارها وصغارها على حد سواء . وسرعان ما اتضح ومنذ الزيارات الأولى للمركز ان الهم النظري للباحث في فرضيته لا ينفرج إلا بفضل النشاط الاستقصائي المألوف للعاملات وأن ضيق العاملات برتابة النشاطات اليومية لا ينفرج إلا بحدس الباحث وتخيلاته النظرية فكان توافق على تلازم حاجة الباحث لاختبار صحة فرضيته النظرية مع حاجة عاملات المركز لتأهيل نظري ومنهجي يحسن إدراكهن

للمحيط الاجتماعي ليتحسن بالتالي أداؤهن للخدمة فيه . واتضح لكل منهن أن مستوى ما من الإرباك والتركيز النظريين عبر الانسياق مع منهجية البحث وهواجس الباحث يمكنهن من الارتقاء علمياً ومهنياً كما ويمكنهن من الانتشاء بتأمل مكنونات الظواهر اليومية في الضاحية الفقيرة . ولا نغالي إذا قلنا بأن المبادلة بين عطاء الباحث في الثقافة الاجتماعية السوسيولوجية والمنهجية من جهة وعطاءات العاملات من خبرتهن في تحسس واستقصاء المجتمع المحلي من جهة أخرى مبادلة متصاعدة التكافؤ سواء خلال مرحلة التحضير أو خلال مرحلة التنفيذ للبحث الاجتماعي كما سيتضح تفصيلياً في عروضنا اللاحقة عن مراحل هذا البحث .

تمهيد حول تدرج مراحل البحث

تميز هذا البحث ، كما سبق وأشرنا في التقديم ، ببروز الغاية التأهيلية لفريق العاملات الاجتماعيات اللواتي تولين التحقيق الميداني فيه أو هذا ما حكم مساره مرحلة مرحلة حيث كانت تثار النقاشات معهن يومياً حول كل مرحلة فيشاركن في برمجة الخطوات وفي صياغة المفاهيم واختيار المؤشرات وفي نقاش مصداقية الطروحات التعليلية لكل انطباع في ضوء تآلفهن مع الناس . وانطلقت المشاركة منذ البداية خطوة خطوة .

١ ـ في ظروف اختيار موضوع البحث :

لقد برز في البداية أن ظاهرة التآلف داخل الضاحية البائسة بين الجماعات رغم تناحرها في الضواحي الأخرى الأيسر والتي تشكل ظاهرة فارقة ومثيرة في نظر الباحث لا تستثير الاهتمام الأول للهيئة المقررة المشرفة على فريق العاملات الاجتماعيات . لا بل أن هذه الهيئة كانت تفضل أن تصرف الجهد في مسح وتصنيف الأوضاع الصحية والغذائية وما شابه من المعطيات التي تفيد مباشرة في تنظيم الخدمات التي تقدمها العاملات للعائلات المعوزة . ولهذا احتل وصف هذه الأوضاع حيزاً بارزاً في الاستمارة وفي المتغيرات المعتمدة لقياس مصداقية فرضيتنا . وجدير بالذكر أن سرعة تحسس العاملات بحاجتهن للتذوق النظري وميلهن للخروج من رتابة الخدمات اليومية شكل تحفزاً مقنعاً للهيئة المقررة في « الحركة الاجتماعية » للموافقة على التفرغ لإنجاز البحث الميداني خلال ثلاثة أشهر وعلى تمويل الإشراف عليه . أجل إن هذا التحفز جعل من موضوع البحث هاجساً يستحوذ على ملاحظات العاملات ومداخلاتهن سواء في الجلسات التحضيرية أم في الزيارات الميدانية . وزاد في هذا التحفز انفتاح العاملات وللمرة الأولى على المعارف الأساسية في الاقتصاد والاجتماع والتاريخ وعلم النفس الاجتماعي والقانون والإحصاء والجغرافيا البشرية والديموغرافيا وعلى غيرها من المعارف التي يتطلبها البحث في الظواهر المؤشرة على التآلف وهذا ما سنعرض له في استعراض وتعليل خياراتنا لأسئلة الاستمارة لاحقاً .

٢ ـ في مدى ملاءمة الظرف لبحث موضوع التآلف بالذات :

إذا كان هذا الموضوع قد أغوى الباحث والعاملات ـ المحققات على حد سواء لما قد يوفره من مؤشرات صالحة لتعيين ظروف وحدود التداخل والتنافر بين الجماعات المتآلفة داخل ضاحية الجناح والمتناحرة في خارجها إلا أن هذا التآلف المنفعل بالتوتر المحيط به فرض اعتماد المقاربات المداورة وليس المباشرة ومن خلال مؤشرات متنوعة قائمة على استقصاء الوقائع القابلة للتكميم والمبتعدة عن استقصاء المواقف والآراء التي تعلن انسجاماً مع ضرورات وإيديولوجيا التملّق اتجاه الميليشيا المتسلطة باسم جماعة ما وهي آراء لا تعبر دائماً عن النوايا الفعلية اتجاه هذا التسلط .

لذلك لجأنا إلى صياغة أسئلة حول وقائع تتمثل بتسمية ربات الأسر لأصحاب الأولاد الذين تزيد أعمارهم عن ٨ سنوات وتسمية عائلات مجاورة مع ذكر عدد أولادها ومصدر دخلها الأساسي وفي لجوئنا إلى صياغة أسئلة حول هذه الوقائع كنا نظن أننا من خلال هذه المداورة نطل على مدى التداخل والتنافر بين الأسر في الجماعات المختلفة لاعتقادنا بأن قبول الأهل لمصاحبات الأولاد والاهتمام بمعرفة دقيقة لأوضاع الأسر المجاورة يجب أن يؤشر على نوع العلاقات القائمة فعلاً معها .

ولا نخفي أننا أخطأنا في طرح بعض الأسئلة إذا اكتشفت بعض النساء المستجوبات المنعزلات المقصود من أسئلتنا المداورة لقياس مدى انفتاحهن فرحن يحضّرن أنفسهن ويحفظن إجابات تموه واقع جهلهن بأوضاع جاراتهن ومداخيلهن ومناشئهن الجغرافية وعدد أولادهن الذين التساؤل حول ملاءمة ظرف حرب المخيمات عام ١٩٨٧ لاستقصاء حدود التداخل والتنافر بين ٥٨ أسرة فلسطينية سنية من جهة و ١٠٤ أسر شيعية وفي وقت ازدادت فيه مراقبة ميليشيا حركة أمل للجيوب التي تتوقع منها خروقات لسيادتها المحلية . فانعكس هذا التوتر إرباكاً وسلبية إزاء بعض الأسئلة المداورة التي حاولت قياس العلاقات من خلال تسمية بعض الوقائع (كالشهداء في الأسرة) أو الرموز الدينية أو السياسية (كما في سؤال عن أهل الحل والربط في الحي أو في سؤال عن الأسر الصديقة) أو حتى اسم الجامع الذي يصلي فيه المؤمنون في الأسرة .

٣ ـ في نوع الاستقصاء :

عرفنا حقل دراستنا بضاحية السان ميشال ـ السان سيمون وكان يمكن أن تمتد لتشمل أكثر من ضعف عدد الأسر (١٠٠٠ أسرة بدل ٣٧١) أي إلى أحياء إضافية . إلا أن اقتطاعنا لهذا الحقل تبرر بعمق العلاقات الرعائية التي يقيمها مركز « الحركة الاجتماعية » مع هذه المساحة من جهة ، وإلى التشكل البنيوي على هذه المساحة من جهة أخرى في ما بين الكتل الأساسية لبعض الجماعات الطائفية والاتنية المهجرة إلى المنطقة كعشائر العرب والفلسطينيين والأكراد والتي استطاعت أن تشكل مع جزء من الجماعات اللبنانية (من الشيعة والسنة) كياناً ملحوظا التميز في حدود عمرانه وبؤسه الاجتماعي ، فأخذنا الواقع بالتشكل الذي يقدم فيه ذاته وتوافقنا على أن يكون استقصاؤنا له شاملاً وليس بالمعاينة وذلك بسبب أن هذه الضاحية باتت في تشكلها الاجتماعي البنيوي أقرب إلى

القرية التي تسلس قيادها للطريقة المونوغرافية أكثر من تقنية المعاينة والاستمارة وبسبب أن مركز « الحركة الاجتماعية » يقبل متحفزاً على توفير جميع التسهيلات المعنوية والبشرية التي تتوفر له وحده في هذه الضاحية وهذا ما شجع على التناول الشامل واستبعاد المعاينة .

٤ ـ تعذر التوثيق حول التشكل والتغير في هذه الضاحية :

لا بد من الإشارة إلى عدد من الصعوبات التي برزت في التعرف الاستطلاعي على هذه الضاحية سواء في التوثيق عن تاريخ أعمارها السياحي كمنطقة شهيرة للمسابح الفخمة قبل الحرب أو عن تعاقب موجات التهجير إليها أو عن أبرز المالكين فيها . لم تكن هذه الصعوبات مفاجئة لنا في ما نعرفه عن ضواحي بيروت التي يعمرها النازحون فيعيشون فيها حيث لا يتمثلون ويتمثلون في أريافهم حيث لا يعيشون ولذلك فإن نصوص التمثيل السياسي والبلدي في لبنان لا تلحظ أي التزامات من قبل الإدارة المحلية والبلديات لتسجيل هؤلاء النازحين لأن هذه النصوص لا ترتب لهم أية حقوق اتجاه هذه الإدارات والأجهزة وإذا كان من غير الممكن العثور على أي تسجيل إحصائي للسكان النازحين من اللبنانيين في زمن السلم فكيف نتوقع العثور على مثل هذه التسجيلات في زمن الحرب وقد توقفت خلال الحرب كل إمكانات الجباية والتسجيل التي كانت تضطر إليها بلدية الغبيري (رسوم الحراسة والكناسة) أو إدارات الكهرباء والمياه ؟ ويزداد أمر التوثيق الإحصائي السكاني صعوبة بالنسبة للجماعات غير اللبنانية : فإحصاءات الإقامة لدى الأونروا المعنية بتشغيل وإغاثة الفلسطينيين لا تتتبع تغير إقامة الأسر المستفيدة منها والتي ما زالت مسجلة كما صرح عنها فترة ٤٨ ـ ٥٢ وأما بالنسبة لعشائر العرب والأكراد فقد اضطررنا في البداية للاعتماد على معلومات الوجهاء المتنورين منهم .

كما وأنه لم يكن بالإمكان الاعتماد على دراسات وتخطيطات سابقة لإدارة التنظيم المدني لتقدير تطور الحركة السكانية خاصة وأن منطقة الدراسة (الجناح الغربي) كانت في خرائط ما قبل الحرب منطقة مسابح كما أسلفنا وعلى صعيد آخر لم يكن مفيداً التقدير الأولي للجماعات من خلال حجم الأولاد المسجلين في المدارس القريبة لأن قسماً منهم يقصد مدارس بعيدة (مدارس الاونروا) أو لا يذهب إلى المدرسة كما بالنسبة للكثير من الأطفال الأكراد أو ينتشر في مدارس الضواحي المجاورة كما بالنسبة للأولاد اللبنانيين الشيعة .

ولا نغالي إذا قلنا بأن هذه الدراسة كانت ريادية في اتساع همومها وهواجسها حول الضواحي المهمشة ويندر وجود مثل هذه التقديرات الأولية في محاولات صحفية ولا في أرشيف الميليشيات المتعاقبة على الرعاية الجزئية أو الكلية في هذه الضاحية قبل الاجتياح وبعده . وبمعنى آخر لم يقيض لنا أن ننطلق من تراكم معرفي واف حول أوضاع هذه الضاحية فوجدنا أنفسنا أمام ضاحية « غير شرعية » ، لا تاريخ لها ولا ذاكرة جماعية ولا سجلات فلا هي بالقرية ولا هي بالحي المديني بالمعاني التقليدية للمفاهيم . ولم يبق من شهود عصر الازدهار السياحي السابق فيها إلا أسرة واحدة

أغرقت بما ينوف على الألف أسرة .

في ظروف هذا التوطن المستجد والمتحرك اضطررنا للاصطلاح على حدود حقلنا الدراسي الذي طال ٣٧١ أسرة مكتفين بما أبرزه واقع الحي المتشكل من النوى الأساسية لبعض الجماعات (عشائر العرب والأكراد والفلسطينيين والشيعة) وبما برز له من حدود تتمثل بأراضٍ خالية من الجنوب وبشارع رئيسي يفصله من الشرق عن حي آخر يختلف عنه تماماً لجهة مستوى عمرانه وتجانسه الطائفي ومن الشمال بجدار يفصله عن جوار مجمع السمرلاند السياحي ومن الغرب بالبحر الذي يفصله عن الدنيا ويربطه بها من خلال ما تلفظه الأمواج ويلتقطه الأولاد المتسكعون .

٥ ـ بلورة الفرضية واختيار المتغيرات والمفاهيم :

إذا كان التآلف داخل ضاحية السان ميشال ـ السان سيمون بين الجماعات المتنافرة والمتقاتلة في خارجها قد شكل ظاهرة فارقة ومثيرة للباحث إلا أن ظاهرة التآلف اللافت هذه يعيشها الناس ويحرصون عليها بأم العين وإن كانوا لا يفكرونها بمفاهيم ولا يحاكمونها بمنطق بل ويذهبون في تعليلها عن قناعة أو تملق إلى مقولات إيديولوجية تموه الأساس الإنساني لواقع التآلف وتُعزي الفضل فيه إلى « نبل » الميليشيا المحلية بغرض كسب ودها والاستغناء عن تدخلها الذي يوتر العلاقات اليومية « الطبيعية » بين الناس على اختلاف مناشئهم وانتماءاتهم .

وإذا كانت إيديولوجيا التملق لم تعطل إمكانية بلورة فرضية البحث في ذهن الباحث إلا أن هيمنة هذه الإيديولوجيا ومنظومة مفاهيمها في ظل السلاح اضطرنا ونحن نبحث عن حدود التآلف والتنافر إلى اكتشاف متغيرات تؤشر مداورة على هذه الحدود وتكون قابلة للقياس الكمي .

وكان متغير **الارتباطات العصبوية بالمناشىء السابقة** هو المتغير الأول في تكوين فرضيتنا وفي سياق عرض كل من هذه الارتباطات كان تقديرنا الأولي أن موقف النساء الحاملات من الهوية الطائفية للقابلة القانونية التي ترتاح للولادة بين يديها يؤشر على مدى فصلها بين خبرة القابلة من جهة وانتمائها وتقاليدها من جهة أخرى كما ويؤشر على أهمية كل من الأساس الطبي والإنساني في عملية التوليد من جهة والتراث الروحاني المحيط بالولادة من جهة أخرى فيساعدنا تقدير أهمية كل من هذين المستويين في قياس مدى انفتاح المرأة الحامل **كمتغير يرتبط** بأعمق لحظات تأملها الوجداني . أجل هذا ما توخينا كشفه في سؤال معين وكذلك عندما طلبنا تسمية المستشفيات ـ ودور التوليد والأطباء وتسمية المختار المعتمد خارج الحي والجامع المقصود في المناسبات الدينية المهمة والمدفن . وفي هذه الأسئلة لم نكن نقصد قياس ثقافة المرأة والأسرة في تسمية هذه المراكز والمراجع وحسب وكما برز لأول وهلة بل كنا نداور لقياس متغير مواصلة الارتباطات العصبوية التقليدية منها والمتجددة في زمن الطائفية المعسكرة مع المناشىء أو العصبيات التي جاؤوا منها ، خاصة وأن العصبيات الطائفية قد سوغت التعاطف مع التجمعات الأصلية والقرى والعائلات ومع مستشفيات معينة ومخاتير معينين وسوغت التخاطب والتعاطف مع أطباء من العصبية ذاتها فكانت

أسئلتنا الهادفة إلى قياس مدى التفارق في الارتباطات بالامتدادات المتصارعة في الخارج تداور لقياس مدى التخارج والتنافر ومدى التداخل والتآلف في الاجتماع المحلي وكان اختيارنا لمتغير مواصلة الارتباط العصبوي بالرموز والمؤسسات المتنافرة في الخارج اختياراً ضرورياً مداوراً لقياس مدى التأثر والانفعال بالخارج ولمدى التشكل الداخلي والاستقلال النسبي عن هذا الخارج .

وأضفنا إلى متغير التأثر بالخارجي متغير **التكيف المحلي** لقياس مدى تشكل المجتمع المحلي واستقلاله فصغنا أسئلة تقيس مدى الترابط والتناظم الاجتماعي من خلال التساؤل عن التخالط في المنادمة كلحظات حميمة . وأسئلة تقيس ذلك أيضاً من خلال مدى اختلاف هويات أصحاب الأولاد الذين تزيد أعمارهم عن ٨ سنوات وقد اخترنا هذا العمر لتقديرنا إنه أقل تأثراً في اختيار أقرانه بالعصبية التي تمارس عليه في أعمار الطفولة أو بالعصبية التي يضطر هو شخصياً لممارستها على نفسه في عمر ١٥ سنة وما يليه . كذلك عمدنا في قياس متغير التكيف المحلي ذاك من خلال مؤشرات اختلاف هويات الأسر التي يتم معها السهر والأخذ والعطاء ومن خلال التساؤل حول تبادل الواجبات في الدعوة لحضور الأفراح وهي مناسبات تغلب فيها المشاركة بالتقاليد وتبرز فيها حدود الانغلاق على المألوف التراثي وحدود تجاوزه إلى التآلف مع تقاليد من تراثات أخرى . كما واعتمدنا في قياس متغير التكيف المحلي حدود معرفة الجوار لاعتقادنا أن المعرفة تعبر عن اهتمام ومتابعة يشكلان شرطاً للتآلف والانتظام في المجتمع المحلي كما أشرنا في مكان سابق فصغنا سؤالاً حول قدرة المرأة المستجوبة على معرفة الأسر المجاورة وعدد الأولاد في كل منها وهوياتها والمصادر الأساسية لمداخيلها .

ولجأنا على صعيد آخر إلى متغير **السلطة المحلية** وحاولنا من خلال الطلب بتسمية أبرز شخصيات الحل والربط داخل الحي أو الضاحية معرفة ما إذا كان هناك وجهاء في الحي يتنفذون خارج حدود جماعاتهم الطائفية أو الإتنية مما يؤشر في تقديرنا على تداخل وتآلف يسهم في تشكل مجتمع هذه الضاحية .

وفي قياس هذا التداخل عمدنا إلى استقصاء متغير آخر **يتمثل في وقائع المصاهرات** بين الجماعات من جهة وحدود الانفتاح من خلال ذكر أبرز ٣ صفات يفترض توفرها في اختيار الصهر والثلاث الأبرز في اختيار الكنة .

واعتبرنا أن **مستوى الإلمام بمصادر الوعي والثقافة العامة كمتغير مميز** يجب أن يؤشر على إمكانات التبادل والانفتاح أو يؤشر على انعدامها والانغلاق فأفردنا له أسئلة تصنف لدى كل ربة أسرة مستجوبة مصادرها الأساسية من خلال تسميات مبسطة لأبرز المجلات والصحف والبرامج الإذاعية والتلفزيونية ولأبرز رجالات الدين البارزين في البلاد مع ذكر انتماءاتهم الطائفية .

ولم نغفل ونحن نستقصي أوضاعاً متوترة خلال عامي ٨٦ ـ ٨٧ في بيروت الغربية والضاحية

الجنوبية ضرورة **قياس المتغير المرتبط بحدود التظاهر** في ممارسة الانتماء والتنافر وحدود عدم التظاهر من أجل تسهيل القبول المتبادل والتكيف والتآلف فعمدنا إلى تقصي المعلقات على جدران المنازل .

ومن الوقائع المؤشرة على **الاستقرار السكني والتوطن في هذه الضاحية** كمتغير مهم ويسهل قياسه اخترنا واقعة التحول إلى سطوح الباطون المسلح بدل الصفيح والاترنيت وما شابه .

واستثمرنا الأسئلة المتعلقة بقياس **الثقافة الصحية والغذائية** والاقتصادية ـ المعيشية ليس فقط لأهداف معزولة تتمثل في تحسين التعرف على مستويات الاهتمام والوعي والتبادل والتنافر أو في تحسين الخدمات الصحية والوقائية والغذائية التي تقدمها العاملات الاجتماعيات في مركز « الحركة الاجتماعية » الكائن في ضاحية السان ميشال ـ السان سيمون المدروسة بل وحاولنا في تلك الأسئلة أن نقيس حدود فعل تشابه وتفارق مستويات الثقافة وأنواعها كمتغير يسهل أو يعيق تبادل الأفكار والمنافع مما يرسخ الجيرة وانبناء المجتمع المحلي .

وتجدر الإشارة إلى أن التحضير المطوّل للاستقصاء الميداني والمستند إلى احتكاك الباحث المسبق من خلال فريق العاملات الناشطات في مركز الخدمة الاجتماعية في هذه الضاحية جعل فرضيتنا أقل تعرضاً للتعديل وأتاح لنا التوقف أمام الكثير من الظواهر والسلوكات والآراء فكان لنا ذلك بمثابة مرحلة الاستطلاع الضرورية في البحث الاجتماعي حيث أجريت مقابلات مع وجهاء الحي وبعض النساء بهدف استقصاء سلامة الصياغة ومردودية القصد من وراء بعض الأسئلة المداورة التي نطرحها لإجلاء بعض المتغيرات المستقلة الأساسية (Variables Indépendants) وبعض المتغيرات التابعة (Variables Dépendants) .

كما وأتاح لنا ذلك التحضير المطوّل والتآلف المترسخ للعاملات الميدانيات في المركز أن نعطي لبعض الأسئلة المحرجة فرص التحول إلى موضوعات لمقابلات نصف موجهة وكان لا يمكن لهذه الفرص أن تتوفر لولا تأكدنا من إمكانية تجاوز الإحراج بسبب علاقة الألفة الحميمة مع العاملات (الأسئلة حول شرب الخمور ومنع الحمل) اللواتي اتضحت لهن خلال مرحلة الاستطلاع خطورة التفرد والاجتهاد بشرح بعض الأسئلة مما قد يؤدي إلى إيحاء بأجوبة معينة (متغير متداخل) وتجدر الإشارة إلى أن محاذير تدخل المحقق في توصيل السؤال كانت في أساس إقلاعنا عن الأسئلة التحليلية حول المواقف والآراء واقتصار أسئلتنا على الوقائع والممارسات التي يصعب على النساء المستجوبات عدم الصدق في الإجابة على الكثير منها . وأما القليل من الأسئلة التي أجيب عنها في البداية بعد تحضير الأجوبة بين الجارات عشية المقابلة المتوقعة وهي الأسئلة التي تطلب تسمية تدل على ثقافة المرأة الصحية والدينية والإعلامية فلا بد من الاعتراف بأنها ورغم التفصيلات المطلوبة في الأجوبة من قبل المحققات مما قد يربك الجواب المحضر ويكشفه (كطلب العناوين مثلاً ومواقيت البرامج الدورية وأشخاصها) ولذلك فإنها لم تحصّل أجوبة تعبر عن الواقع الثقافي لدى

بعض النساء المستجوبات في الأيام الأولى ، وهكذا فإن اعتمادنا في قياس الثقافة وقياس محاور الاستقطاب العصبوي على مجرى التسميات المبسطة في أسئلة باردة ومداورة ما كان يمكن أن يؤدي إلى نتيجة لولا اسراعنا في التحول إلى تقنية المقابلة نصف الموجهة التي أعادت الاعتبار للعفوية والإقلاع ما أمكن عن التحضير المسبق للأجوبة الذي ينكشف خلال النقاش وتفريع الأسئلة .

أمام ظاهرة تعطل فائدة بعض الأسئلة لدى بعض النساء توافقنا على محدودية فعل الاستمارة في استقصاء ثقافة الناس ووعيهم وآرائهم ومواقفهم في القرى أو في الأحياء الحاشدة وخاصة تلك التي يسودها التوتر في زمن الحرب مما يضطرهم للتملق والأدلجة . وتوافقنا على فاعلية الطريقة المونوغرافية في مثل هذه الحقول الاجتماعية وبما أن الهدف الثاني للبحث كان تأهيل العاملات في مركز الحركة الاجتماعية لذلك آثرنا عدم إلغاء هذه الأسئلة والإبقاء عليها لملاحظة الاختلاف في التحليل وتحضير الأجوبة بعد توافقنا على تعطل فاعليتها في قياس المتغيرات المصاغة إذا لم تستلحق بتقنية المقابلة .

النظرة الإنمائية في لبنان ومجلس الإنماء والإعمار

الدكتور عفيف عواد

مقدمة :

عند دراسة موضوع التنمية لبلد من البلدان النامية لا بدّ من معرفة أوضاعه ومشاكله الاجتماعية والاقتصادية التي تعيق منهاج تقدمه وتطوّره وتحول دون معالجة السياق التنموي بشكل عميق وعلمي وبعيد النظر . ففي السياسة الإنمائية يتبيّن جلياً كيف أن دول هذه البلدان عرضت حلولاً جزئية طالت بشكل خاص بعض المواضيع الاقتصادية والإنشائية والتربوية دون تبني سياسة شاملة وتكاملية تلقي الضوء في آنٍ معاً على كافة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والمؤسسية والسياسية وفق خطة تنموية متناسقة وواعية .

من البديهي القول في مسألة التنمية أن المقاربة الاجتماعية للبلد النامي أو المنطقة السائرة على طريق النمو هي ضرورية وأوّلية باعتبارها الركيزة الأساسية وتبتغي سعادة المجتمع ورفاهيته واستقراره . فالمجتمع الذي لم يتآلف مع التقدم الاقتصادي يشكل عقبة كأداء أمام التطوّر والنمو ، وهو البوصلة الصادقة في مسار التنمية والنجاح . والسبب الرئيسي في ذلك أن المكابح الثابتة والصلبة التي تقف في وجه عملية التنمية المبتذلة والمستعارة هي في معظمها ترتدي طابعاً اجتماعياً ونفسياً ، فالتقاليد والتراث والأصالة والعادات والأعراف تحكم كافة النشاطات ولا حداثة دون أصالة كما لا أصالة دون حداثة تتوافق وترتقي مع الذات .

وهكذا يمكننا القول إن سيرورة التنمية ليست بكل بساطة ذات منحى اقتصادي رغم أهميته فحسب ، إنما فهمها وتملّكها والإحاطة بكافة جوانبها يستلزم الإلمام والوقوف بدقة أيضاً على النقاط التالية : البناء الاجتماعي ، الجغرافيا ، التاريخ ، الديمغرافيا ، الحضارة . . . إلخ .

إذاً ، فالمقاربة الاجتماعية يجب أن تتناول دراسة ومعالجة مشاكل الصحة والغذاء والتعليم والعمالة والنمو السكاني والإسكان .

من الناحية الصحية ، تعتبر الأمراض إحدى معيقات التنمية ومؤشرات التخلف . فالمجتمع المريض هو مجتمع محدود الإنتاج والعطاء . وطرح هذا الموضوع لا يمكن معالجته بالاعتماد على المقاييس الكمية والوسائل الصحّية والطبية ، وإنما أيضاً بإيجاد السياسة الصحية الرشيدة التي تكفل للمجتمع الصحة الجيدة من خلال الإحصاء الصحي والناحيتين الوقائية والعلاجية والتربية الصحية مع توزيع مدروس وعادل للتجهيزات الصحية والمستشفيات والمستوصفات على كافة المناطق .

ومن ناحية الغذاء ، فإن مستواه في البلدان المتخلفة والبلدان السائرة على طريق النمو هو عموماً ضعيف. لذلك من الضروري إيجاد سياسة أمن غذائي تعتمد على تطوير واستغلال قطاع الزراعة والقطاعات المتممة له خوفاً من الانكشاف الاقتصادي والاعتماد على واردات الحبوب الغذائية الأجنبية وسواها ، باعتبار هذه الواردات سلعاً استراتيجية وتتمتع الدول ذات المطامع السياسية بفائض كبير من هذه المنتجات . وتجدر الملاحظة في هذا المجال إلى أن ارتفاع أسعار المواد الغذائية وغياب سياسة الضبط والمراقبة ، إضافة إلى الدخول المتدنية ، تزيد مشكلة الغذاء وتجعل المواطن في ضائقة اقتصادية ومعيشية خانقة .

والتعليم ، باعتباره الغذاء الآخر للإنسان فكراً وروحاً وإنتاجاً ، فإن مستواه الضعيف هو مؤشر آخر للتخلف . غير أن سياسة التعلّم لا تعني بالضرورة توجهاً نحو التقدم والتنمية ، كأن نعطي الأولوية والهيمنة للتجريد والنظرية دون العناية الدقيقة بالأوضاع المعاشة وتطوير البنيات الريفية والمهنية ، وذلك تلافياً للنزوح الريفي وتدهور القطاع الزراعي والهجرة إلى الخارج والاعتماد المتزايد على الوظائف العامة . وهكذا يمكننا القول إنّ التعلم ليس في حد ذاته هدفاً له قيمته وفعاليته إن لم يكن لصيقاً ومتكاملاً مع كل جهد إنمائي .

وأيضاً فالعمالة إحدى مشكلات العالم الثالث باعتبارها المرآة الكاشفة على المناشط الاقتصادية والإنتاجية والمعبّرة عن الأزمات الاجتماعية والفجوات القائمة في بلدانها. كأن يلاحظ مثلاً أن بلدان العالم الثالث هي بلدان ، البطالة والبطالة المقنّعة ، و « النمو الحضري » المخيف مع ما يرافقه من هيمنة مدينية ملفتة ومشاكل إسكانية واجتماعية وبنيوية يصعب على أية دولة من دول العالم الثالث إيجاد الحلول السريعة والممكنة لها .

وبطبيعة الحال لا يمكننا نسيان مشكلة النمو الديمغرافي في البلدان النامية باعتباره عاملاً أساسياً في تقدم أو إعاقة عملية التنمية . مثلاً معدّل النمو في لبنان يقارب ٣٪ ، وهذا معناه وجود مؤشر سلبي يعيق الخطط الإنمائية على مساحة جغرافية لا تتجاوز عشرة آلاف وأربعمائة كلم^2 تقريباً ، بالإضافة إلى مشاكل السكن والمساكن العشوائية وأحزمة البؤس .

أما المقاربة الاقتصادية فيجب أن تتناول المواضيع التالية : متوسط الدخل الفردي ، التوزّع السكاني ، الإنتاج وتركيب الصادرات ، الاستثمار ، المواد الأولية .

من ناحية الدخل فإن قيمته وقيمة الناتج الوطني لا يؤديان إلى معرفة كيفية سياق النشاط

الاقتصادي خصوصاً على صعيد البنيات الإنتاجية . وهكذا عند مقارنة متوسط الدخل الفـردي في العالم يتبيَّن لنا أن الكويت كانت تتقدَّم على الولايات المتحدة الأميـركية وأن فنـزويللا تتقدَّم على اليابان . بينما في الواقع يظهر لنا أن قسماً كبيراً ، بل معظم هذا الناتج في كل من الكويت وفنزويـلا قد تأمَّن حصوله عن طريق شركات أجنبية دون أية علاقة عضوية وتفاعلية مع جموع الكتل الشعبية . لذلك يمكن القول إن مؤشر الدخل الفردي لا يعطي الدلالة الوافية على تخلف أو تقدّم جميع بلدان العالم .

ومن ناحية التوزّع السكاني فإن قطاع الخـدمات يحتـل المركـز الأول في الاقتصاد اللبنـاني ومشاركة العاملين فيه تزداد باضطراد على حساب قطاع الزراعة المتدهورة وقطاع الصناعة التي تتطوّر ببطءٍ شديد . كما وأن الانفجار السكاني في لبنان نتيجة الولادات المرتفعة والوفيات المنخفضة قد لازمه ظهور استقطاب حضري بارز في العاصمة بيروت مع ظهور أحياء سكنية غير قانونية تقوم معظم مبانيها بطريقة عشوائية لا ترتبط بقواعد التخطيط الحضري الداخلي وتتكـوَّن في معظمهـا من مواد بنائية غير مدروسة ومتينة وغير ثابتة تتمثل في الصفيح والأخشاب والتنك ومخلفات أخرى . وتشير البيانات هنا إلى شدّة التمركز السكاني المرتبط بـالاستقطاب الاقتصـادي للتجمّع الحضـري الذي تمثل بيروت مركز ثقله الرئيسي . وقد بلغت نسبة التركّز في العمالة الصناعية في بيروت وضواحيها حوالي ٧٥٪ من المجموع الكلي للعاملين في الصناعة في كل لبنان . كما يوجد منها أيضاً حوالي ٧٥٪ من مجموع العاملين في قطاع الخدمات . كما يتركز في المنـطقة حـوالي ٦٥٪ من مجموع المؤسسات الصناعية في لبنان . وكان نصيب هذه المنطقة من الأجور المدفـوعة حـوالي ٦٧٪ من إجمالي الأجور كلها في لبنان .

ومن ناحية الإنتاج وتركيب الصادرات فإن لبنـان يعتمد أولاً على نـظام الاقتصاد الحـر الذي يتبنَّى التركيز على نشاط القطاع الخاص في بنية الاقتصـاد الوطني ويحتـرم مبدأ الملكيـة الخاصـة ويحافظ على روح المبادرة الفردية . وهكذا يمكننا القول إن الثروة البشرية في لبنان تتجه بشكـلٍ بارز إلى الخدمات ومرتهنة إلى خدمة منطقة الشرق العربي ككل . فلا الحركة المصرفية ولا التجارة المثلثة ولا حركة العبور ، قامت على تلبية حاجات لبنان المحلية . فكلها مرتهنة بشكل بارز ، وإن بدرجات متفاوتة إلى خدمة منطقة الشرق الأوسط قاطبة .

بناء على ذلك يتبيَّن لنا أن قطاع الخدمات يساهم بأكثر من ثلثي الدخل الوطني بينمـا قطاع الصناعة يقارب حدود ٢٠ بالمائة وقطاع الزراعة لا يلامس نسبة ١٠ بالمائة . أما الصادرات اللبنانية برغم ازدهار الصناعة المحلية نتيجة انهيار العملة الوطنية وتدني مستوى الأجور فـإنها تعتمـد على تصدير الفواكه والحمضيات والنسيج والجلد والبيض والفـروج والخشب والورق والمـواد الغذائيـة والألبسة . كما وأن هذه الصادرات قد توزَّعت بنسب مختلفة على البلاد العربية والأوروبية والأفريقية والأميركية .

ومن ناحية التوظيفات والاستثمار فإن النسبة تكون عادة ضعيفة في البلدان السائرة على طريق

النمو . كما وأن القروض والاستثمارات تتجه غالباً صوب قطاع الخدمات توخياً للربح السريع وعدم المجازفة في المشاريع الإنتاجية البعيدة المدى والتركيز على التوظيفات في العاصمة والمدن الرئيسية خاصة . وتجدر الملاحظة في هذا المجال إلى أن التوظيفات والاستثمارات الكبيرة والمتنوعة تخف أو تختفي في ظل عدم الاستقرار والحروب التدميرية والضرائب المزاجية غير الشرعية .

أما من ناحية المواد الأولية فإن لبنان يعاني انعدام الثروات المعدنية وتدنياً في الإنتاج الزراعي بالإضافة إلى أراضٍ جبلية وعرة ومساحة محدودة وضيقة من الأراضي القابلة للزراعة .

والآن ، بعد تبيان المساوىء التي يتخبّط فيها لبنان من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فإنه من الضروري القول في هذه المقدمة إن هذه المساوىء لا يمكنها إعاقة العملية التنموية إذا أحسن معالجتها وإيجاد الحلول الناجعة لها وفق خطة إنمائية شاملة تتناول هزال الهيكلية التحتية وكيفية تطوّرها مع سائر المشاكل الاجتماعية والاقتصادية وآثارها التي أوردناها سابقاً ، ووفق معلومات إحصائية دقيقة .

وفيما يلي سنستعرض السياسة الإنمائية في لبنان منذ الاستقلال وحتى إلغاء وزارة التصميم العام واستحداث مؤسسة مجلس الإنماء والإعمار .

أولاً ـ لمحة تاريخية عن السياسة الإنمائية في لبنان

أ ـ في التصميم والإحصاء :

لبنان لم يعرف سابقاً سياسة تعتمد على التخطيط والتنمية . بل سياسته كانت تنطلق من الارتجال والمصالح الطائفية الضيّقة والمحسوبية . وهكذا أنشيء مجلس التصميم والإنماء عام ١٩٥٣ بموجب المرسوم الاشتراعي رقم ٣٢ وكان معظم المشاركين فيه لا يفقهون المفاهيم الإنمائية ولا يقومون بمهمة التصميم ولا يشرعون في عمل عميق وبعيد النظر .

إلى أن جاءت السنة التالية وتم استحداث وزارة التصميم العام بموجب المرسوم الاشتراعي رقم ٢ تاريخ ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٥٤ . وكان وضعها مشابهاً لمجلس التصميم والإنماء ، حتى أن الوسائل التقنية والإمكانات المالية الموضوعة بين يديها كانت غير كافية ولا تتجاوز نسبتها ٠,٥٪ من الموازنة العامة .

وبقي الوضع يراوح مكانه وانفجرت أحداث ١٩٥٨ بفعل الأحلاف الدولية والصراعات الإقليمية . إلى أن قامت بعثة إيرفد عام ١٩٥٩ برئاسة الأب لوبريه بدراسة حاجات وإمكانيات التنمية في لبنان ، وقدّمت عام ١٩٦٤ دراسة دقيقة تتناول كافة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والمالية والتربوية والإدارية والصحية والمدينية . . . إلخ . كما قدّمت اقتراحات عديدة تتناول معالجة هذه المشاكل واستحداث مؤسسات تعنى بالإحصائيات والتوثيق والأحوال الطارئة وبتقديم

القروض ومساعدة المشاريع الزراعية والصناعية والحرفية والإنمائية عامة . وتعتبر هذه الدراسة هي الوحيدة في لبنان حتى اليوم والتي قامت بعمل علمي عميق وشامل سبر عمق الاقتصاد اللبناني واقترح إمكانيات تطوّره وفق مناهج تخطيطية مدروسة .

وفي نفس السنة أيضاً تم استحداث مديرية الإحصاء المركزي بموجب المرسوم الاشتراعي رقم ١٣٥ تاريخ ١٢ حزيران ١٩٥٩ . وكانت تحت وصاية وزارة التصميم العام ، ودورها يقتصر على القيام بالإحصائيات الضرورية لكل المشاكل والمشاريع المطلوبة منها . وما ينبغي قوله في هذا الصدد إلى أن الدراسات الإحصائية تعتبر الأرومة التي تتفرَّع منها دراسة المشاكل والحلول الممكنة .

أما في موضوع الخطط التنموية ، فبالإضافة إلى الخطة الخمسية ١٩٦٥ ـ ١٩٦٩ وما رافقها من أخطاء وثغرات وفشل في إحداث أدنى تغيير في مستوى البنيات الاقتصادية والاجتماعية ، نرى أن الخطة السداسية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧ قد فشلت أيضاً في تحقيق تغيير بنيوي ، اقتصادي واجتماعي ، وفي إيجاد توازن بين مختلف القطاعات وتناسق بين مختلف المناطق ، ومواضيع أخرى . حتى أن الدولة اللبنانية أبقت النشاط الاقتصادي بكليته على المبادرة الفردية وتدخّلت فقط في الخدمات العامة مثل الكهرباء والأشغال العامة والاتصالات السلكية واللاسلكية . . . مع العلم أن نصيب القطاعات المنتجة في الموازنة العامة خلال هذه الحقبة كان ضئيلاً جداً قياساً إلى القطاعات غير المنتجة والتي هي غير مرتبطة بأهداف الخطة السداسية مباشرة وأمنياتها اللغوية . مثلاً الصناعة ٢,٦٪ من الاستثمارات العامة ، الزراعة ١,٥٪ ، الصحة والعمل معاً ٤,٩٪ ، بينما الدفاع ٤٠٪ والمواصلات ٢٠٪ .

ب ـ في الزراعة والصناعة :

نتيجة مشكلة تصدير الفواكه اللبنانية ونتيجة النظرات التجديدية للحكم أنشيء مكتب الفاكهة في لبنان عام ١٩٥٩ بموجب المرسوم الاشتراعي رقم ٤١ وهدفه تنظيم ومراقبة وتحسين الإنتاج اللبناني الزراعي . بطبيعة الحال لم يحقق مكتب الفاكهة الهدف الذي أنشيء من أجله لعدم وجود مراقبة فعلية للصادرات . وما امتناع كثير من الدول عن استيراد الصادرات الزراعية اللبنانية بحجة الغش وعدم احترام الاتفاقات المبرمة إلاَّ برهان على هذا الفشل وهذه الفوضى وهزال الإدارة اللبنانية والسياسة الإنمائية .

وفي عام ١٩٦٤ تمَّ استحداث المشروع الأخضر بهدف تنظيم الاقتصاد الريفي واستصلاح الأراضي الزراعية والتشجير وإيجاد أسواق خارجية للإنتاج الزراعي المحلي . واستحداث حدائق عامة ومناطق خضراء في العاصمة . . . لكن الخطوات التنفيذية لتحقيق هذا الهدف قد تعثرت وفشلت بفعل سياسة المنافع الشخصية والمحسوبية والفوضى الإدارية والنظرة الإنمائية المحشورة بين سطور الخطط التنموية والبيانات السياسية الشكلية .

بالإضافة إلى المشروع الأخضر ، نذكر بعض المؤسسات والمجالس التي أنشئت بهدف تطوير وتنظيم الزراعة والريف وتشجيع البحوث العلمية . مثلاً ، مكتب الحبوب والشمندر السكري ، مصلحة الإنعاش الاجتماعي ، والمجلس الوطني للبحث العلمي ، ومعهد التدريب على الإنماء لإعداد أعضاء الفرق المتعددة النشاطات وغيرها .

وأعدّت الدولة اللبنانية مشاريع متعددة تتعلق بالموارد المائية وتنظيمها. مثل مشروع ري لبنان الجنوبي ، مشروع ري البقاع الجنوبي ، مشروع ري القاع ـ الهرمل ، مشروع ري عكار ، مشروع ري الكورة ـ زغرتا . وبرغم التكاليف والنفقات التي أهدرت في الدراسات فإن أي مشروع من هذه المشاريع لم يرَ النور ويحقق معه الآلية التنفيذية . ولكن المثل النموذجي لهذه المشاريع هو المصلحة الوطنية لنهر الليطاني التي أهدرت بسببها النفقات والتكاليف الهائلة بهدف تأمين ري ٣٦ ألف و ٧٧٠ هكتار ولم ينفذ منذ إنشائها عام ١٩٥٤ وحتى الآن إلاّ ري ١٥٠٠ هكتار بسبب غياب إرادة التنفيذ وصراعات إدارية وسياسية وعدم تخصيص الموارد والقروض المالية اللازمة . مع العلم أن تنفيذ هذا المشروع له أهمية بالغة في الإنتاج الزراعي والزراعات الصناعية والحدّ من النزوح الريفي . وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن إسرائيل ومطامعها في الجنوب ومياهه ربما لعب دوراً رئيسياً في إعاقة هذا المشروع وعدم تصدّي الدولة اللبنانية له بسياسة وطنية وإنمائية جريئة .

أما بالنسبة لموضوع التسليفات والقروض التي تساعد على تطوّر القطاعين الأول والثاني فإن مصرف التسليف الزراعي والصناعي والعقاري الذي استحدث عام ١٩٥٧ من قبل الدولة كانت المؤسسة الأولى البكر والسبّاقة على الصعيدين الخاص والعام ، منذ الاستقلال والتي كانت تعنى بتقديم التسليفات للمشاريع الزراعية والصناعية لآجال متوسطة وبعيدة المدى (بينما مؤسسة التسليف الزراعي التي استحدث عام ١٩٤٢ كانت مقتصرة على القطاع الزراعي وفشلت بمهمتها لسوء الإدارة وتقديم التسليفات الاعتباطية) . ولكن عيوب هذا المصرف أنه لا يقدّم التسليفات للأفراد إلاّ بموجب رهن عقاري . . وهكذا كان المزارعون الصغار والمؤاكرون محرومون من هذه التسليفات وهم الأغلبية الساحقة ، بينما كان المستفيد من هذه التسليفات كبار مالكي العقارات الزراعية في لبنان . وينعكس نفس الشيء على الصناعات الحرفية والصناعات الصغيرة في لبنان .

ثم أطلّ عام ١٩٧٣ لتقوم الدولة باستحداث المصرف الوطني للإنماء الصناعي والسياحي ، وكان نصيب المشاريع الصناعية متدنياً قياساً إلى المشاريع السياحية لأسباب تتعلّق بماهية هذا المصرف وتنظيمه، حيث كانت أعماله مكرّسة لمساعدة الرأسمال الأجنبي من أجل الاستثمار لآجال قصيرة والحصول على الأرباح السريعة وليس لدعم الإنتاج الوطني وتقدّم القطاعات الإنتاجية وتحمّل المخاطر والمجازفات وجني الأرباح المعقولة والبعيدة المدى .

وبالنسبة للصناعة اللبنانية فقد مرّت بمراحل عديدة ساعدت على تطوّرها أو ركودها ، إلى ان حدثت حرب الأيام الستة في حزيران ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل وإقفال قناة السويس وازدادت

الصادرات الصناعية اللبنانية إلى البلدان العربية ، مما أدّى كل ذلك إلى التفكير باستحداث وزارة تعنى بالشؤون الصناعية ، فكان مرسوم إنشاء وزارة الصناعة والنفط عام ١٩٧٣ ، ثم تحديد وظائفها وتنظيم هيكليتها الإدارية عام ١٩٧٤ والشروع في ممارسة صلاحياتها وسلطاتها المنوطة بها . لكن الحرب اللبنانية كانت على الأبواب وشلّت الاشتباكات الدامية والأحوال الامنية كافة القطاعات في لبنان وعاث الخراب والتدمير والنهب في المؤسسات الصناعية . وسادت الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد ، إلى أن انهارت العملة الوطنية وتدنّت الأجور وانتقلت بعض المؤسسات الصناعية إلى المناطق الآمنة ، وعاد الطلب يشتد على الصادرات الصناعية الوطنية ، وازدهرت الصناعة ، ولكن المشاريع الصناعية الكبيرة في لبنان كانت خجولة بفعل خوف الرأسمال المحلي والأجنبي على التوظيفات الصناعية وتردّده نتيجة الأوضاع الأمنية المقلقة وسرعة عطوبية هذا القطاع نتيجة أعمال القصف والاشتباكات وإقفال المرافىء البحرية والجوية .

لذلك لا يمكننا تقييم أعمال وزارة الصناعة والنفط ، مع العلم أن استحداثها ليس وليد دراسات دقيقة وخطة إنمائية مبرمجة ، وإنما وليد رغبة سياسية اضطرارية وظروف إقليمية طارئة .

ج ـ في العمالة والإسكان والتعاونيات :

بما أن لبنان يعاني تركّز العمالة الملفت في بيروت وضواحيها كما أسلفنا سابقاً وكان يفتقد قبل عام ١٩٦٣ للتشريعات الاجتماعية التي تكفل للفئات العمالية التأمين الاجتماعي وتحديد ساعات العمل ، وكانت الطبقة الميسورة تستنزف قواها وتستعمل صنوف ألوان التعسّف والاستبداد بوجهها وتقطع الأقوات عن أفواهها وأفواه عائلاتها ، قررت الدولة سن تشريع الضمان الاجتماعي عام ١٩٦٣ وهو مؤلف من الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي ومسؤوليته إدارة التأمينات الاجتماعية ومتفرّعاتها . ويعتبر هذا الصندوق مؤسسة عامة ذات شخصية معنوية ويتصرّف باستقلالية مالية وإدارية ، ومركزه الرئيسي العاصمة بيروت .

والضمان الاجتماعي يتألف من أربعة فروع : المرض والأمومة ، طوارىء العمل والأمراض المهنية ، التعويضات العائلية ، تعويض نهاية الخدمة . ويخضع له بصورة إلزامية في المرحلة الثالثة الأشخاص الذين لم يخضعوا بعد لأحكامه في المرحلتين الأولى والثانية اللتين كانت تضمان جميع الأجراء اللبنانيين عمالاً ومستخدمين ، متدرّبين ومتمرّنين ، والعاملين على الأراضي اللبنانية في المؤسسات الزراعية والمدارس الخاصة ومؤسسات التعليم العالي والطلاب ، وقطاعات البحر والمرافىء والمقاولات والبناء والشحن والتفريغ والذين يعملون لحساب الدولة أو البلديات أو أية إدارة أو مؤسسة عامة أو مصلحة مستقلة وسائقو السيارات العمومية والحرفيون والصحافيون ومتقاعدو الدولة وسواهم .

ولكن بالرغم من هذه التقديمات الاجتماعية، فإن كثرة الأخطاء في التشريع الأساسي للضمان وتطبيق النظام الداخلي ومسالك العمل داخل الصندوق كان يثير مخاوف الأجراء والطبقة العاملة

على مستقبلهم . مثلاً مراكز الضمان الفرعية يتم توزيعها على أساس سياسي . إيداع استثمار الاشتراكات في البنوك وتسليفها للمؤسسات بفوائد قليلة دون أن تساعد الأجراء أو تزيد من التقديمات لهم مما جعل الضمان مؤسسة منتفعة تزيد من أرباحها على حساب المضمونين ، عدم إلغاء ضمان نهاية الخدمة وتطبيق ضمان العجز والشيخوخة والبطالة ، والتزوير ، والسرقة ، والفوضى ، والتباطؤ في العمل ، وأخطاء كثيرة أخرى .

وهكذا لم يرتكز هذا القطاع المهم على سياسة إنمائية متطوّرة من النواحي الاقتصادية والتقنية والتشريعية والتنظيمية والتقديمات الاجتماعية وسواها .

وعلى صعيد الإسكان أنشأت الدولة مديرية أو مجلس الإعمار عام ١٩٥٦ وهدفه إيجاد مأوى وسكن للمتضرّرين من الزلازل التي أصابت لبنان عام ١٩٥٥ وكذلك الفيضانات . ثم أصبح اسم هذه المديرية عام ١٩٦٤ المجلس الوطني للإعمار وكان تابعاً لوزارة الأشغال العامة . ثم ألغي عام ١٩٧٣ واستحدثت وزارة الإسكان والتعاونيات بعد فشل مشروع بناء المساكن الشعبية ومستلزماته رغم تدخل الدولة ومشاركتها وكفالتها لهذا المشروع خلال ثلاثة مراحل بسبب انسحاب الشركات الملتزمة وخوفها نتيجة الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧ ، وبسبب الفوضى وعدم الجدية وعدم استجابة معظم الشركات لهذا المشروع لأسباب تتعلق بالأرباح ، وأيضاً بسبب مقاومة مالكي العقارات ومواجهتهم الدولة بسبب انخفاض أسعار أراضيهم .

هذه الوزارة ، برغم الخدمات التي قدّمتها لذوي الدخل المحدود وتقديمها القروض الميسّرة لهم وحصولهم على المساكن والشقق عن طريق مصرف الإسكان وصندوق الإسكان بدعم من الدولة والقطاع الخاص ، فإن الحرب اللبنانية والحوادث الأمنية وانهيار العملة الوطنية وعجز الدولة المالي وخوف القطاع الخاص قد أعاق مشروع بناء المساكن والحصول على الشقق السكنية . وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن الحصول على القروض والتسهيلات كانت تعتمد في أكثرها على الرشوة والمحسوبية والعلاقات الشخصية والتحايل على القوانين والشروط .

أما على صعيد الحركة التعاونية فإن لبنان أعدّ التشريعات التعاونية المطلوبة لأول مرة عام ١٩٦٤ ، وأقام الاتحاد الوطني العام للجمعيات التعاونية عام ١٩٦٨ بهدف توثيق العلاقة بين التعاونيات وتشجيعها . وقامت الدولة اللبنانية عام ١٩٧٠ بإصدار المرسوم المتعلّق بتحديد صلاحيات مصلحة التعاون ، وكذلك اعتمدت الدولة وأقرّت نهائياً إيجاد التسليف التعاوني وتحقيقه وأخيراً تصديق النظام الأساسي للاتحاد الوطني للتسليف التعاوني عام ١٩٧٢ .

والجدير ذكره هنا ، أن التشريعات والأنظمة التعاونية قد منحت التعاونيات بعض الإعفاءات من ضرائب ورسوم ، وبعض الحقوق والامتيازات ، وحماية التسميات التعاونية ، والكثير من التسهيلات والرعاية والتشجيع ، وتسهيلات في إجراءات التأسيس وسلفات ومساعدات مالية وفنية . . . إلخ . كما أن الموافقة على تأسيس التعاونية والتشريعات والأنظمة الآنفة الذكر بالإضافة

إلى الإدارات المعنية بالنظام التعاوني أصبحت مرتبطة بتنظيم هيكلي إداري تحت وصاية وإشراف وزارة الإسكان والتعاونيات ابتداءً من العام ١٩٧٣ .

لكن الحرب اللبنانية ومآسيها أصابت الحركة التعاونية ومؤسّساتها وأوقعت خسائر كبيرة فيها من تدمير وتوقّف العديد منها عن العمل وإصابة بعضها بأضرار جسيمة أوقعت الخلل في نموّها وتطوّرها . وبالرغم من هذه المصاعب ، فإن المؤسسات التعاونية استطاعت الصمود وخاصة التعاونيات الاستهلاكية بتأمينها المواد الضرورية والاستهلاكية والأدوية بأسعار معقولة ، مما خفّف من حدة الغلاء إلى حدّ ما وحدّ من الاحتكار والتلاعب بالأسعار .

د ـ في التعليم والصحة والهجرة :

بالنسبة إلى هذه المواضيع الاجتماعية ، فإن سيطرة القطاع الخاص على التعليم هو وسيلة هدفها زيادة الانقسام الاجتماعي ، وذلك على حساب التعليم الرسمي وما الخلاف الذي حصل في بداية السبعينات بين المطالبين بتمتين التعليم اليسوعي وتطويره والبعض الذي يدعو إلى اتباع الأساليب والطرائق والمناهج التعليمية الانكلوسكسونية ، والبعض الآخر يطالب بمناهج تربوية وطنية ، سوى صورة واضحة عن هذا المجتمع الفسيفسائي غير المنصهر وطنياً . وخصوصاً أن الدولة لم تقم بواجباتها لتعزيز التعليم الرسمي وتوحيد المناهج التربوية وتعزيز التعليم التطبيقي والتقني وتوفير سوق العمالة ومنع هجرة الأدمغة والأيدي الماهرة . بل على العكس ساهمت في الانقسام الاجتماعي وشجّعت التعليم الخاص وأذكت الانعزال الطائفي وأعطت نسبة متواضعة جداً من ميزانيتها العامة لإنماء هذا القطاع وتطويره .

وبالنسبة للناحية الصحية فلم تعالج الدولة موضوع الصحة معالجة ترتكز على سياسة صحية رشيدة تنطلق من خلال إحصاء صحي شامل وإيلاء القضايا الوقائية والعلاجية أهمية خاصة . ولم تعتمد على تربية صحية وتوزيع مدروس وعادل لحاجات المناطق من التجهيزات الصحية والمستشفيات والمستوصفات والصيدليات .

أما الهجرة فكانت بفعل هيمنة قطاع الخدمات والاستتباع للبلدان الأجنبية المتقدمة وازدياد حالة البطالة وعدم حاجة السوق المحلية للكفاءات والمهارات والأدمغة ، وكذلك بفعل اضطراب الأحوال الأمنية والهرب من أتون الحرب وانهيار النقد الوطني . ولكن اللافت هنا أنه عام ١٩٧٢ م أي قبل الحرب كانت البطالة تشكل ٨,١٪ من عدد العاملين في لبنان ، وهذه نسبة تثير القلق والاهتمام . وتجدر الإشارة في هذا الموضوع إلى أن غياب السياسة الإنمائية للدولة التي تطال كافة المرافق والقطاعات ، وحالة الفقر ، وجاذبية البلدان الأجنبية وإغراءاتها وحاجة السوق الإقليمية العربية إلى العمالة كان وراء هجرة الأيدي العاملة والكفاءات اللبنانية بكثافة إلى الخارج .

ثانياً ـ مجلس الإنماء والإعمار

بتاريخ ٣١ كانون الثاني عام ١٩٧٧ صدر عن رئيس الجمهورية اللبنانية مرسوم اشتراعي ينص على إنشاء مجلس الإنماء والإعمار ، وهو مؤسسة عامة تتمتع بالشخصية المعنوية والاستقلال الإداري والمالي ، وتخضع لأحكام هذا المرسوم ، وترتبط مباشرة بمجلس الوزراء . وهذا المجلس يقوم بالمهمات التخطيطية وبإعداد الخطط المتعاقبة والموازنة الخاصة بكل منها ، وباقتراح مشاريع القوانين ذات الطابع الإعماري والإنمائي على مجلس الوزراء . ويقوم كذلك بالمهمات الاستشارية والتوجيهية في العلاقات الاقتصادية والمالية مع سائر الدول والهيئات والمؤسسات والمنظمات الدولية والأجنبية . ودوره أيضاً إعداد الدراسات وتوفير المعلومات وتقديم الاقتراحات في كل المجالات المرتبطة بعملية التنمية لكل من القطاعين العام أو الخاص . كما أن هذا المجلس يحق له عقد القروض الداخلية والخارجية وحق المساهمة في أية مؤسسة مهما كانت أو التنازل عن هذه المساهمة ، ويقوم أيضاً بمهمات الرقابة على المشاريع الواردة في الخطط المتعاقبة أو سواها من المشاريع إذا كلّفه مجلس الوزراء تمويلها أو مراقبة تنفيذها .

وقد ألغيت ، بموجب هذا المرسوم ، وزارة التصميم العام وعهد إلى مجلس إدارة المؤسسة الجديدة المعيّن بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء وهو مؤلف من أعضاء متفرّغين وغير متفرّغين القيام بالمهمات التخطيطية والاستشارية والتوجيهية والتنفيذية والمالية والرقابة التي ذكرناها سابقاً .

وهكذا كان لغياب السياسة الإنمائية الحقيقية في لبنان منذ الاستقلال وللدمار البليغ الذي أصاب القطاعين العام والخاص على الصعيد المالي والاقتصادي والاجتماعي خلال حرب السنتين السبب الرئيسي في إنشاء هذا الجهاز المركزي للإنماء والإعمار على كافة المستويات والقيام بهذه المهمة الإعمارية الاستثنائية ، مع قيام هيئة استشارية تقدّم الرأي والمشورة والاقتراحات إلى هذا الجهاز .

وبالرغم من المهمات الملقاة على مجلس الإنماء والإعمار وسعيه إلى الإنماء الطويل الأجل وإشاعة جو الأمان والاستقرار وتعبئة الموارد المالية في الداخل والخارج والاهتمام بتأهيل وتطوير المرافق العامة وتحريك الإدارات وتأمين القروض الميسّرة للقطاع الخاص والقيام بالمشاريع الإسكانية وسواها ، فإن العقبات والعثرات كانت تواجهه باستمرار نتيجة تردّي الأوضاع الأمنية وعدم توفير الأموال اللازمة وانقطاع المساعدات العربية والخلافات السياسية .

وقد قام مجلس الإنماء والإعمار بتنفيذ قسم بسيط من مشاريعه : تأهيل مرفأ بيروت وإعادة تأهيل أحواضه ، إعادة تأهيل بعض المدارس العامة والمستشفيات ، انتهاء عمليات التأهيل الأولى لمطار بيروت ، إعادة تأهيل وتطوير معمل الجية الحراري ومعمل الذوق . وقد تمَّ تنفيذها بتمويل وقروض من مصارف وصناديق التنمية العربية والمعونات الخارجية الفرنسية وقروض من مجموعة السوق الأوروبية المشتركة ومن البنك الدولي .

وبالإضافة إلى ذلك لقد قام مجلس الإنماء والإعمار بإعداد خطة وطنية فريدة من نوعها في

العالم لتصريف المجارير والنفايات ومياه الأمطار ، ووضع برنامجاً إعمارياً لإعادة تأهيل شبكة الطرق على مراحل وبرنامجاً تنفيذياً لمشروع مكننة العمليات الجمركية . وقام كذلك بتقديم القروض الميسّرة والهبات إلى المؤسسات الصغيرة ومشاريع الوحدات السكنية البسيطة ، وساعد على تأمين المنح والهبات الخارجية للتخصص في المجالات التقنية والمهنية، وبعض المشاريع الأخرى بمفرده أو بالتعاون مع المنظمات الدولية كمشروع اليونيسيف في الجنوب من ناحية الخدمات الصحية والتجهيزات الصحية وتصليح وتوسيع المدارس والتجهيزات التربوية وأحياناً تأمين المياه والكهرباء ومساعدات أخرى .

أما المعيقات التي كانت تواجه مجلس الإنماء والإعمار فهي عديدة : منها ربطه مباشرة بمجلس الوزراء وحالة المقاطعة والخلافات السياسية التي كانت تسود الوزراء وبطء العمل واستبدال المراسيم الاشتراعية المتعلقة بنظامه القانوني ، تحويله إلى مؤسسة خيرية مهمته في كثير من الأحيان تقديم المساعدات والقروض وليس القيام بالمشاريع الإنشائية والإنمائية المتكاملة ، عدم الاعتماد بشكل ملفت وأساسي على قطاعي الزراعة والصناعة باعتبارهما القطاعين الإنتاجيين الرئيسيين بدل الاعتماد على القطاعات المتفرّعة عنهما ، عدم الاستقرار والحوادث الأمنية ، الرقابة الضعيفة وغير الكفوءة على سير الأعمال التنفيذية ، التدخلات السياسية على كافة الأصعدة ، عدم جدية الدولة ، الطائفية ، المحسوبية ، عجز الدولة المالي وانهيار قيمة النقد الوطني ، المساعدات والقروض المشروطة ، وبعض الأسباب الأخرى .

وفيما يلي سنعرض وجهاً من وجوه السياسة الإنمائية في لبنان ونزيل القناع عن الشعارات والأولويات والمشاريع التخطيطية ونلقي الضوء بشكل مخجل على الواقع الطائفي والتفاوت المناطقي والتدخلات السياسية في أعمال هذا المجلس . فالمعلومات التي سنوردها مستقاة من مجلس الإنماء والإعمار ومن الملفات الأساسية ، وهي عبارة عن لائحة تعطي نسبة التوزيع التي أعطاها هذا المجلس على المناطق من أجل كلفة الأعمال التي أنجزت في الطرقات التي هي قيد التأهيل ، بما فيها جميع المشاريع التي لزّمت بعد تاريخ ٦ حزيران ١٩٨٤ .

اسم المنطقة	نسبة التوزيع
بعبدا والمناطق الشرقية	٪٣٥,٥
جزين والشريط الحدودي	٪٣,١٩
عاليه والشوف	٪٣١,٦
الجنوب	٪٨,٦١
البقاع	٪٢,٨٦
الشمال	٪١٣,٨٩
بيروت والضاحية	٪٤,٣٥

خـاتمة

والآن بعد استعراض السياسة الإنمائية في لبنان منذ الاستقلال وحتى أيامنا الحاضرة ، يتبيّن لنـا أن الاعتباطيـة والارتجال والتـدخلات السيـاسية الـطائفية والمنـاطقية والمحسـوبية والمصـالح الشخصية كانت سمة هذه الحقبة التي بلغت حوالي نصف قرن . وبما أن عملية التنمية تعتمد على دراسات إحصائية عميقة ودقيقة تطال مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعيـة ، وتنطلق من إرادة سياسية واعية جدية وهادفة ، وبما أن الخطط التنمويـة المتعاقبـة كانت استجـابة لتـطوّرات إقليمية طارئة وعوامل محلّيـة ملحّة وانصيـاعاً لسيـاسة البـاب المفتوح التي أولاهـا النظام اللبنـاني كامـل اهتمامه ، وبما أن لبنان بلد صغير في سكانه ومساحته وينتمي إلى العالم الثالث ويعيش بازدياد حالة الارتهان والتبعية في شأنيه الاقتصادي والسياسي دونما انتماء ولا مواجهة ، فإن الجهود الإنمائية فيه كانت في معظمها مبتذلة ومستعارة ولم تكن وليدة أهداف وطنية ودراسات وإحصاءات شاملة ، مع العلم أن آخر إحصاء شامل في لبنان يعود إلى عام ١٩٣٢ .

والواقع الراهن وما يكتنفه من عجز مالي هائل وتدهور متزايد في قيمة النقـد الوطني وتـدمير للبنية التحتية والمؤسسات الاقتصادية وفوضى وعثرات وسوء إدارة في المرافق العامة وتلبّد وضبابية وتنكيد في المجالين السياسي والأمني ، بالإضافة إلى حرب الخليج وما تستتبعه عاصفة الصحـراء من تحالفات ورسوم جغرافية وتشكيل النـظام العالمي الجـديد ، فـإن السياسـة الإنمائيـة في لبنان ستكون هشّة واستقوائية وترقيعية وغير تكاملية وقصيرة النظر . وما دام لبنان قطب الرحى للصراعات المحلية والإقليمية والدولية ، فإن الحالة التنموية تمر من خـلال جراحـة وفاقيـة وتوفيقيـة بين هذه القـوى ، وهنا المستحيـل ، حيث يتواجـه الإنماء الحقيقي مـع الوفـاق المثلّث الأضلاع وفـواتيره وإسقاطاته على كافة المشاريع الإنمائية ، فتتلاشى الدراسات والإحصائيات والأولويات والمعالجة الشاملة أمام التبعية والإرتهان والمصالح الخارجية والفئوية والنتعات الإنمائية الخجولة .

إذاً ، السؤال المطروح ، ما الحل وما المخرج للقيام بسياسة إنمائية صحيحة في لبنان ؟ بكل بساطة ، هو الإنتماء الحقيقي للوطن مع مفاعيل هذا الانتماء ، والعمل بأعلى درجات المسؤولية مع القضايا الإنمائية وتحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي وتدعيم العـلاقات مـع الخارج والجـوار الـواحد على أسـاس الاحترام المتبـادل والسيادة ، وتشجيـع التـوظيفـات والاستثمـارات المحليـة والخـارجية ، والحصـول على المساعـدات والهبات والقـروض الخارجيـة دون مقابـل ، والنـظرة

الإنمائية الشاملة والطويلة الأجل ، وكفاءة وقوة الكوادر الإدارية . وخلاصة القول ، تحقيق استقرار الإنسان ورفاهيته وسعادته . . . إلخ .

لعلّها نظرات تخترق جدران الواقعية في هذه الأيام المثقلة بالهموم والمآسي ، غير أن موضوع الإنماء والإنسان سيبقى في مركز الصدارة والاهتمام والصراع لا يكلّ حول إيجاد صيغة عادلة في العلاقات الدولية من أجل تحرّر بلدان العالم النامي وتحقيق أمنيات شعوبه وتخفيف المعاناة .

المراجع

باللغة العربية :

ـ عبد الله أبو عيّاش ، « التخطيط والتنمية في المنظور الجغرافي » دار القلم ، ١٩٨٣ ، بيروت .

ـ فرنان سنان ، « واقع الاقتصاد اللبناني وتطوّره » دار العمل للنشر ، ١٩٨٠ ، بيروت .

ـ بعثة إيرفد « حاجات وإمكانيات التنمية في لبنان » وزارة التصميم العام ، ١٩٦١ ، بيروت .

ـ ملحق جريدة النهار الاقتصادي والمالي ، ١٦ أيار ، ١٩٧١ ، بيروت .

ـ سليم الحص ، « المشاركة العربية والدولية في إنماء لبنان بعد الحرب » دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ ، بيروت .

ـ وزارة التصميم العام ، الخطة السداسية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧ » ، ١٩٧٢ ، بيروت .

ـ مجلس الإنماء والإعمار ، مراسيم ومستندات وملفات أساسية .

باللغة الأجنبية :

— ALBERTINI J. M., Les mécanismes du sous-développement» éditions ouvrières, Paris, 1967.

— MAROUN Ibrahim, «Les structures socio-économiques du Liban et le processus du développement», thèse, 1977, Paris.

— CHAMI Joseph, «Pour une politique du développement agricole au Liban», thèse, Paris, 1971.

— AOUAD Michel, «Etude socio-économique des problèmes du monde rural et la politique agricole du Liban», thèse, Paris, 1973.

حول تقنية الشرائط المرسومة

- رجاء محمود مكي -

عرف العصر الحالي تطوراً مهماً في وسائل التثقيف العلمي والتربوي الموجه للجماعات ، كان وليد الحضارة الحديثة والتقنية المتقدمة في مجالات العلوم .

من هذه الوسائل : المجلات - الجرائد - التلفزيون - الراديو - الرسوم المتحركة . وتأتي الشرائط المرسومة - التي تسمى بالفرنسية Les bandes dessinées - في مقدمة هذه الوسائل ، كتقنية مهمة من الوسائل التربوية الحديثة التي تلعب دوراً مهماً في عملية الاتصال الجماعي (خاصة وأن تقنية الشرائط المرسومة هي إحدى وسائل الاتصال الجماعية Média إضافة إلى التلفزيون والسينما والفيديو والتصوير الفوتوغرافي وغيرها) ، فهي إضافة إلى أنها تجمع ما بين الرسم والكتابة ، والتي يمكن أن تكون في متناول العديد من القراء كباراً وصغاراً ، تنقل الكثير من القيم الاجتماعية وتعمل على نشرها بصورة سريعة : هي وسيلة فعالة في التأثير على الجمهور واكتساب العادات الجديدة .

وقد أخذت تقنية « الشرلئط المرسومة » أشكالاً متعددة منذ نشأتها حتى الآن إلى أن أصبحت اليوم مميزة عالمياً من حيث شكلها ومضمونها . وتعتبر هذه التقنية غريبة النشأة والتطور والتأثير وقد انتقل تأثيرها كوسيلة اتصال جماهيرية - كباقي وسائل الاتصال - إلينا في الشرق بشكل جلي وواضح . فالتطور الغربي لتقنية الشرائط المرسومة يظهر بوضوح في صور ونصوص ومواضيع الشرائط المرسومة العربية واللبنانية ، إذ غالباً ما نجد في الأسواق مجلات وكتب تعتمد على « الشرائط المرسومة » كتقنية ويغلب عليها الطابع الأجنبي .

لذا - وقبل الحديث عن الوظائف الاجتماعية والتربوية للشرائط المرسومة - لا بدّ لنا من العودة إلى الوراء وإلقاء الضوء على « تاريخية » هذه التقنية ، ثم نحدد فيما بعد عناصرها وبعضاً من نماذجها .

I - حول تاريخية تقنية الشرائط المرسومة Les bandes dessinées

لم تظهر تقنية الشرائط المرسومة أول ما ظهرت كما نراها حالياً ، بل تطورت واتخذت أشكالاً عدة حتى استقرت على الشكل الذي هي عليه في القرن العشرين ، ذلك أن جديدها ليس سوى استمرار وتطوير لقديمها :

تعود نشأة « الشرائط المرسومة » إلى العصور القديمة وبالتحديد إلى القرن الثامن عشر ، لكن عناصر هذا الفن الروائي لم تكن قد ظهرت حينذاك كما هي عليه الآن .

وبدأت أول ما بدأت مع « وليام هوغارث William Hogarth » الذي كان أول من استعمل الدائرة المخصصة لكلام الأشخاص والتي تسمى بـ Ballan أو Bulle تلك الغيمة البيضاء المرسومة التي تخرج من شفاه الأبطال فتشكل حيزاً مخصصاً لكلامهم . لكن جهود « هوغارت » وجهود غيره ظلت مقطعة وغير منتظمة حتى القرن التاسع عشر (الذي عرف بقرن الكتب المرسومة Siècle des livres illustrés) حيث عرفت القصص المرسومة أول ظهورها الحقيقي . ذلك الظهور الذي كان قد بدأ مع صور « ابينال Epinal » في فرنسا و « بيلاربوغن Bilderbogen » في ألمانيا ، وظهر بعدها « المجمع المصور Album illustré » الذي لمع به السويسري « تويفر Topffer » ، والألماني « بوش Bush » والفرنسي « Christophe »[1] .

إلا أن أميركا تقدمت كثيراً في هذا المجال وقفز رساموها قفزة جريئة ساعدت على ولادة الشرائط المرسومة سنة ١٨٩٧ .

وقد كانت الشعوب القديمة تستعمل بشكل أو بآخر هذه التقنية « كانت الشعوب القديمة ـ التي لا تملك الأبجدية Les peuples sans alphabet ولا تعرف الكتابة ـ ترسم رموزاً لمختلف مراحل تاريخها ، وكان منطق قراءة هذه الرموز منظماً . كما تركت اليونان القديمة ـ إضافة إلى رسومها ورموزها على المعابد والتماثيل ـ الكثير من الرسوم والخطوط الهندسية على « مزهرياتها » و « جوانيها » ، ومتاحف العالم حيث توجد هذه الأواني أكبر دليل على ما تركه شعب اليونان القديم من رسوم .

كما كان المصريون يرسمون بعض الشرائط الملونة في مقابرهم شأنهم شأن البيزنطيين وشعوب العصور الوسطى المسيحية :

تعتبر الديانة المسيحية من الأديان التي اهتمت بالصورة وبالكلمة فكانت كل الكنائس القديمة مليئة بالرسوم الحية المعبرة ، المنسجمة مع نصها ، والمتواجدة في مكان واحد خاص بها ومقسم تبعاً للمواضيع المرسومة .

إلا أن هذه الصور تبقى غير مفهومة إذا ما لم تشرح وتوضع ضمن سياقها الكلامي الخاص بها ، لذا تواجد الرهبان في الكنائس وأصبحوا المنظمين الرسميين لها .

وتلعب هذه الصور أو الرسوم دوراً مهماً في عملية التأمل ، وتنشيط المخيلة والكاتدرائيات الغربية والفن الغوطي يعكسان التوازن ما بين الروحي والجسدي .

---

(١) . A. Ronx: la bande dessinée peut-étre éducative - l'école

ووضع « ريموند لول Raymand lulle » (١٢٣١ ـ ١٣١٥) كتاباً خاصاً للأمراء يستشف من خلاله تجسيد للكلام من خلال الصور الموضوعة داخله .

وقد ساهمت الخرافات والقصص وأغاني الأطفال على أحياء المخيلة الشعبية القديمة Imagerie .

بذلك ، كان التاريخ وتوابعه والأغنية[1] ومقاطعها من العوامل المهمة التي ساعدت على ولادة الشرائط المرسومة . كذلك لعب تعدد الصور في الكتاب الواحد دوره وقاد إلى ولادة حقيقية للتاريخ بالصور والرسوم .

وتعدد الصور هذا كان متأثراً بتطور وسائل الإنتاج وبعامل تقدم الصناعة المطبعية . إلى أن جاء « تويفر Rodolphe Topffer » قائد تقنية الشرائط المرسومة الحديثة ، فاستفاد كثيراً من أبيه الرسام بعد أن تلقى على يديه دروس الرسم الأولى ، ورافقه باستمرار ليكتسب منه المزيد ورسم أول مجمع مصور سنة ١٨٢٧ .

واعتبر القرن التاسع عشر مهد ظهور الطباعة والكاريكاتور مما ساعد على انتشار مؤلفات Topffer وغيره . وتطورت الطباعة أكثر ما تطورت في باريس .

بدأ « فيليين Philippan » سنة ١٨٣٠ وأنشأ مجلة Le charévari التي كانت تطبع كل يوم رسماً جديداً مما ساعد على إظهار دور الكاريكاتور في تطوير فن الشرائط المرسومة .

في سنة ١٨٣٣ أثبتت الأغنية الشعبية « البربونية » لـ « Celestin Nautemil » (La jolie fille de la garde) كيف أن القصة ـ المغناة يمكن أن ترسم في إطار شرائط مرسومة جميلة يغلب عليها طابع الذوق الرومانطيقي الوسيط Ramantico - médiéval . في سنة ١٨٥٥ أصبحت المشاهد والمناظر المختلفة والأغاني القصصية تباع مما ساعد على نشوء القصة المصورة Photo - raman .

كما بدأ جمع قصص الخرافات والأدب العامي وأول من بدأ بهذا النوع من الجمع « Charles perrault » وقدم إلى مكتبة الأطفال نوعاً جديداً من الكتب . أما بالنسبة للغيوم البيضاء التي سبق الحديث عنها والمعروفة بـ Bulle فقد بدأت تستعمل ما بين سنة ١٨٤٠ و ١٨٩٠ كمؤشر بديل للمزدوجين ، من أوائل من استعملها الرسام الفرنسي « Saint - ogain » .

إلا أن الطابع الخاص لهذه الشرائط القديمة ظل مسيطراً إلى أن تأثرت الشرائط المرسومة بظروف محيطة أثرت على تطورها والتجديد فيها :

ـ بتأثير وتطور وسائل الاتصال الجماهيري Mass - média أنشأ « Emile Raymand » سنة ١٨٧٨ ما سماه بالرسوم المتحركة .

---

(١) ظهرت الأغنية قديماً على شكل شرائط مرسومة .

- في أميركا بدأت الشرائط المرسومة تأخذ مكانها في حيز الطباعة الأميركية سنة ١٨٩٦ بفضل « Yellau Kid » .

- كما كانت التغيرات المطبعية عاملاً مهماً في تطوير قاعدة القصة المرسومة باتجاه الشرائط المرسومة ، منها ما حققته الجرائد في الولايات المتحدة من نجاح شعبي :

بدأت أسبوعية وأصبحت يومية ، وما حققته القصص المتسلسلة في فرنسا - Raman feuilleton المتميزة بدوريتها (بحلقاتها المنتظمة) من نجاح شعبي ، أوجدت القصة الشعبية من خلاله مرتكزاتها وقواعدها .

- في سنة ١٩١٠ ساهمت القصة السينمائية Le roman - cinéma في إظهار مفهوم جديد وجريء للقصة الشعبية، وذلك باتحاد النص والصورة وأصبحت العلاقة جدلية ما بين السينما والشرائط المرسومة ، كلاهما يقدم الفائدة والمنفعة للآخر .

- في هذا الوقت كانت النقابات المختصة تطالب بمزيد من الحقوق المكتسبة للرسامين وللكتّاب وتدعو إلى التعاون فيما بينهم .

- في سنة ١٩٤٦ كان ظهور التلفزيون الذي أثر على الشرائط المرسومة محرراً لها من بعض القيود في نصوصها ، وحداً إلى تغيير في عمق المطبوعات مما ساعد على أن تتجه باتجاه أكثر عقلانية وصفاء .

- ظهرت في سنة ١٩٥٣ الشرائط المرسومة (Juliette de mon coeur مثلاً) . ومع « Feiffer » النص أهمية أكثر مما كان عليه سابقاً وتخلصت الشرائط المرسومة من ضعف اللغة اليومية وبدأت تظهر العقدة المأساوية في الرسم الأخير دافعة بذلك إلى قراءة أكثر جدية وتكاملاً .

- وبدأت تظهر الإثارة والشبقية في بعض الصور أو الرسومات بتأثير مباشر من التلفزيون ونذكر على سبيل المثال الشريط المرسوم « Barbarella » الذي أحدث ضجة كبرى في الغرب وترجم إلى لغات مختلفة وظهر في الستينيات وهو شريط مرسوم لمغامرات بما يسمى Super - femme أو المرأة الخارقة في مضمون علمي érotique وقد أبرز مفاتن جسد Barbarella .

في هذا الوقت ، ومع ظهور شرائط مرسومة ، ما زالت حتى الآن (طرزان - ران تان تان . . .) ، كان الأميركيون يعملون في هذا المجال محققين تطوراً مستمراً ولتحسين هذه التقنية ، وأخذ الإنكليز الكثير عنهم ، كذلك الإيطاليون »[1] .

* إذا أوجزنا ، نجد أن تقنية الشرائط المرسومة ، مرت بمراحل خمسة - عبر تطورها التاريخي - .

---

(1) Gérard Blanchard: Histoire de la bande dessinée - Marabut univessité .

أولاً ـ مرحلة الرسومات والخطوط والبيانات : التي اعتمدت الرموز ولوحظ استعمالها لدى الشعوب القديمة .

ثانياً ـ مرحلة الأثر الديني المسيحي : الذي ساهم في بلورة فن الشرائط المرسومة : حاول نشر مبادئه ، وعمل على تكريسها من خلال الصور التي رسمت على جدران الكنائس وقد شكلت فناً قائماً بذاته .

ثالثاً ـ مرحلة تطور الطباعة : مما ساعد على انتشار الرسم والصورة ، وقد تعزّز تطور الطباعة مع المظاهر الصناعية الجديدة (مما ساعد على تحسين الطباعة من الناحية التقنية خصوصاً ، كما سمح بنشر إنتاج الرسامين على نطاق واسع) .

رابعاً ـ مرحلة بروز السينما : والدور الذي لعبته منذ سنة ١٩١٤ وما أحدثته من ثورة في من التصوير . وتأثير السينما يكمن في تغيير إنشائية الشرائط المرسومة التي تبنت وجهات نظر الكاميرا وعملت على درس نصوصها قبل أن تقدم مطبوعة .

خامساً ـ مرحلة التلفزيون : الذي ركز على القصة المتسلسلة . وقد أخذت الشرائط المرسومة هذه الخاصة وطورتها ووظفتها تبعاً لمستلزماتها .

* هذا وقد ظهرت أولى الشرائط المرسومة يوم « الأحد في ١٦ شباط ١٨٩٦ حيث ظهر في « World » في نيويورك الشريط المرسوم المسمى بـ a yellowkid كتمهيد لانطلاقة الشرائط المرسومة الحقيقية سنة ١٨٩٧ (١٢ ك ١٨٩٧) حيث قدمت الـ « Neurork Americain » لقرائها وضمن الملحق الخاص بالرسم ، لوحة زاهية الألوان يظهر فيها « قوس قزح » شبيهاً بأنبوب من القصدير .

II ـ فن التصوير الروائي في الشرائط المرسومة .

تتميز الشرائط المرسومة بعناصر تكونها ، لكل منها أهميتها الخاصة : النص والعبارة ـ الصورة أو الرسم ـ الحيز المخصص لكلام الأشخاص إلخ . . .

ـ **فالنص** في الشرائط المرسومة يحلل ويصف الفعل L'action ، له أهمية خاصة وشغلت المساحات الخالية من الصور من خلال هذا الاستعمال الذي يجب أن يطابق الرسم ويعبر عنه .

ـ **العبارة** في الشرائط المرسومة غالباً ما تكون سهلة ، بسيطة ، منسجمة مع النص ، معبرة عنه وعن الصورة بدون تعقيد ، وتقترب من اللغة المحلية أكثر من اللغة الأدبية .

وتخرج العبارات بشكلين ـ في إطار النصوص ـ أما لتحدد الظروف العامة المحيطة بالقصة وبالأشخاص mise en situation، والغاية منها وضع القارىء بأجواء القصة أو لشرح ما لا يخرج من

كلام من الأبطال[1] ؛ وأما تخرج من فم الأبطال ويصدر الكلام عنهم ، وهذا ما يسمى Bulles أو فقاقيع (محددة بمساحة دائرية على شكل غيمة مخصصة لكلام أبطال القصة أو الشريط ومربوطة بخط يصل إلى أفواههم .

وتضم هذه الفقاقيع كل ما ينتج عن الأشخاص من ذكريات معلنة أم غير معلنة ، من أحلام ، من تفكير أو تأمل ، من تعجب واستفهام . . . وعندما يرمز إليها بشكل « لمبة كهربائية مضاءة » ، فذلك يعني الظهور المفاجىء لفكرة مهمة بعد فترة من التعقيد . ويمكن أن يذهب هذا الرمز إلى ما لا نهاية حتى يقدم مشاهد كاملة لقصة معينة ، تعبّر ـ أي الرموز ـ بشكل أساسي عن القصة ويمكن أن تقدم ما لا يقدمه النص . وبدونها يقترب الشريط المرسوم إلى ما كان عليه قديماً (قصة مرسومة تحتها نص معين دون علاقة عضوية بينهما) .

ـ ولا تقل أهمية **الصورة** أو **الرسم** عن الرموز الملحقة بها ويأتي النص وسيلة ثانوية للتعبير فقط خاصة وأن للصورة تأثير نفسي على القارىء (سواء كان كبيراً أم صغيراً) ، ونجد شرائطاً مرسومة تعتمد فقط على الرسم فيعبّر عن المواقف بواسطته، من خلال إيحاءات الصورة وقدرتها على نقل المواقف، وتشكل الصورة العنصر الأساسي والمهم في « معجم » الشرائط المرسومة .

ـ **للون** دور إيجابي في نقل الصورة بكامل تفاصيلها وتأثيرها على القارىء وجذبها أكثر عدد ممكن من الجمهور . ومما يساعد على ذلك تطور دمج الألوان . وقد برع الرسام « Léonard Starr » باللعب بالقيم التلوينية وإبرازها واختزالها حين الضرورة .

فاللون يخلق جواً محدداً يظهر في مظاهر مختلفة ويمكن أن يتطابق مع الحقيقة ويساهم في خلق أجواء نفسية محددة .

ـ إضافة إلى العناصر السابقة ، نجد أن عنصر : **الفكاهة والتسلية** هما بنفس أهمية العناصر الأخرى ، خاصة وأن تقنية الشرائط هذه ، تعتبر تقنية تسلية وترفيه بالدرجة الأولى ؛ من هذا المنظار يمكن معالجة المواضيع المختلفة وعرضها دون سيطرة طابع الحزن عليها .

* بذلك تصبح تقنية الشرائط المرسومة Les bandes dessinées ، تقنية فريدة ومميزة، تعمل على **تشجيع خيال القارىء** وتنمية قدراته باعتمادها الرسم المعبر ، كما تعمد إلى **تسليته** من خلال الطابع الفكاهي المسيطر في أغلب الأحيان ، وإلى **تشويقه** باعتمادها القطع والحلقات المتسلسلة مما يجعل القارىء يعيش في قلق بانتظار ما سيحدث مع أبطال قصته المرسومة .

III ـ تعريف الشرائط المرسومة ووظيفتها الاجتماعية والتربوية .

بعد هذا العرض ، يمكننا أن نعرف تقنية « الشرائط المرسومة » (Les bandes dessinées)

(١) عند تردد هذا الشكل ، يبتعد الشريط المرسوم عن كونه مرسوماً ويقترب من القصة المكتوبة .

كونها إحدى وسائل الاتصال الجماهيري البصرية التي تعتمد على الرسم والكلمة بهدف إيصال فكرة معينة إلى الجمهور .

وكونها إحدى وسائل التعبير فهي تتميز عن :

القصة المصورة Photo - raman وعن الصور المتحركة Dessin animé .

فهي ذات حركية مختلفة عنهما تبرز في **الرسم** أكثر مما تبرز في عناصر أخرى (الكلام أو الحركة . . .) .

ـ « الشرائط المرسومة » هي عبارة عن عمل مرسوم ومطبوع ، تشكل جزءاً من قوى الاتصال الجماهيري المسماة Mass - média في طراز حديث .

ـ وهي قصة مسلية أساساً تتكون شكلاً من سلسلة من الصور المتلاحقة .

ـ هي قصة إيقاعية موزونة Récit rythmé تخضع لقطع يومي أو أسبوعي أو شهري يمهد لحصول مفاجآت : من هنا اختلافها عن القصة الكاملة .

ـ الشرائط المرسومة قصص محكية برسوم ، تحوي نصاً في صورها مميز بفقاقيعه أو غيومه البيضاء Les bulles »[1] .

ـ يدخل النص في الشرائط المرسومة ، في علاقة عضوية مع الرسم حيث تترجم بشكل اقتصادي ـ عبر الغيوم ـ العبارات التي يجب أن تكتب ، وتساهم الغيوم ، بدورها الوظائفي هنا على مشاركة القارىء فيعيش انفعالات البطل أو أشخاص القصة .

ـ تعتمد الشرائط المرسومة أكثر ما تعتمد على اللغة المحكية أكثر من اللغة المكتوبة[2] .

ـ تعتمد على الرسوم التي تحمل تعبيرها الخاص بها »[3] .

ـ أما مواضيعها فغالباً ما تستمد من الأوضاع المحيطة بها ومن الحياة الاجتماعية السائدة بكل جوابها : نجد مثلاً ، قصص الخوارق العلمي التي بدأت بالانتشار بعد تقدم العلم والتكنولوجيا ؛ وقصص المغامرات الجنسية بدأت مع موجة التحرر والانفلات الذي عاشته أوروبا وأميركا في القرن العشرين . كما يمكن للشريط المرسوم أن ينقل أي جانب من جوانب الحياة الاجتماعية التي تتكرر يومياً (علاقات الصداقة أو الحياة العائلية أو الدين) . وهناك المواضيع التاريخية ، في هذه المواضيع يعمل الرسامون على درس الحقبة التاريخية التي يريدون رسمها كي يصوروها بمصداقية وأمانة مما يعطي هذا النوع من المواضيع في الشرائط المرسومة صفة خاصة ، مميزة ومهمة .

---

(١) A. Roux: la bande dessinée peut-être éducatif? l'école. P. 8 et 9 .

(٢) مما كان مصدر نقاشات وانتقادات من قبل الكثير من التربويين .

(٣) A. Roux . المصدر نفسه .

فالشرائط المرسومة إذاً ، تعبير قصصي محكي بالرسوم ، ذات طابع ترفيهي متميز بالعلاقة العضوية ما بين الرسم والكلمة ، تعالج المواضيع الاجتماعية ، وتشكل إحدى أهم وسائل الاتصال الجماهيري للقرن العشرين .

أما من حيث أهميتها **التربوية** ، فتشكل الشرائط المرسومة إحدى وسائل الاتصال الجماهيري التربوية التي تنقل المواضيع وتقدمها من خلال الرسم والكلمة إلى القارىء وتوجه قسماً كبيراً منها إلى الصغار .

وقد وقف التربويون إزاء هذه التقنية مواقفاً متباينة : منهم من يشجعها ومنهم من ينتقدها . وقد توجهت الاتهامات من قبل المنتقدين لها وتمركزت حول :

ـ ما تقدمه الشرائط المرسومة من أخطاء لغوية تظهر في بساطة النص وتتجمع في الحيز المخصص بكلام الأبطال (Bulle) ، حيث لا يتدخل الكاتب وتختبىء الأخطاء اللغوية في القواعد وفي خطأ استعمال العبارات .

هذا ما لا يؤدي إلى أي هدف أو فائدة للطفل القارىء (يمكن أن ينس الطفل ما تعلمه في المدرسة) .

وقد تحدث النقاد عن التأثير السلبي للشرائط المرسومة خاصة على التكوين الفكري ، حيث الأفضلية فيها للصورة أو للرسم على النص أو الكلمة (Wallon - Alphandéry) . كما أن لها تأثيراً نفسياً ساماً على الأولاد كونها تعالج في أغلب الأحيان مواضيع ومغامرات الأبطال فيها من النوع العدواني وتقدم لهم بذلك منحاً أخلاقياً سيئاً .

أما التربويون المشجعون لهذه التقنية فقد عرضوا أنواع الشرائط المرسومة الأخرى ـ في ردهم على المعارضين ـ وما يمكن أن تقدمه من مواضيع مختلفة وغنية : يمكن أن تتطرق ـ مثلاً ـ إلى مواضيع تاريخية خالصة ، وتتمكن من معالجتها بأسلوب قصصي أو هزلي أو جدي (Astérix - His-toire de France) ، كما يمكن أن تعالج مواضيع اجتماعية حول العلاقات التي تربط الناس والمجتمع بشكل عامم (Penauts) .

وفي عرض التربويين الدفاعي ، أشاروا إلى أثر الشرائط المرسومة في تحريك الخيال الحي والواسع لدى الطفل ، وعن حاجة الطفل إلى الخروج عن الخط المتوجب عليه سلوكاً مدرسياً من خلال تحديد ما يجب أن يقرأه أو يدرسه أو يلعبه ، وذلك باللجوء إلى وسائل ترفيهية تنمي قدراته وتشبع هواماته ، وهذا ما لا يقدمه الكتاب دائماً .

* هذا ويعتبر علماء النفس المعاصرون أن للشرائط المرسومة دوراً مهماً فهي تأخذ مهمة **التحريك** Animation ؛ **والبرهان** démonstration ؛ **والتنبيه** Stimulation عند الطفل وتعمل على إحياء عالمه الخاص (تصويرياً) كونها أحد أنواع الوسائل البصرية .

وكل ما يقرأه أو يشاهده الطفل في شريط مرسوم (غابة ـ شجرة) هو نوع من تجسيد لخيالاته وتوظف في ذهنه بشكل آخر ، مما يساعده في إسقاط هواماته Fantasmes في صور هذا الشريط التي تدفع به إلى البعيد في آفاق تخيلاته . هذا وأن الشرائط المرسومة التي تهتم بنقل التاريخ لا تقل أهميتها عن غيرها : فالتاريخ هو الذي يغذي هوامات الشعوب وتقوم الصورة بتجسيد لتصورات مجد أو تراث ترسب في أعماقه .

وقد وعي الغرب أهمية التنويع في مواضيع الشرائط المرسومة ، وفي توجهها إلى الصغار والكبار معاً ، وأنزلت إلى الأسواق والمكتبات شرائط تتناول مختلف المواضيع وبشكل مدروس ومطابق للواقع الغربي ؛ وكون المجتمع الغربي مجتمعاً إستهلاكياً ، فالفائدة الاقتصادية التي تقدمها الشرائط المرسومة بالغة الأهمية في ميزان التجارة الغربية خاصة ، وأن إعداد الشرائط المرسومة بكل أنواعها في ازدياد دائم وفي ازدياد لنسبة القراء (بمعدل طفلين من ثلاثة يقرأون ٥ رسوم في أسبوع واحد[١] .

هذا بالنسبة للغرب ، أما بالنسبة للبلدان العربية فقد كثرت حالياً المجلات التي تعتمد الشرائط المرسومة وتنوعت مواضيعها ونشير هنا إلى تجربة « دار الشورى » في الشرائط المرسومة التاريخية (تاريخنا ـ الرحالة العرب) .

إلا أن السؤال يبقى مطروحاً حول كيفية استعمال هذه التقنية الغربية والتعامل معها على صعيد عربي شكلاً ومضموناً ؟

هل تستعمل هذه التقنية ـ عربياً ـ بشكل يتناسب مع خصائصها التي عرفت بها ؟ ثم هل تُستنسب مواضيعها انطلاقاً من معطياتنا المحلية أم أنها مجرد عمل نقل أو ترجمة للشرائط المرسومة الغربية ؟ .

---

(١) A. Roux, la bande dessinée peut-être éducative .

المـراجع

باللغة العربية :

أ ـ حـازم النعيمي : « مجلات الأطفـال العربيـة ودورها في تكـوين المفاهيم » . مجلة المستقبـل العربي ـ عدد ٧ ـ سنة ١٩٧٩ ـ ص ١٢٥ .

ب ـ مجلة « تاريخنا » : من عدد ١ حتى عدد ١٠ ـ سلسلة تاريخ العـرب والإسلام ـ دار الشـورى ـ بيروت (١٩٨٠ ـ ١٩٨١) .

باللغة الفرنسية :

a - Astérix aux jeux olympiques (Bande dessinée) (1979).
b - A. Roux: la bande dessinée peut-étre éducative? l'école (1970).
c - Bande dessinée, figuration marrative collection vent d'ouest. مجموعة مقالات
d - Yean Cazeneuve: les pouvoirs de la télévision - collection idées (1970).
e - Histoire de France en bandes dessinées larousse - Tome I (1976).
f - Gérard Blanchard: Histoire de la Bande dessinée (Marabont uni versité - 1975).

الاكتظاظ السكاني والحروب

حلا نوفل رزق الله

لا تشكل العلاقة بين الاكتظاظ السكاني[1] والحروب موضوعاً جديداً في تاريخ الفكر الإنساني ، بل أضحت عنواناً كلاسيكياً في مختلف المؤلفات التي تحاول أن تبحث في موضوع « المصيبة الثالثة »[2] Troisième Fléau حسب تعبير الديموغرافي والاقتصادي وعالم الاجتماع الفرنسي ألفرد سوفي Alfred Sauvy ، وأسبابها . ويمكن التعبير عن هذه العلاقة بسؤال نطرحه على الشكل التالي :

هل يشكل الاكتظاظ السكاني عاملاً من عوامل الحروب ؟

وقبل البدء بمحاولة الإجابة على هذا السؤال ، لا بد من ذكر أحد المفكرين في مسائل السكان لما أحدثت نظريته من تأثير بالغ على النظريات الديموغرافية لاحقاً : مالتوس Malthus ، صاحب النظرية القائلة بعدم التوازن بين تطور عدد السكان والموارد المتاحة لهم .

توماس روبير مالتوس هو قس إنكليزي صاحب مؤلف «An essay on the principle of population as it affects the future improvement of society with remarks on the speculations of Mr. Godwin, M. Condorect and other writers» الذي صدر عام 1798 دون تعيين الكاتب وأعيد طبعه خمس مرات . ويشكل قانون مالتوس للسكان رداً على بحث غودوين «Inquiry concerning political justice» حيث يتهجم الكاتب على نظام الملكية الخاصة ويعتبره مسؤولاً عن بؤس البشر ، كما يشكل أيضاً رداً على «Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain» لـ كوندرسيه . ويرد مالتوس على هذين الكتابين المتفائلين جداً بالنسبة إلى تطور السكان في

---

(١) نعني باكتظاظ سكاني Surpopulation ، وضع إقليم حيث تقابل الكثافة المرتفعة للسكان موارد غير كافية لتأمين مستوى حياة ملائم للأفراد ، وحتى الحد الأدنى للحياة .

ونتكلم على اكتظاظ بالسكان Surpeuplement حين يتم التركيز بشكل واضح على الوسط الفيزيائي . وثمة فرق ضئيل بين الكلمتين .

راجع : برسا (رولان) ، **معجم مصطلحات الديموغرافيا** ، ترجمة د. حلا نوفل رزق الله . بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٠ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢) Sauvy (Affred)..., **Eléments de Démographie.** Paris, P. U. F. (Coll. Thémis), 1976, pp. 201-205.

المستقبل ، فيبرز التفاوت الذي يعتبره موجوداً بين الزيادة الممكنة للسكان من جهة ، وزيادة القوت من جهة أخرى : إذ يتطور عدد السكان تبعاً لمتوالية هندسية ، في حين يزداد القوت تبعاً لمتوالية حسابية . ويحمل هذا التفاوت في طياته الكابح الطبيعي لكل نمو سكاني غير محدود . ويريد مالتوس أن يحل الكابح الإرادي ، الذي يتمثل في الزواج المؤخر بالإضافة إلى تعفف كلي قبل الزواج ، مكان أولية التنظيم الطبيعي التي تشكلها الحروب والأوبئة والمجاعات[1] .

وقد انطلق البعض من العلاقة التي اكتشفها مالتوس لإستنتاج نظرية حول أسباب الحروب . فمالتوس أراد فقط أن يحل الإكراه الأخلاقي cantrainte morale حسب تعبيره والمتمثل في الزواج المؤخر بالإضافة إلى تعفف كلي قبل الزواج مكان أولية التنظيم الطبيعي التي تشكلها الحروب والأوبئة والمجاعات ، في حين رأى بعض المالتوسيين المحدثين في الاكتظاظ السكاني المفترض سبباً من أسباب الحروب . وفي هذا المجال ، يقول الفيلسوف الإنكليزي برتران راسل Bertrand Russell : « ما من شيء قادر على إحداث حرب تُستعمل فيها القنبلة الهيدروجينية إلاّ خطر الهلاك الكوني بفعل الاكتظاظ السكاني »[2] .

مالتوس اكتفي بملاحظة علاقة موضوعية بين الموارد والسكان . أما إدوارد هول Edward hall ، صاحب مؤلف « البعد المخفي » La Dimension cachée[3] ، فيكتشف علاقة بين الاكتظاظ السكاني والحالة النفسية التي يحدثها ، فيقول إن الاكتظاظ السكاني يؤدي إلى ازدياد العدوانية . وعليه ستعالج هذه المقالة نقطتين :

أولاً : ما هي مرتكزات النظريات التي اعتبرت أن الاكتظاظ السكاني يشكل عاملاً من عوامل الحروب .

ثانياً : أهم الاعتراضات على هذه النظريات .

يمكن اعتبار غاستون بوتول Gaston Bouthoul صاحب « مؤلف علم الحرب » Traité de polémologie من المدافعين بشكل عام عن الفرضية القائلة بأن « البنية المتفجرة » Structure explosive تشكل عاملاً من عوامل الحروب . فمالتوس ، كما يقول بوتول ، لم يُدرك العلاقة التي تربط بين « الظواهر المدمّرة » Phénomènes Destructeurs التي لاحظها ، عنينا بذلك الفقر والمجاعة والأوبئة والحروب ، كما أنه لم يفكر بأن الاكتظاظ السكاني والبنية الديموغرافية قد يولدان

---

(١) معجم مصطلحات الديموغرافيا . . . ، ص . ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٢) ذكره :

Roussel (André), **Histoire des doctrines démographiques illustrée par les textes.** Paris, Fernand Nathan, 1979, p. 138.

(٣) Hall (Edward), **La dimension cachée.** Traduction française d'Amétie Petita, Paris, Seuil, 1971.

في بعض الحالات استعدادات للحرب[1] .

ويعطي بوتول التعريف التالي للبنية المتفجرة :

البنية المتفجرة هي « البنية الديموغرافية ـ الاقتصادية الخاصة بجماعة معينة حيث يتجاوز فائض الشباب المهام الضرورية للاقتصاد . وتشكل هذه الوضعية أرضيّة مناسبة لبروز النزعة القتالية لأنها تتجه إلى التفريغ في تمدد مفاجىء طابعه تشنجي وجماعي يتمثل في نمطين تقليديين هما الهجرة الجماعية والحرب . ذلك أن الحرب ليست في النهاية سوى هجرة مسلحة ومنظمة تارة باتجاه العدو وطوراً باتجاه العالم الآخر . وهي تحدث بالتالي ، وأياً كانت نتيجتها ، توقفاً لنمو السكان قد تطول مدته أو تقصر »[2] .

وهكذا تسمح الحروب حسب بوتول بنوع من « الاسترخاء الديموغرافي » Relaxation démographique الذي يحدده على النحو التالي : « التباطؤ المفاجىء للنمو السكاني الذي يلي بطريقة حتمية كل حرب »[3] . ويذهب المفكر الفرنسي إلى أبعد من ذلك ، فيُدخل عاملاً جديداً بدأ يثير اهتمام الباحثين المُعاصرين ، وهو العامل النفسي . يتساءل بوتول إذا كانت « بنية المجتمعات السكانية تنعكس بطريقة لا واعية على الاستعدادات النفسية لأعضائها . ألا تدفعهم إلى بعض النزعات الجماعية التي تفلت من عقالها في ظروف مناسبة ثم تُعقلن لاحقاً في حجج وبراهين تهدف إلى التبرير؟ »[4] ويتمسك بوتول بهذه الفرضية ولا يتخلى عنها في مؤلفه الصادر عام 1970 والذي يحمل عنوان « قتل الأطفال المؤجل » L'infanticide différé حيث يعتبر التضخم الديموغرافي Inflation démographique من أهم إشارات الحرب ؛ إذ يبيّن التضخم الديموغرافي أن « الأمة حبلى بحرب »[5] .

ولا بد من الإشارة في هذا المجال أن فرضية بوتول هذه دعمتها نتائج بعض الأبحاث السيكولوجية . يؤكد كونراد لورنز Konrad lorenz مثلاً أن « تكدس أعداد كبيرة من البشر في مساحة ضيّقة لا يؤدي فقط بطريقة غير مباشرة إلى أفعال غير إنسانية يحدثها التعب والزوال التدريجي للاتصالات ، بل يشكل أيضاً السبب المباشر للسلوك العدواني »[6] . ويحاول لورنز أن يُعبّر عن هذا الواقع بلغة تذكرنا إلى حد بعيد بلغة الرياضيات ، فيقول مثلاً : « ثمة علاقة طردية بين الخشونة العامة التي نلحظها لدى الأفراد الذين يعيشون في كل المدن الكبيرة وكثافة الحشود المجمّعة في

---

(١) Bouthoul (Gaston) **Traité de Polémologie.** Paris, Payot, 1970, p. 315.

(٢) —— ——, **La guerre.** Paris, P.U.F. (Coll. Que Sais-je?) n° 577, 5ème Edition, 1973, p. 52-53.

(٣) المرجع السابق ، ص 53 .

(٤) المرجع نفسه ، ص 54 .

(٥) Histoire des doctrines..., p. 139.

(٦) المرجع السابق ، ص . 137-138 .

أمكنة محدودة »[1] . وتدعم أطروحة لورنز هذه التجارب العديدة التي أنجزها بوصفه عالماً في مجال السلوك الحيواني ، وهي تجارب علمته على حد قوله إن « العدوانية بين الحيوانات المتجانسة تزداد بالتكدس »[2] . على كل حال ، تشكل دراسة العدوانية في علاقتها بالبعد المكاني إحدى الموضوعات الرئيسة لكتاب إدوارد هول « البعد المكاني » .

يعترض بول فانسان Paul Vincent في مقاله «الحرب والسكان» Guerre et population[3] على فكرة « الاسترخاء الديموغرافي » الذي تحدثه الحروب . فهذه الفكرة لا ترتكز في رأيه على مقومات صلبة . وهو يتبنى وجهة نظر مُعاكسة تماماً إذ يعتبر أن الاكتظاظ السكاني ليس سبباً من أسباب الحروب ، بل نتيجة من نتائجه . ففي الماضي لم تكن الحروب مميتة للغاية ، بل كانت تقضي على المزروعات والبنية التحتية الاقتصادية بشكل أساسي . فالمجاعة والاكتظاظ السكاني المؤقت كانا بالأحرى النتيجتين المباشرتين للصراعات المسلحة .

ثم يتساءل فانسان ما إذا كان الاكتظاظ السكاني يشكل سبباً أو مبرراً للحرب ؟

في رأيه ، يشكل أعلام التحالف الألماني ـ الإيطالي حول مفهوم « المجال الحيوي » أحد المظاهر الرئيسة حيث نلحظ نقلة نوعية للدوافع على المستوى الإيديولوجي . ويضيف أنه من الواضح أن الفاشيين الإيطاليين أرادوا استعمال الظرف الديموغرافي لبلدهم كأداة للهيمنة السياسية . وفي هذا المعنى يمكن التأكيد أن الاكتظاظ كان يعتبر عاملاً من عوامل الحرب . ويتابع فانسان فيقول إن هذه النظرة السريعة تسمح بإبراز الدور الذي يلعبه مفهوم الاكتظاظ السكاني بوصفه على الأقل حجة أو على الأكثر سبباً للحرب . . . ولكن الآثار التي تركتها الدعاية حول مفهوم « المجال الحيوي » توجهنا إلى تقبل نظرية الحرب بوصفها عاملاً للضبط الديموغرافي دون أي نقاش . ولهذا السبب ، إضافة إلى أن فروق الضغط بين البلاد المختلفة ستزداد حتماً وإن الرأي العام سوف يُعلم بهذا الازدياد ، يمكن التأكيد أن المسائل الديموغرافية ستكون في المستقبل سبباً من أسباب الصراعات بين الأمم .

ولكن الصراعات يمكن ويجب أن تُبسّط على المستوى السلمي إذ أننا نعرف أن الحرب لا تحل مشاكل الاكتظاظ السكاني بل تزيدها خطورة . والمُقلق أن المُولّد للمشاكل السياسية الدولية الناتجة عن اختلاف الولادية بين الأمم لا يتمثل بالضغط الفعلي Pression effective بل بالضغط المُدرك Pression ressentie حسب تعبير فانسان . ويختتم فانسان مقاله بالقول إن ثمة خطر إذن في استغلال موضوع « المجال الحيوي » من قبل قوة ما لغايات إمبريالية .

---

(١) المرجع نفسه ، ص 138 .

(٢) المرجع نفسه ، ص 138 .

(٣) Vincent (Paul), «Guerre et Population» in Revue «Population», Paris, INED, 1947.

ويرفض ألفرد سوفي أن يرى في الحرب نتيجة حتمية للتكدس السكاني ويعتبر هـذا التفسير « تبسيطاً » ، إذ يقول هذا المفكر إن للحرب نتائج ديموغرافية وليست لها أسباباً ديموغرافية . لـذا اعتبر سوفي مفهوم « الضغط الديموغرافي » Pression démographique مفهوماً مُضللاً .

يحاول سوفي أن يوضح هذه الفكرة في كتابه « الثروة والسكان » Richesse et population :

« ثمة اعتقاد راسخ مفاده أن التكدس السكاني سبب من أسباب الحرب . لكن الـظاهرة في الواقع أكثر تعقيداً . ذلك إن فيض السكان لا يحدث فقط ضغطاً على الأطراف ، بل في كل نقاط الوسط الذي يشمله . فلا يؤثر هذا الضغط على الخارج إلاّ إذا رافقه انخفاض في الوسط المجاور ، ممـا يشكل ظـاهرة شبيهـة بالاريـاح التي لا تنتج عن ضغـوط قويـة ، بل بـالأحرى عن فـروق في الضغط . وإذا كان ظهور الآثار الخارجية أمراً مستحيلاً ، فإن الضغط سوف يؤثر في الداخل ، وهذا مـا قد يؤدي إلى تقـدم تقني واستغلال أفضـل للموارد في بعض الحـالات ، وإلى البؤس وازديـاد الوفاتية في حالات أخرى ، وذلك تبعاً لحدة الضغط السكاني »(١) .

كذلك أيضاً رفض بول أرليتش Paul Ehrlich في كتاب أصدره مع آن ارليتش Anne Ehrlich حـول « السكان والمـوارد والمحيط »(٢) Population, ressources, environnement ، أن يـرى في الاكتظاظ السكاني سبباً حتمياً للحرب . ثمة عوامل أخرى . إضافة إلى الفرق في النمـو السكاني بين بلدين ، يجب أن يؤخذ في الاعتبار مثلاً تفاوت النمو الاقتصادي الناتج خصوصاً عن الإمكانات المتوافرة للوصول إلى المواد الأوليّة .

ختاماً ، لا يسعنا إلاّ أن نتبنى رأي سوفي الذي اعتبر ، كما سبق وأشرنا ، إن للحرب نتائج ديموغرافية وليست لها أسباباً ديموغرافية . لكن مع تفاقم المشكلات الاقتصادية خـاصة في بلدان العالم الثالث التي تشهد معدلات نمو مرتفعة للسكان والتي تعـرف بالتـالي ما يسمى بـ « اكتـظاظ نسبي بالسكان » Surpeuplement relatif (يميز سوفي بين الاكتظاظ النسبي بالسكان الناتج من عدم استغلال الموارد المُتاحة ، والاكتظاظ المطلق بالسكان Surpeuplement absolu الناتج من النقص في الموارد)(٣) ، نضيف معه أنه لا يمكن أن يكون هناك توافق دولي نسبي دون اتفاقات جدية على الصعيد الديموغرافي .

---

(١) Histoire des doctrines.., p. 145.

(٢) Ehrlich (Paul et Anne), **Population, ressources, environnement.** Paris, Fayard, 1972.

(٣) Sauvy (Affred), **Richesse et Population.** Paris, Ed. Payot, 1943.

الإحصاء والعلوم الأخرى والتعليم

د. مصطفى سليمان(*)
أستاذ الإحصاء والتدريب على البحث

قال العزيز الحكيم محدثاً عن ذاته وعلمه : « وكل شيء أحصيناه عدداً » . ثم خاطب الناس لإعجازهم عن بلوغ علمه : « أن تعدوا نعمة الله لن تحصوها » . صدق الله العظيم .

ذلك يفيد تعريف الإحصاء وتحديد منهجه وأداته . فهو حصر الأشياء المقصودة بواسطة العد والتعداد ، وأداة ذلك العدد . أما الإعجاز فهو بعدم إمكانية استعمال الإحصاء في الأشياء اللامتناهية عدداً ، أي أن الإحصاء لا يبلغها ، مثل محاولة إحصاء نعمة الله وآلائه . . رغم إمكانية استعمال الأعداد اللامتناهية للحساب . فالأعمال الإحصائية إذن محصورة عندنا بالمجموعات المحدودة .

أما علاقة الإحصاء بسائر العلوم الإنسانية والطبيعية التطبيقية ، فإنها تبدأ بالعد ثم المقارنة ثم تحليل العلاقات وتصنيف العوامل لاستجلاء الخصائص والصفات والوقائع وصولاً إلى استخلاص النتائج والقوانين التي تحكم علاقات العناصر والمتغيرات داخل المجموعة أو فيما بين المجموعات وعلاقاتها بالحقل الذي تقع فيه وبما يتصل بها من علاقات في حقول أخرى . . .

ولا بد من الاعتراف أن الإحصائيين كانوا محايدين إلى حد السلبية ، في أحيان كثيرة ، في علمهم الذي ينشأ في أحضان العلوم الرياضية ، مع أن الأمثلة التطبيقية ، المجردة أو الميدانية ، تسمح بل تطلب من الإحصاء أن يدخل ويتدخل في سائر المسائل ، كمنهج وكتقنية في آن .

غير أن الإحصائيين ، كخبراء وتقنيين ، لم يتملكوا بعد هذه الحشرية العلمية ، ولم يحاولوا التحرش والاعتداء على أي من العلوم الأخرى ، فلم يحاول الإحصاء أن يتدخل في الشؤون الداخلية لممالك سائر العلماء .

إنما الذي حصل هو العكس تماماً ! من تسخير العلوم الأخرى للإحصاء والتزين به ومحاولة التنكر به ، أو الاستقواء بقوة منطقه الرياضي لإثبات حجة أو إقناع حيناً ولتبرير حيناً آخر وصولاً إلى تحميله مسؤولية أخطاء منهجية وسوء استخدام .

لقد حاول بعض العلماء والمفكرين المحدثين في القرون الأخيرة أن يؤسسوا ممالك خاصة

(*) ـ دكتوراه في الرياضيات الإحصائية المطبقة في العلوم الاجتماعية والاقتصادية ـ جامعة باريس ٦ .
ـ خريج كلية العلوم (رياضيات إحصائية) ، خريج معهد العلوم الاجتماعية ، الجامعة اللبنانية ـ بيروت .

لكـل من علومهم وبدأوا بتمييـز كل فن ومبحث في علم خـاص ، وجعلوا كل منهـج وأسلوب في مدرسة خاصة داخل العلم كالإمـارة داخل المملكـة فتقرر قيـام العلوم الاجتماعيـة المختلفة وعلم النفس وعلم الجغرافيا وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم التاريخ . . أي أصبح لكل فن ولكل إطار بحثي اسم « علم » مشفوع بمضاف إليه يفسر هويته المتصلة بالموضوع أو بالزمان أو بالمكان . . .

بعد ذلك أخذ العلماء والباحثون يتـوجون أنفسهم على رأس ممالكهم تلك . . ولما ضـاقت المجالات بالعروش وأخذ التلامذة والأتباع ينشدون الملك أو الوزارة ، ووجدوا الأماكن محدودة ، قاموا بصياغة دويلاتهم داخل الدولة ، فنشأ في ظل كل مملكة أو علم دويلات أو مدارس عرفت كل منها باسم أميرها أكثر مما عرفت باسم موضوعها أو محلها أو زمنها . . بل غابت أسماء المـواضيع والقضـايا لكثـرة الزحـام من الـدعـاوى والإدعـاءات ، ثم تجمـع الجمهـور ، طـلابـاً وطفيليين ، يتفرجون . ثم دخلوا في اللعبة وانقسموا شيعاً وأتباعاً ، وأنصاراً ، وانتظم المريـدون حلقات ، ثم انتشر المتشيعون في الأرض يبشرون بمذاهب جديدة ويؤسسـون طوائف ويصيغـون عقائـد تتحجر عندها عقول الاتباع وتتوقف حركة فكر الأئمة المبشرين عند موقف كان جديداً يوماً ما ثم أصبح بعد بالياً عتيقاً متخلفاً . . لكن أساتذتنا وطلابنا وشراحنا وكتابنا ما زالوا يلوكونـه ويكررونه وكأنه الأول والآخر في كل علم وفن . . وهذا ما نجده عند أصحاب كل مـدرسة من مـدارس ومذاهب العلوم السابقة قديمها وحديثها . . من الأفلاطونية والأرسطة والرواقية إلى النسـطورية واليعقـوبية . . إلى الأشعرية والمعتزلة . . . وصولاً إلى الهيخلية والفرويدية والماركسيةوالوجودية وغيرها الكثير ، التي لم يثبت من أكثرها أكثر مما بقي من حجج السفسطائيين في أذهان اتباعهم ، الذين لم ينكسر القيد العقائدي (الإيديولوجي) عن عقولهم . . . فيُسَخَّف العلم لخدمة (الايديولـوجيا) ، كمـا تستغل (التكنولوجيا) للقهر والاستتباع .

ذلك بدل أن تكون كل تلك العلوم والطرائق والحيل زاداً معرفياً ثقافياً يتجمـع عبر التـاريخ ليكشف منطق وفلسفة وسمات كل مرحلة ، وليسمح لكل جيل جديد ومجتمع لاحق بتطويـر وبناء منطق وفلسفة ومجتمع يتقدم بمقدار ما يفهم السابق وينقده فيوسع ويبدع ويغير للأفضل .

غير أننا وفي كل زمان ، نجد السباق والتنافس بين المقلدين والاتباع الذين يشدون المجتمع والتاريخ إلى الوراء ، أكثر مما نجد من اهتمام بالإبداع والتقدم لدفع العلم والاختراع والمدنيـة ، وهذا من أهم سمات التخلف في بلادنا .

ضمن هذا السياق ومثل تنـافس الملوك والأمراء لتزيين عروشهم وترصيـع تيجانهم ، حـاول الصناع ، أكثر مما حاول المبدعون ، تلميـع مصنوعـاتهم وإبداع الجـديد منهـا بإشكـال ووسائـل وتقنيات ومناهج جديدة أو تطعيم قديمها بأي جديد ومختلف ، حتى ولو كـان ذلك مجـرد إضافـة مكلفة . .

ولقد كان سهلاً، في التقنيات العلمية، أن يتم شراء العالوم(*) (الكومبيوتر) الذي اشتراه البعض للديكور وتركه عاطلاً عن العمل ، وشراء البرامج واستعارة الطرق المحايدة والعلوم المجردة والمستقلة مثل الإحصاء ، الذي أخذ يستعمله أصحاب العلوم العقائدية والدعائية والتجارية كما يستخدمه الباحثون والعلماء في كل مجال تطبيقي مستفيدين من التقنيات الصناعية الألكترونية إلى حد بعيد . . غير أن الكثيرين ، يستعملون تلك الطرق والوسائل في موضوعاتهم ليظهرون بها بريقاً ولمعاناً للترويج والدعاية تماماً كالسحر والطلاسم، وما زالت اللعبة ماشية على أكثر الناس تستخدم في الإعلان التجاري كما في الترويج السياسي والحملات الانتخابية وتزوير الأرقام والاستطلاعات . . فحيث يدخل « الكومبيوتر » والإحصاء والرقم وإن كان خطأ أو تزويراً ، تجد المجادلين والخصوم يرمون أسلحتهم ويرفعون العشرة ، ويغشى على أبصارهم أحياناً . . .

لكن الأسوأ من ذلك أن بعض « العلماء » والمعلمين في ميادين مختلفة وفي الجامعات ، ما زالوا متمسكين بالتقنيات الإحصائية القديمة (الكلاسيكية) لأنهم ترعرعوا عليها ، على ما يبدو ، وهم يحاولون إلزام الطلبة والأساتذة المختصين في تعليم التقنيات الإحصائية ووسائل البحث ، أن يعودوا إلى ذلك القديم والوقوف عنده . . . تماماً كما يطلب من طبيب أن يقوم اليوم بجراحة يستعمل فيها تقنيات ووسائل تعلم عليها منذ ثلاثين أو خمسين سنة . وهذا المثل ما واجهت به مديراً لأحد فروع كلية الطب عندما كان يطلب الإبقاء على مضمون مادة الإحصاء كما ورد في كتاب عمره أربعين سنة أي قبل عصر المعلوماتية .

هذه بعض حكاية من حكايات العلم والتعليم في مجتمعنا ومؤسساتنا، ومعاناتنا ضمن هذه التجربة جزء من معاناة الناس في التجارب الأصعب كل في حقله . . . غير أن الأخطر في تجربة العلم والتعليم أنها تؤسس في العقل والسلوك لتنتقل إلى التطبيق في الأجيال الناشئة . . . ولهذا فإن صرخة يجب أن تطلق لإنقاذ التعليم والجامعة من الجهل والتخلف لأن استمرار الأحوال السائدة ستصل بالطلاب والأجيال الجديدة والمجتمع إلى الهاوية والهلاك . .

مع التحفظ . . إذ ربما كان المجتمع الذي يحضن هذه الجامعة وهذا التعليم ، هو الذي يسير إلى الهلاك آخذاً معه الجامعة والأجيال وكل ما ينبت من أزهار الحاضر وثمار المستقبل من طلاب ! .

(*) العالوم : هو الاسم الذي اقترحه الكاتب لجهاز « الكومبيوتر » ، لأنه يشتقه من مصدر علم ومنه المعلوماتية ، وهي المقاربة الأفضل لوظيفة هذه الجهاز خصوصاً مع الاقتراب من الجيل الخامس الذي لم يحسم اسمه بعد على الصعيد العالمي . قدم الاقتراح المذكور في ندوة للأونيسكو حول المعلوماتية والجيل الخامس للحاسوب ـ عمان ـ أيلول ١٩٨٨ . ويكون المصطلح بالفرنسية (Scientifieur)وبالانكليزية (Scientifior) .

مقاربة ديموغرافية اجتماعية لمؤسسة الزواج

د . صابر بو ضرغم

يعتبر الزواج مؤسسة موروثة عن الأجيال السابقة ، وهو حق لكل الناس ، وتقليد متبع عند كافة الشعوب . لقد بقي هدف هذه المؤسسة زمناً تأمين استمرارية الجنس البشري ، وذلك عن طريق تنظيم وتشريع الممارسة الجنسية ، وفي نفس الوقت السيطرة على النمو السكاني والنسل .

إلا أن التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي عصفت بالمجتمعات عبر العصور ، خلخلت بشدة دعائم مؤسسة الزواج ، وحولتها من مؤسسة يسمح فيها للمرء بالعلاقات ما بين الجنسين إلى خلية اجتماعية حميمة تشد أواصر أفرادها دعائم الحنو والعطف والحب .

وهكذا تحوّل الزواج عبر التاريخ ، من عملية تملك للمرأة وذريتها ، إلى عملية تكامل واندماج للمرأة في عالم الرجل ، فإلى مؤسسة مشاركة حيث تعتبر المرأة فيها ذات حقوق وواجبات كما للرجل على التمام. هذا ويرى علماء الاجتماع في الزواج سوقاً Marché يتم فيه تبادل رؤوس الأموال، التي منها المادي ويتجلى في الصفات الجسدية لطالب الزواج، أو الاقتصادي وينحصر بما يملكه الفرد من إعداد مهني أو ثروات ، أو الثقافي ويكمن في درجة تحصيل الفرد العلمية وما تعلمه من لغات ، أو الاجتماعي ويظهر في الطبقة الاجتماعية أو اللاتنية التي ينتمي إليها الفرد في المجتمع .

في مثل هذا السوق ، يلتقي العرض بالطلب ، فيعاد توزيع المؤهلات الشخصية والاجتماعية . وفي هذا الكثير من عوامل الحركية الاجتماعية . كما تدجن المسائل الجنسية عن طريق إلباسها دثاراً اجتماعياً ، وتتحول الرساميل ، المتمثلة بمزايا الأفراد ، إلى روابط جنسية تشد فيما بينهم أواصر تقربهم من بعضهم البعض .

ونحن في مقاربتنا الديموغرافية والاجتماعية لمؤسسة الزواج ، نحاول دراسة الأسرة التي تشكلها ، وذلك عن طريق الإجابة على ثلاثة أنواع من الأسئلة :

- القسم الأول يوجه إلى كل من القرينين .
- القسم الثاني يوجه إلى القرينين معاً .
- والقسم الثالث يتعلق بالغرض من الزواج .

هذه الأسئلة ترتكز على متغيرات اجتماعية كالسن أو الأصل الاجتماعي والجغرافي والاتني

والديني ، كما تعالج قضايا تتعلق بكلي الجنسين ودور كل منهما في اختيار الشريك عند تشكيل الأسرة التي تعتبر الهدف الأسمى لمؤسسة الزواج والغاية الرئيسية لها .

فما هي الأسرة ، وبماذا تتميز ؟ .

١ ـ الأسرة أساس المجتمع :

حقيقة قررها علماء الاجتماع . فبالرغم عن تكوين المجتمع من أفراد ، يبقى الفرد في نظر علم الاجتماع فكرة مجردة . ذلك أن كل ظاهرة اجتماعية ، وكل قوة في المجتمع ، تنتج عن تعاون يتفاوت نطاقه ضيقاً وسعة : أي عن تضافر النشاط بين عدد كبير أو صغير من الأفراد . وإذا كان التحليل في علم الحياة يقف عند الخلية فإنه في علم الاجتماع يجب أن يقف عند الأسرة باعتبارها الخلية الأولى للمجتمع . وكل مجتمع يتألف من مجموعات محددة وثابتة من الأسر دفعتها غزيرة عميقة في النوع الإنساني إلى التجمع وفطرة إلى الذوبان في حياة الجماعة .

هذه الحقيقة التي قررها علم الاجتماع، وشهدت بها الوثائق التاريخية والتجربة ، تدحض الرأي الذي نادى به بعض الفلاسفة ، أمثال هوبز (في القرن ١٧) وروسو (في القرن ١٨) ، من أن المجتمع ظاهرة مصطنعة وليست طبيعية قامت على فكرة المنفعة واتباع الأنانية الفردية . فالواقع أن المنفعة لم تظهر إلا بعد تكوين المجتمع وإحكام التعاون بين أفراده . وأول صور للتعاون ظهرت بطبيعة الحال في محيط الأسرة .

فالأسرة إذن هي العنصر الاجتماعي الأول . ويتكون المجتمع من أسر ، لكنه هو نفسه لا يعتبر أسرة كبيرة . ويتميز المجتمع عن الأسرة بصفات غاية في الوضوح . ذلك أن طبيعة الأسرة هي قبل كل شيء خلقية وعاطفية . أما الناحية العقلية فيها فثانوية جداً عكس المجتمع الذي يمتاز التعاون فيه على وجه الخصوص بطبيعة عقلية ، ويتجلى ذلك في تقسيم العمل والأدوار : سببان رئيسيان للتعقيد المستمر الذي يطرأ على المجتمعات ويقسمها إلى فئات تتباين مصالحها .

٢ ـ صعوبة الدراسة العلمية للأسرة :

دراسة مسائل الأسرة دراسة اجتماعية علمية ، ليست بالسهولة التي يتصورها بعض الباحثين ، لأن فيها الكثير من المسائل التي تشغل الأذهان وتحيرها . وربما يرجع ذلك إلى النظم العائلية المتبعة وإلى التقاليد التي تحيط بها والتي تنبع من اتصالنا الوثيق بحياة الأسرة وارتباطنا العاطفي بها ، مما يصعب معه التخلص من وجهات النظر الذاتية ودراسة مسائلها دراسة موضوعية . فنحن يخيل إلينا أننا نعرف جيداً كل ما نتصل به اتصالاً وثيقاً وكل ما نعيش فيه من نظم . وعلى هذا الأساس نندفع إلى تعريف الأسرة بحسب ما نراه حولنا من نظمها المعروفة لدينا والتي يمارسها المجتمع الذي نعيش فيه . ولا يدور بخلدنا أن هنالك أشكالاً وأنظمة للأسرة تختلف باختلاف الجماعات الإنسانية وعاداتها وعقائدها .

يعتقد معظم الناس ، أن الاتحاد الجنسي أو صلة الرحم هي الأصل الأول أو الشرط الكافي

لتكوين الأسرة . ويؤيد ذلك في نظرهم أن صلات القرابة ينظر إليها عادة على أنها صلات تنبع من صلات الرحم وتتأكد في رباط الدم . والنظر إلى الاتجاد الجنسي هذا يعتمد على ما نراه من سنن الطبيعة عند الكائنات الحية جميعاً . فقانون الحياة الأكبر يتجلى في الحرص على بقاء النوع واستمرار النسل .

ولكن حقيقة تشبيه الإنسان هنا بغيره من الكائنات الحية ، يجب ألا تحجب عن نظرنا فروقاً هامة وأساسية تميز بين الأسرة الإنسانية والأسرة الحيوانية . فالأسرة الإنسانية لا تقتصر على كونها اتحاد بيولوجي فقط بل على أنها أولاً ، وقبل كل شيء ، وحدة خلقية تنظمها قواعد اجتماعية وتشريعية بحيث لا تكفي الغريزة وحدها في تحديد علاقاتها ونظم ترابطها . ونحن إذا أنعمنا النظر في بعض نظم الأسرة، سرعان ما يتضح لنا أن صلة الدم وحدها لا تكفي دائماً في تحديد صلات القرابة وفي ربط أفراد الأسرة برباط الحقوق والواجبات . فالأطفال غير الشرعيين لا تشفع لهم صلة الدم في الكثير من الحالات ، ويظلون خارج نطاق الأسرة لا يعترف لهم بحقوق شرعية ولا قانونية ، بينما تعتبر معظم المجتمعات الابن المتبني فرداً من أفراد الأسرة يملك نفس الحقوق والواجبات يتمتع بها الابن الشرعي وذلك رغماً عن انتفاء صلة الدم التي تشد عادة الأولاد إلى أسرهم .

٣ ـ الأسرة نظام اجتماعي :

الأسرة إذن ليست نوعاً من التكتل الطبيعي والفيزيولوجي الذي ينشأ عن اتحاد الجنسين فحسب بل إنها نظام اجتماعي قبل كل شيء . وقد عبر دوركهايم عن هذا المعنى بوضوح ، حيث كتب في المجلد الأول من النشرة السنوية لعلم الاجتماع :

« لا يمكن أن يطلق اسم أسرة على أية مجموعة تتكون بالفعل من أفراد تجمعهم صلة الدم بحيث ينفقون فيما بينهم على العيش سوياً ، دون أن يربط أحدهم بالآخر التزامات محددة ، ويستطيع أي فرد منها الانفصال عن المجموعة حسب رغبته في أي وقت يشاء . فالعيش تحت سقف واحد لا يعتبر شرطاً ضرورياً في تكوين الأسرة . كما أن صلة الدم ليست شرطاً كافياً لتأسيسها كمثل الأطفال غير الشرعيين . . . يجب أن يتوافر لوجود الأسرة شرط آخر غير هذا أو ذاك .

يجب أن تكون هنالك حقوق وواجبات يقرها المجتمع بحيث تحدد التزامات كل عضو من الأعضاء نحو الآخر ويعني ذلك أن وجود الأسرة هو رهن بوجود نظام اجتماعي يحدد الصلة بين أعضائها . وهذه الصلة هي قانونية وخلقية في آن ، توضع تحت رقابة المجتمع والرأي العام . هذا التحديد لمعنى كلمة أسرة ، يمنع الخلط بين ائتلاف يقع بالفعل ، دون أن تكون هناك أي صلة قانونية بين أعضائه ، ودون أن يعترف بها القانون ، وبين جماعة منظمة يرتبط أعضاؤها جميعاً بصلات قانونية وخلقية تجاه بعضهم البعض » .

وهذه الصلة القانونية التي تجعل من الأسرة نظاماً اجتماعي ، ترتب لكل فرد من أفرادها ، حقوقاً وواجبات معينة تتحقق عن طريق الزواج . ومؤسسة الزواج هي الوسيلة الاجتماعية التي

تكسب الأسرة طابعها الشرعي بل طابعها الإنساني العام .

٤ ـ أشكال الأسرة :

إذا كنا نريد أن نفهم طبيعة الأسرة والحقوق والواجبات التي تتصل بها ، والعلاقة بين الأسرة والزواج ، يجب أن نعنى ببحث الأشكال التي أخذتها الأسرة ونتدرج بها إلى الشكل الـذي تتخذه اليوم في مجتمعاتنا الحاضرة .

اتفق علماء الاجتماع على أن أول شكل للأسرة ظهر على مسرح الحياة الاجتماعية كـان ذا طبيعة دينية وعائلية في آن واحد . وقد أطلقوا على هذا النوع من الجماعـات اسم العشيرة clan . وهي جماعة ينظم حياتها الاجتماعية والدينية نظام أطلق عليه اسم الطوطميـة Totémisme ، حيث تتألف العشيرة من جماعة يعتبرون أنفسهم متواصلين بصلة القرابة على أساس واحد أو علامة مميزة تتجلى في حملهم اسم طوطم واحد . والطوطم هنا هو عبارة عن نوع من الحيوان أو النبات، تعتقد الجماعة أنها انحدرت عنه . وهو بالنسبة إليها شعار وكائن مقدس . فإذا كان الطوطم للعشيرة هـو النمر مثلاً ، فكل أفراد العشيرة ترى فيه الجد الأكبر الذي انحدروا منه ، وبالتالي يجري في عروقهم دم النمر وصفاته. والعشيرة بهذا المعنى، مجتمع عـائلي ما دامت تتـألف من أناس يعتبـرون أنهم ينحدرون من أصل واحد ، ولكنها تتميز عن الأنواع الأخرى من الأسر بكون القرابة فيها تقوم على وحدة الطوطم لا على صلات قرابة دموية محددة ، وكان الطفـل عادة يعتنق طـوطم أمه . ولـذلك كانت القرابة أمومية Matriarchal . وربما كان هذا النظام راجعاً إلى حـالة التـرحال عنـد العشائـر البدائية ، وعدم استقرار الرجال في جهة واحدة ، وإلى الأم التي كـانت وحدهـا تقوم على رعـاية الأولاد مما أكد سيادة سلطتها ونسبة القرابة إليها .

وعندما تقدمت المجتمعات إلى حالة الاستقرار ، اتخذ نظام الأسرة شكلاً يغلب عليه الطابع السياسي . فظهرت سيادة الأب في النظام العائلي بحيث طغت على كل شيء ، وأصبح نظام الأسرة أبويا Famille Patriarchale . وما أن سادت الحضارتان اليونانية والرومانية حتى أصبحت سلطة الأب على الأسرة مطلقة ، بحيث اختلط بمعنى عاهل الأسرة Père Familial معاني الزعامة والأبوة ، يتمتع فيها الأب بحقوق مطلقة حتى التصرف بأفرادها كيفما شاء يطرد منها من يريد ويضم إليها عن طريق التبني من يرغب . وهذه الحقوق المطلقة تشمل حق توزيع العدالة والحكم على الأفراد ، يعاقب كما يشاء ويحق له تأجير أولاده للعمل أو بيعهم إذا رأى في ذلك عملاً مناسباً له .

فلما نشأت المدن وتكونت كوحدات سياسية ، كان ذلك عاملاً كبيراً في الحد من سلطة عاهل الأسرة المطلقة . وانتقل كثيـر من حقوقـه إلى الهيئة الحـاكمة في المـدينة ، تمـارسها عن طـريق القوانين المدنية . وأخذ حجم الأسرة يتقلص شيئاً فشيئـاً حتى وصل إلى الأسـرة النواتيـة Famille canjugale ، وهي الأسرة التي تسود اليوم في مجتمعاتنا ، وعلى الأخص في المدن . كما انكمشت كذلك وظائف الأسرة ، فبعد أن كانت تشمل النواحي الدينية والاقتصادية والتشـريعية والتـربويـة ،

أصبحت تقتصر اليوم على الناحية التربوية التي تتجلى في رعاية الأطفال وتنشئتهم حتى سن معينة تتولى بعده الدولة إعدادهم وفقاً لأهدافها ومثلها العليا .

وهكذا نرى أن تطور الأسرة قد سار من المجموعة الأوسع نطاقاً إلى المجموعة الأضيق نطاقاً ، وفي ذلك ما يخالف الرأي السائد من أن الأسرة الزوجية هي الأصل . إن تطور الأسرة لم يتم في حركة انتشارية centrifuge ، أي من حلقة ضيقة نحو دوائر تزداد على الدوام اتساعاً ، بل تطورت في حركة معاكسة أي تركزية Centripète أي حركة انقباضية من دوائر واسعة نحو مركز ضيق . ومؤسسة الزواج نشأت عن المجموعة السياسية وعن المجموعة الدينية وليس العكس .

بعد هذه العجالة يتبادر إلى الذهن تساؤل عن وضع الأسرة حالياً في مجتمعاتنا وخاصة منها الصناعية .

٥ ـ الوضع الحالي لمؤسسة الزواج :

لقد أثبتت الدراسات الحالية في البلدان المتقدمة أن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي عصفت بالمجتمعات ، أظهرت عدم قدرة مؤسسة الزواج التقليدية على الوقوف في وجه التغيرات . مما دفع بالأجيال الفتية إلى العزوف عن الزواج ، فانصرف الشباب إلى المخالنة ، مما جعل في انخفاض معدلات الزواجية والطلاق ميزة التطور الحالي للمجتمعات إن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع تعود في معظمها إلى العلاقات التي نشأت ما بين الجنسين وإلى الوضع الاقتصادي الصعب الذي يتخبط فيه الشباب والذي يتجلى في ضيق المجال المتاح لهم وفي عدم وضوح الرؤيا المستقبلية . فكيف تمَّ ذلك ؟ .

إن مؤسسة الزواج تظهر كما رأينا قبل كل شيء حقيقة بيولوجية . فكل منا هو ابن أو إبنة فلان وفلانة . يشار إليه باسم الأسرة التي ينتمي إليها . كما أن أولى الكلمات التي ينطق بها (بابا . . . ماما . . .) مليئة بالمعاني التي ترمز إلى أصله البيولوجي وتشكل بالنسبة له صلة عامودية تؤمن استمرار الأجيال وانتقال الانتماء والثروة والاسم .

لكنها أيضاً ، كما سبق وقلنا ، مؤسسة اجتماعية في دورها ووظائفها . ففيها تلتقي أواصر القربى وتشتد نظم العلاقات التي تآلف ما بين الأفراد بحيث تصبح كلاً حيوياً لا تقوم بدونها ولا تدوم . هذه الأواصر تشكل صلة أفقية تسمح لكل فرد بنمو شخصيته وبالتالي مغادرة أسرته ليكون مع فرد آخر أسرة جديدة . تكون نسخة متشابهة للأسرة التي انطلق منها . وهكذا يصبح دور مؤسسة الزواج تأمين الأسرة التي منها نخرج والأسرة التي إليها نتجه ، وليس بالضرورة أن تتطابق كلياً الأسرتان .

ونحن لا نفهم التطور الحالي للأسرة دون استعراض تطورها عبر العصور . ففي المجتمعات البدائية كان انتماء الأولاد أمومياً Matrilignaire يعتبر فيه الآباء زواراً لا يساكنون إلا ما ندر الزوجات . وفي بعض مجتمعات أفريقيا وجنوب شرقي آسيا ، يعيش كلا الجنسين في حرية جنسية

تامة لا يخرجون منها إلا بالزواج . وفي المجتمعات الأسترالية يسمح بإعارة الزوجات فضلاً عما نلاحظه في بعض المجتمعات الأفريقية من تعدد للأزواج Polyandrie .

في مثل هذه المجتمعات ، تعتبر مؤسسة الزواج مؤسسة اقتصادية ، حيث توزع الشراكة ما بين الجنسين ، فينال الرجل فيها مسؤولية الصيد والحماية كما تنال المرأة مهمة جمع الثمار والاعتناء بأمور الأطفال والمنزل .

أما في المجتمع الزراعي ، فمصلحة الأسرة تقضي في التجمع لتأمين أكبر قدر من اليد العاملة . في مثل هذه المجتمعات تكون عادة الأسر ممتدة تقوم بدور إنتاجي يتطلب منها بالضرورة التجمع وزيادة النسل والإنتاج لزيادة الربح . مما يجعل لمؤسسة الزواج دوراً يتكامل فيه العديد من أبنائها لتصبح بالتالي وحدة إنتاجية بالمفهوم الحديث Entreprise .

أما الأسرة اليوم فإنها تتجه إلى الاقتصار على الوالدين والأبناء وسبب تحولها إلى أسرة نواتية يرجع إلى ثلاث تحولات رئيسية لحقت بالمجتمع :

ـ طغت عليها مشاعر الود الحميم ما بين الزوجين ، فتقلص بذلك مداها الحيوي ، بحيث اقتصر على الرغبة في الاستقلال العاطفي للزوجين ، وبالتالي المادي والمعنوي لكليهما .

ـ نتيجة لاستقلال الأسرة المادي ، ترسخت مشاعر الأبوة والأمومة ما بين أفرادها حتى أصبح هم الأسرة رعاية الأولاد وإعدادهم للحياة .

ـ لحق تطور للعلاقات ما بين الزوجين مرده مشاعر المساواة ما بينهما والود المتبادل ، مما دفع حتى بأفراد الأسرة الواحدة إلى الاستقلال في اتخاذ القرارات من أجل تحقيق السعادة الفردية والجماعية. ولا يمكن هنا فصل هذه التحولات الرئيسية عن العوامل الاقتصادية التي لحقت بالمجتمع ككل . فتحسين شروط الحياة المادية ، وانفتاح أسواق العمل والعلم على المرأة قد قضيا نهائياً على صورة الزواج التقليدية حيث كان الزواج في نظر المرأة سجناً ، لا يعتد فيه برأيها ولا يؤخذ بعاطفتها أو رغبتها إلا فيما ندر .

إن مؤسسة الزواج اليوم ، تنطوي على مبادىء ومعاني لم تكن تزخر بها إلا نادراً فيما مضى فالمقصود بالزواج اليوم مشاركة من أجل تحقيق السعادة وبناء أسرة تؤمن اندماجهما وتناسق مصالحهما وسط جو من الطمأنينة والتعاون والحب المتبادل ، ينال فيه الرجل دوراً رمزياً يتمثل في الحماية والسلطة والاحترام كما تنال المرأة الوظائف المرتبطة بالنسل والحنو .

إن أهم أسباب انصراف الشباب عن الزواج في المجتمعات المتقدمة سعي الشباب من كلا الجنسين إلى كسب الرزق خارج إطار الأسرة ورغبتهم في تحسين مستوى معيشتهم ، مما دفع بالأم إلى عالم العمل وخلق وضعاً في الأسرة لم يستطع الزوجان التأقلم فيه نتيجة تغير أدوار كليهما .

وكان من نتيجة ذلك اصطدام مصالح الزوجين . فكثرت مشاحناتهما وتخلخل المبـدأ الذي يقضي بالتسليم بما تقدم الأسرة تجاه متطلبات الحياة ، خاصة وقد كثرت تلك التي أملاها التطور الاجتماعي . أضف إلى ذلك مشاعر الاستغلال التي زخرت بها أفكار النساء نتيجة عملهن داخـل وخارج المنزل وقدرتهن على الاستقلال المادي . كل ذلك أدى إلى تفكك الأسرة وعزوف الشباب عن الزواج ، والاعتياض عن ذلك بمساكنه لا تعرض أيـاً منهما لمسـائل قـانونيـة تنتج عن الزواج كالطلاق وتوزيع ممتلكات الزوجين بعد انفصالهما .

وبالرغم عن تطور معدلات الطلاق والمخاللة في المجتمعات الصناعيـة ، يظل الزواج، في معظم المجتمعات الأخرى ، المؤسسة الصالحة التي تفصل ما بين الفرد والمجتمع . فعن طريقها ، نواتية كانت أم ممتدة ، تنتقل للفرد خبرات الأجيال السابقة وتعـد الأجيال الفتيـة للحداثـة وللتطور الاجتماعي .

المراجع

1 - Bernadette Bawin - Legras, «Familles, mariage, Divorce», éd. Pierre Margaga, liège - Bruxelles, 1988.
2 - Rousel, L. «Le mariage dans la société, Française», Paris, INED., 1975.
3 - Copper D., «Mort de la famille», Paris, éd. Points, 1972.
4 - Michel A., «Sociologie de la famille et du mariage», Paris, P.U.F., 1972.
5 - Shorter E., «Naissance de la famille moderne», Paris, Seuil, 1977.
6 - Sole J., «L'amour en occident à l'époque moderne», Paris, Albin Michel, 1976.

مـدخـل
موضوعُ تاريخ العلوم[1]

جورج كانفيلم
تعريب خليل أحمد خليل(*)

إنَّ تـاريخ العلوم ، منـظوراً إليه من الـزاوية التي تقـدّمها **مجمـوعة أعمـالِ مؤتمر** ، يمكنُ اعتباره بمثابة عنوان فصل بدلاً من اعتباره علماً قائماً بذاته أو مفهوماً . وإنَّ عنواناً ينتفخ أو يتمطَّى إلى ما لا نهاية له تقريباً ، لأنه ليس سوى سمةٍ ، بدلاً من أن يكـون مفهومـاً ، ونظراً لأنَّـه يتضمَّن معياراً إجرائيّاً أو اقتضائياً ، فإنه لا يستطيع التنوّع في تـوسّعه دونَ تصـويبٍ في فهمه . وعلى هـذا النحو يمكن أن يُدرج تحت عنـوان تاريـخ العلوم ، وصفُ دليل سـواحل اكتشف حـديثاً وتحليـل موضوعاتيٌ لقيام نظرية فيزيائية ، على حدٍّ سواء . وبالتالي ليس عبثاً التساؤل أولاً عن الفكرة التي يكوِّنها عن تاريخ العلوم أولئكَ الذين يزعمون الاهتمام به إلى حد القيام بصنعه. وحول مـوضوع هـذا الصنع ، من المؤكَّد أنّ عدّة أسئلة قد جرى طرحها منذ أمدٍ بعيد ولا تزال تُطرح. هـذه الأسئلة هي مسائل الـ مَنْ ؟ الـ لماذا ؟ الـ كيف ؟ لكنْ صادفَ أنَّ مسألة مبدئيّة كـان من المفترض طـرحها لم تكَدْ تُطرح قط ، هي مسألة بما ؟ بما يكونُ تاريخُ العلوم هو التاريخ ؟

أمَّا كونُ هذه المسألة لم تُطرح فإنما يعودُ إلى واقع الاعتقاد عموماً بأن جوابَها معطىً بالذات في عبارة تاريخ العلوم أو العلم .

لنذكرْ باختصار كيف تجري ، في معظم الأحيان ، اليوم ، صياغة مسائل الـ من ، الـ لماذا ، الـ كيف .

---

(١) محاضرة في مونتريال ، ألقيت بتاريخ 1966/10/28 ، بدعوةٍ من **الجمعيَّة الكنـدية لتـاريخ العلوم وفلسفتهـا** . وقد جرى تنقيح النصّ والإضافة إليه لأجل هذه الطبعة .

شكّلت إشكاليَّة تاريخ العلوم موضوعَ أعمالٍ ومناقشات ندوة **معهد تاريخ العلوم والتقنيَّات** في جامعة باريس ، ما بين 1964-1965 و 1965-1966 . وكان من المستحيل علينا عدم الإحاطة بها هنـا وهناك وإنَّ قسماً من الحجج المعروضة لاحقاً حول تناول مسائل الـ **مَنْ ؟ الـ لماذا ؟ الـ كيف ؟** ، مستوحىً بوجهٍ خاص من محاضرة للسيد **جاك بيكمال** ، الذي كان آنذاك مُعيداً في تاريخ العلوم .

(*) Georges Canguilhem, Etudes d'histoire et de Philosophie des sciences, éd. Vrin Paris, 1983, pp. 9-23.

إنَّ السؤال مَنْ ؟ يقود إلى السؤال أين ؟ بكلام آخر نقول : إنَّ شرط البحث والتعليم لتاريخ العلوم ، حسبما يكون الإحساسُ به في هذا المجال المتخصّص أو ذاك من مجالات المعرفة ، يفضي إلى تدجينه هنا وهناك في فضاء المؤسسات الجامعيَّة . فقد شدَّد السيد برنهارد ستيكر (B. Sticker) ، مدير معهد تاريخ العلوم في هامبورغ على التناقض بين الوجهة والطريقة(١) . ربّما يَفْتَرضُ بوجهته أن يكون تُموضع تاريخ العلوم في كليَّة العلوم ، وبطريقته أن يكون تموضعه في كليَّة الفلسفة . ولئن اعتبر صنفاً في نوع ، فقد يتعيَّن على تاريخ العلوم أن يكون مكانه في معهد مركزي للفروع التاريخية . وفي الواقع ، إنَّ الاهتمامات التخصصيّة للمؤرّخين من جهة ، وللعلماء من جهة ثانية ، لا تقودهم إلى تاريخ العلوم إلاَّ بطريق جانبية . فالتاريخ العام هو في المقام الأول تاريخ سياسيّ واجتماعيّ ، مُتمِّم بتاريخٍ للأفكار الدينية أو الفلسفيّة . إنَّ تاريخ مجتمع ككل ، من حيث مؤسساته الحقوقيَّة، واقتصاده وديموغرافيته، لا يستلزمُ بالضرورة تاريخ الطرائق والنظريات العلميّة بحد ذاتها ، حتى وإن كانت المنظومات الفلسفية على صلةٍ بالنظريات العلمية الشائعة، أي مسوَّقة في فكرويَّات (ايديولوجيات) . ومن جهة ثانية ، ليس أهل العلم بحاجة إلى تاريخ العلوم ، بصفتهم أهل علم ، وبمعزلٍ عن الحد الأدنى من الفلسفة الذي من دونه قد لا يمكنهم الكلامُ على علمهم مع محاورين غير علميّين . فمن النادر جداً ، خصوصاً في فرنسا ، باستثناء بورباكي ، أنْ يستدخلوا نتائجه في عَرْضِ أعمالهم المتخصّصة . ولئن صاروا ، مصادفةً ، مؤرّخي علوم فإن ذلك يكون لأسباب خارجة عن موجبات بحثهم الجوهريَّة . وعندئذٍ لا يكونُ المثالُ مفتقداً إذا ما قادتهم كفاءتهم إلى اختيار مسائل ذات أهمية أوليَّة . فتلك كانت حالُ بيار دوهيم (P. Duhem) في تاريخ الميكانيك ، وكارل سودوف (K. Sudhoff) وهارفي كوشينغ (H. Cushing) في تاريخ الطب . وأما الفلاسفة فبإمكانهم الوصول إلى تاريخ العلوم ، إما تقليدياً ومداورةً من خلال تاريخ الفلسفة ، وذلك بقدْر ما تتطلب تلك الفلسفة ، في عصرها ، وتستلزم من علمٍ منتصرٍ أن ينوِّرها حول مسالك ووسائل المعرفة المناضلة ، وإما مباشرةً أكثر من خلال الابيستمولوجيا (علم المعرفة) ، بقدر ما يشعر هذا الوعيُ الانتقاديّ للمنهجيَّات الحالية لعلم متناسب مع موضوعه ، أنَّه معنيٌّ بالاحتفاء بسلطته من خلال التذكير بالمصاعب التي أخَّرت تقدّمه وفتحه . ومثال ذلك ، إذا كان عالمُ الأحياء ، وأقل منه الرياضيُّ الأرجحيّ ، قلَّما يُعنى بالبحث عمَّا حال دون تمكين أوغيست كونت وكلود برنار من التسليم ، في القرن التاسع عشر ، بصلاحية الحساب الإحصائي في علم الأحياء ، فإن الأمر مختلفٌ بالنسبة إلى ذلك الذي يتناول ، في الابيستمولوجيا ، السببيَّة الترجيحية في علم الأحياء . لكنْ يبقى أنْ نبيّن ـ وسنحاول أن نبيّن لاحقاً ـ أنَّ الفلسفة إذا كانت تقيمُ مع تاريخ العلوم علاقةً مباشرةً أكثر من العلاقة التي يقيمها التاريخ أو العلم ، فإنما يتمُّ ذلك بشرط القبول من جرَّاء ذلك بمقامٍ جديد لعلاقتها بالعلم .

---

(٢) Die Stellung der Geschichte der Naturwissenschaften in Rahmen unsern heutigen Universitäten, in **Philosophia naturalis**, VIII, 1/2, 1964, s. 109-116.

إنَّ جواب السؤال لماذا ؟ موازٍ لجواب السؤال مَنْ ؟ فهناك ثلاثةُ أسباب لصنع تاريخ العلوم : تاريخية ، علميّة ، فلسفيّة . إنَّ السبب التاريخي ، الخارجيّ بالنسبة إلى العلم ، بوصفه خطاباً مُحقَّقاً حول قطاع محدود من الاختبار ، إنَّما يكمنُ في ممارسة الاحتفاءات التذكاريَّة ، في واقع الخصومات على صعيد البحث عن أبويَّة فكريَّة ، في معارك الأوليَّة ، كتلك التي ذكرها جوزيف برتران (J. Bertrand) في تقريظه الأكاديمي لـ نيبل هنريك آبل (N. H. Abel) ، والتي تتعلَّق باكتشاف الوظائف الإهليليجيَّة سنة 1827 . إنَّ هذا السبب واقعة أكاديميَّة ، مرتبطة بوجود وبوظيفة الأكاديميات وبكثرة الأكاديميَّات الوطنيَّة . وهناك سببٌ علميّ أكثر صراحةً ، عاناهُ العلماءُ بوصفهم باحثين لا بوصفهم أكاديميّين . إنه ذلك الذي يتوصَّل إلى نتيجةٍ نظريّةٍ أو اختبارية غير ممكنة التصوّر حتى الآن ، تبلبل قريناتها المعاصرة ، ولا تحظى بأي دعم ، نظراً لانعدام الإبلاغ الممكن ، في الحاضرة العلميَّة . وبما أن العالِمَ يتعيَّن عليه أن يؤمن بموضوعيَّة اكتشافه ، فإنه يبحث عمَّا إذا كان ما يغامرُ في التفكير به ، لم يكن قد جرى التفكّر به من قبل ، فهو حين يسعى إلى اعتماد اكتشافه وإناطته بالماضي ، فذلك ناجمٌ آنياً عن عدم تمكّنه من اعتماده في الحاضر ، فإنما يخترعُ أسلافه المخترعين . وهكذا عاود هيجو دوفري (Hugo devries) اكتشاف المندليَّة واكتشف مندل (Mendel) . أخيراً ، يعود السبب الفلسفي المحض إلى كون نظرية المعرفة قد تكون ، دون الرجوع إلى الابيستمولوجيا ، تأملاً في الفراغ ، وإلى كون الابيستمولوجيا قد تكون دون علاقةٍ بتاريخ العلوم ، صنواً نافلاً تماماً للعلم الذي قد تدَّعي مخاطبته .

يمكنُ فهم العلاقات بين تاريخ العلوم والابيستمولوجيا في اتجاهين ومعنيين متعاكسين ، يعتقد ديجكسترويس (Dijksterhuis) صاحب كتاب Die Mechaniesierung des welt bildes ، بأن تاريخ العلوم ليس فقط ذاكرة العلم ، لكنَّه أيضاً مختبرُ الابيستمولوجيا . ولطالما جرى إيراد الكلمة ، وحظيت الأطروحة بتأييد كثير من المختصّين ، ولهذه الأطروحة سابقةٌ أقلّ شهرةً . فقد أعلن فلوران (Flaurens) في تقريظه كوفييه (Cauvier) ، مستنداً إلى **تاريخ العلوم الطبيعية** ، الذي صدر عن مجدلين ده سانت آغي ، أنَّ وضع تاريخ العلوم يعني « وضع العقل البشري موضع اختبار . . . يعني صنع نظرية اختباريَّة للعقل البشري » ، إن تصوّراً كهذا يعني نسخ علاقة تاريخ العلوم بالعلوم التي هو تاريخها ، عن علاقة العلوم بالأشياء التي هي علومها . عملياً ، تكون العلاقة الاختبارية واحدةً من هذه العلاقات ، ولا بدّ من القول إنَّ هذه العلاقة بالذات هي التي يتعيَّن استيرادها ونقلها من العلم وزرعها في التاريخ . زدْ على ذلك أن هذه الأطروحة في الطرائقيَّة (الميتودولوجيا) التاريخيَّة تفضي ، لدى المدافع الحديث عنها ، إلى هذه الأطروحة الابيستمولوجية القائلة بوجود منهج علمي خالد ، يغفو في بعض العصور ، ويكون مستيقظاً وفاعلاً في عصور أخرى . إنها أطروحة يعتبرها جرد بوشدال (Gerd Buchdall)[1] ساذجةً ، هذا إذا كان من

---

(1) On the Presuppositions of Historians of Science, éd. by Crombie and Hoskin, I, 1962, p. 67-77.

الممكن التواضع على أنَّ التجريبية أو الوضعية التي تلهمها يمكن اعتبارها ساذجةً هي الأخرى . وإننا لا ننذّد هنا بالوضعيَّة دونما دافع . إذْ قام بيار لافيت (P. Lafitte) ، التلميذ الأكيد لأوغيست كونت ، بين فلوران وديجكسترويس ، بتعريف دور تاريخ العلوم بوصفه دور « مجهر عقليّ »[1] يقوم بإدخال التأخير والمسافة في العرض الجاري للمعرفة العلميّة ، من خلال كشفه الفعّال عن المصاعب التي تُصادَف وتُواجه في ابتكار هذا العلم ونشره . ومع صورة المجهر ، نمكثُ داخل المختبر ، ونجد فرضيَّةً وضعيَّةً في الفكرة القائلة إنَّ التاريخ هو فقط زرعٌ للديمومة في عرض النتائج العلميّة . فالمجهر يقدّم التكبير لتوسُّعٍ معطىً من دونه ، وإن كان لا يراه أحدٌ سواه . هنا أيضاً يكون تاريخُ العلوم بالنسبة إلى العلوم ما يكونه جهازُ رصد علمي بالنسبة إلى أشياء باتت مكوَّنةً .

يمكن أن نعارض نموذجَ المختبر ، لكي نفهم وظيفة ومعنى تاريخ علوم ، بنموذج المدرسة أو المحكمة ، نموذج مؤسسةٍ ومكانٍ تصدر فيهما أحكام على ماضي المعرفة ، على معرفة الماضي . ولكن لا بدّ من قاضٍ هنا . إنَّ علم المعرفة هو المدعو لتزويد التاريخ بمبدأ اقتضاء ، من خلال تلقينه آخر لغةٍ يتكلّمها العلمُ الفلاني ، الكيمياءُ مثلاً ، ومن خلال السماح له بالتراجع ، هكذا ، نحو الماضي الذي تتوقَّف فيه هذه اللغة عن كونها معقولة أو قابلة للترجمة إلى أية لغة أخرى ، أكثر تراخياً أو عموميَّة ، كانت تُحكى في زمن سالف . إنَّ لغة كيميائيي القرن التاسع عشر تجد إجازاتها الدلاليَّة في المرحلة السابقة لـ لافوازييه لأن لافوازييه قد أسّس مدوّنة اصطلاحيَّة جديدة . والحال ، لم يكن قد لوحظ وجرى الاعجاب بكون لافوازييه ، في الخطاب الاستهلاليّ للرسالة الأوليَّة في الكيمياء ، قد تحمَّل في آنٍ مسؤوليَّة قرارين كانت قد أضرّته أو كان يمكنها أن تضرّه ، مسؤولية « تغيير اللغة التي كان معلّمونا قد تكلّموها » ومسؤولية عدم الإتيان في رسالة الكيمياء على ذكر « أية لمحة تاريخية عن رأي أولئك الذين سبقوه » ، كما لو أنه كان قد أدرك ، على الطريقة الديكارتية ، أنَّ تأسيس معرفة جديدة وقطعها عن كل صلة مع ما كان يملأُ الساحةَ بشكل مفرط ، هما شيء واحد . وبالتالي ربما يكون مستحيلاً ، دون علم المعرفة ، اكتناه وتمييز نوعين من التواريخ الموسومة بتواريخ العلوم ، تاريخ المعارف البائدة ، وتاريخ المعارف المُصدَّقة ، التي لا تزال راهنةً لأنها فاعلة . إنَّ غاستون باشلار هو الذي عارض التاريخ البائد بالتاريخ المُصدَّق[2] ، تاريخ الواقعات التجريبية أو المفهوميَّة العلميَّة المقوَّمة في علاقتها بالقيم العلميَّة الطازجة . ولقد وجدت أطروحة غاستون باشلار تطبيقها وتمثيلها في عدَّة فصول من مؤلفاته الابيستمولوجية[3] .

---

(١) خطاب افتتاح محاضرات تاريخ العلوم العام ، في الكوليج دو فرانس (26 آذار / مارس 1892) ، في «Revue accidentale» 1er mai 1892, p. 24.

(٢) **المنشط العقلاني للعلم المعاصر** L'activité Rationaliste de la Science ، ص 25 . راجع أيضاً **راهنيَّة تاريخ العلوم** l'actualité de l'histoire des sciences (محاضرة في قصر الاكتشافات) .

(٣) انظر لاحقاً الدراسات المخصَّصة لغاستون باشلار .

أما الفكرة التي كوّنها ألكسندر كويري (A. Koyré) عن تاريخ العلوم والتي تمثّلتها مؤلفاته ، فهي ليست مختلفة جوهرياً ، فعلى الرغم من كون ابيستمولوجيا كويري كانت أقرب إلى ابيستمولوجيا ميرسون (Meyrson) منها إلى ابيستمولوجيا باشلار ، وأكثر تحسساً بتواصل الوظيفة العقلانية من تحسّسها جدليّة المنشط العقلاني ، فإنه جرى ، بالاعتماد عليها ، وضع كتابي دراسات غاليليَّة والثورة الفلكيَّة . وفوق ذلك لا يخلو من فائدة أنْ يلاحظ ، لكي ننزع كلَّ مظهرٍ لواقعة عَرَضيَّة أو ذاتية عن التباين في تقويم الانقطاعات المعرفيَّة ، أنَّ كويري وباشلار قد اهتما عموماً بمراحلَ من تاريخ العلوم الصحيحة المتعاقبة والمتفاوتة السّلاح أمام المعالجة الرياضيَّة للمسائل الفيزيائية . بدأ كويري من كوبرنيك وانتهى عند نيوتن ، حيث بدأ باشلار ، بحيث أنَّ التوجيه المعرفي للتاريخ حسب كويري يمكنه الإفادة في التحقُّق من رأي باشلار . الذي يعتبرُ أن تاريخ علوم تواصلية هو تاريخُ علوم فتيَّة. إنَّ الأطروحات المعرفية لكويري المؤرّخ تقول أولاً إنَّ العلم نظرية وإنَّ النظرية في جوهره ترييض ـ مثال ذلك أنَّ غاليليه أرخميديٌّ أكثر مما هو أفلاطونيّ ـ ، وتقول ثانيا إنه لا يوجد اقتصادٌ ممكن في الخطأ على طريق الوصول إلى الحقيقة العلميَّة . إن صنع تاريخ نظرية يعني صنع تاريخ متاهات المُنظِّر وتردّداته . « كوبرنيك . . . ليس كوبرنيكيّاً »[1] ، وحين تُذكَرُ صورة المدرسة أو المحكمة لتمييز وظيفة ومعنى تاريخ علومٍ لا يمنع نفسه من إصدار أحكام قيميَّة علميّة ، يكون من المُستحسن تجنّب ازدراءٍ محتمل ، فأيّ حكم ، في هذه المادة ، ليس استئصالاً ولا إعداماً . فتاريخ العلوم ليس التقدّم المقلوب للعلوم ، أي ليس إبرازاً عند الأفق لمراحل تمّ تجاوزها ويمكن أن تكون حقيقتها ، اليوم ، نقطة هروب ، بل هو جهدٌ للبحث والاكتناه ولإفهام الآخر في أية حدودٍ كانت المفاهيم أو المواقف أو الطرائق المُتجاوزة ، تجاوزاً وتخطياً في عصرها ، وبالتالي بماذا يبقى الماضي المُتخطّى ماضي نشاط يتوجب أن نحتفظ له باسم ماضٍ علمي . إنَّ فهم ما كانه درسُ اللحظة مماثلٌ في أهميّته لعرض أسباب التقويض التالي .

كيف يُصنع تاريخُ العلوم وكيف يتعيَّن أنْ يُصنع ؟ إنَّ هذا السؤال لا يزال يلامس ، عن كثب أكثر ، السؤال التالي : ممَ يُصنَعُ التاريخُ في تاريخ العلوم ؟ في الواقع ، غالباً ما يفترضُ سؤالنا هذا أنَّ المسألة محلولة ، على ما يبدو ، فقط لأنّها لم تُطرح . هذا ما ظهر في بعض السجالات التي تعارض بين أولئك الذين يدلّ عليهم الكتّابُ الانجلوسكسونيّون باسم **أهل الظاهر** (Externalistes) **وأهل الباطن** (Internalistes)[2] . فالمذهب الظاهري (Externalistme) هو طريقة في كتابة تاريخ العلوم تشترطُ عدداً معيَّناً من الأحداث ـ التي يواصلون تسميتها علميّةً بحكم التقليد لا بحكم التحليل الانتقاديّ ـ بعلاقاتها مع مع المصالح الاقتصادية والفوائد الاجتماعية ، مع المستلزمات والممارسات التقنيّة مع الفكرويّات الدينيَّة أو السياسيَّة . إنها ، بوجه الإجمال ، ماركسيَّة ضامرة أو

---

(١) La Révolution astronomique, p. 69.

(٢) Cf. L'article déjà cité de Gerd Buchdahl.

بـالحـريّ مُفقـرة ، يجـري تـداولهـا في المجتمعـات الغنيَّـة[1] . ويكمن المـذهبَ البـاطنيّ (Internalisme) ـ الذي يعتبره أهل الظاهر بمثابة مثالية ـ في القول بعدم وجود تاريخ للعلوم ، إذا لم يضـع المرءُ نفسـه داخل العمـل العلمي بالـذات لكي يحلّل مسيراتـه التي يسعى من خلالهـا إلى التجاوب مع المعايـير العلميَّة التي تسمح بتعريفه كعلم وليس كتقنية أو فكرويَّة . في هذا المنظار ، يتعيَّنُ على مؤرّخ العلوم أن يتبنَّى موقفاً نظريّاً مما يؤخذ على أنَّه واقعة نظريَّة ، وبالتالي يتعيَّن عليه استعمال فرضيَّات ، جذور وأصول ، على غرار العلماء أنفسهم .

من البيّن أن هذا الموقف وذاك يـؤلان إلى جعل موضوع تاريخ العلوم مماثلاً لموضـوع أي علم وغرضه . فالظاهريُّ يرى تاريخ العلوم كأنه تفسير لظاهرة ثقافية بشرطيَّة البيئة الثقافية الشاملة ، ومن ثمَّ يماثله بسوسيولوجيا طبيعية للمؤسسات ، متجاهلاً تماماً التأويل لخطاب يـدّعي الحقيقة . والباطنيّ يرى في واقعات تاريخ العلوم ، مثلاً وقـائع الاكتشـاف المتزامن (الحسـاب اللامتنـاهي الصّغر ، حفظ الطاقة) واقعاتٍ لا يمكنُ صنعُ تاريخها بدون نظريَّة . وبالتالي هنا تُعالج واقعةُ تاريخ العلوم كواقعة علميَّة ، وفقاً لموقع ابيستمولوجي قوامه إبراز النظرية وتميـيزها بالنسبـة إلى المعطى التجريبي .

والحال إنَّ ما يتعيَّن أن يكون موضع تساؤل ، هو الموقف الذي يمكن وصفه بالعفويّ ، وشبه العام في الواقع ، والذي يقوم على جعل التاريخ منحازاً للعلم عندما يتعلَّق الأمرُ بعلاقة المعرفة مع موضوعها . ولنتساءل بالتالي لأي شيء بالضبط يؤرّخ تاريخ العلوم .

* * *

عندما يُحكى عن علم البلوريَّات ، لا تكونُ العلاقةُ بين العلم والبلوريَّات علاقة توليديَّة كما هو الحال عندما يحكى عن علاقة الأم بقطةٍ صغيرة. إنَّ علم البلوريَّات هو خطابٌ في طبيعة البلوريَّات المعتبـرة في تماهيهـا مع ذاتهـا، بوصفهـا معدنيَّـات مختلفة عن النبـات والحيـوان، ومستقلة عن كـل استعمال يلجأ إليه الإنسان ويفيد منها دون أن تكون مخصَّصةً له بشكل طبيعي . وانطلاقاً من الفترة التي تكوّنت فيها الكريستالوغرافيا ، المنظورُ البلوريُّ ، الكيمياء المعدنيَّة ، كعلوم ، صارت طبيعـة البلوريّات هي محتوى علم البلّور ، أي عرضاً لمقترحات موضوعيَّة وضعها عملُ فرضيَّاتٍ وتحقّقاتٍ منسيٌ لصالح نتائجه . عندما كتبت هلين متزجـر (H. Metzeger)[2] La Genèse de la Science des Cristaux ، **سفـر علم البلوريّات** ، ألَّفت خـطابـاً في الخـطابـات المستمسـك بهـا حـول طبيعـة البلوريّـات ، الخطابـات التي لم تكن أولاً الخطابـات الصالحـة التي صارت بمـوجبها البلوريّـاتُ

(١) في سبيل نقد للمظهريَّة الخارجيَّة ، راجع Koyré, Perspectives sur l'histoire des Sciences, in Études de la pensée scientifique, Paris, 1966.

حيث يتعلّق الأمر بتعليق على نص مقدَّم من :

Henri Guerlac, Some Historical Assumptions of the History of Science, in Scientific change ed. by A.C. Crombie, Heinmenn, London, 1963.

(٢) Paris, Alcan, éd. 1918.

الموضوع المعروضَ في علمها . وبالتالي فإن تاريخ العلوم هو تاريخ شيءٍ يكون تاريخاً ويكون له تاريخ ، بينما يكون العلم علم شيءٍ /موضوع / غرض / لا يكون تاريخاً ولا يكون له تاريخ .

إنَّ البلوريّات شيء معطى ، فحتى إن كان لا بد من الإحاطة في علم البلوريّات بتاريخ للأرض وبتاريخ للمعادن ، فإن زمن هذا التاريخ هو ذاته شيء بات معطىً هنا . وهكذا للشيء البلوريّ ، بالمقارنة مع العلم الذي يتّخذه موضوعاً لمعرفة يجب تحصيلها ، استقلاله بالنسبة إلى الخطاب ، الأمر الذي يؤدي إلى وصف الشيء بأنه طبيعي(١) . إن هذا الشيء الطبيعي ، بمعزلٍ عن كل خطابٍ يُقال فيه ، ليس هو الشيء / الموضوع العلمي ، بكل تأكيد ، فالطبيعة بحدِّ ذاتها غير مجزَّأة وموزّعة على أشياء وظواهر علميَّة . فالعلم هو الذي يكوّن موضوعه انطلاقاً من اللحظة التي يبتكر فيها منهجيَّة وطريقةً لكي يكوِّن ، من طريق المقترحات القادرة على التكوُّن بشكل كامل ، نظريةً يضبطها الاهتمامُ بعدم أخذها خطأً . وتتكوّنُ الكريستالوغرافيا اعتباراً من اللحظة التي يُحدَّد فيها النَّوع البلوريّ بثبات زاوية الوجوه ، بمنظومات التوازي ، بتواتر الأضلاع البلوريّة في القمم وفقاً لنظام التوازي ، يقول هاوي (Haüy) : « إنَّ النقطة الجوهرية هي أنَّ النظرية والتبلور ينتهيان إلى التلاقي والتوافق مع بعضهما »(٢) .

وليس للموضوع في تاريخ العلوم أيّ شيء مشترك مع موضوع العلم . فالغرضُ العلميّ ، المكوّن من جرّاء الخطاب المنهجي ، هو ثانٍ ، على الرغم من عدم اشتقاقه ، بالنسبة إلى الغَرَض الطبيعي ، الأوليّ ، والذي يمكن أن يسمى طوعياً ، بالتلاعب على المعنى ، قبل ـ النص // ذريعة (Pré-texte) . إنَّ تاريخ العلوم يدور حول هذه الأغراض الثانوية ، غير الطبيعيَّة ، الثقافية ، ولكنَّه لا ينحدر منها ، كما أن هذه الأغراض لا تصدرُ عن الأولى ، إنَّ غرضَ الخطاب التاريخي هو ، بالتالي ، تاريخية الخطاب العلمي ، بحيث أنَّ هذه التاريخيَّة تمثّل إنجاز مشروع مُعقَّدٍ / مُعيَّرٍ داخلياً ، لكنَّه مُخترقٌ بالحوادث ، تؤخره الصعابُ أو تغيّر وجهتَه ، وتتخلّله أزماتٌ ، أي فتراتُ قضاءٍ وتحقُّق ، وربما لم يُلاحظ بشكل كافٍ أنَّ ولادة تاريخ العلوم كنوعٍ أدبيّ ، في القرن الثامن عشر ، كانت تفترضُ ظروف الإمكانية التاريخية ، أي كانت تفترضُ ثورتين علميّتين وثورتين سياسيّتين ، لأنَّه لم يكن يكفي لذلك أقل من ثورتين ، في الرياضيات ، هندسة ديكارت الجبريَّة ، وحساب اللامتناهي عند ليبنيز / نيوتن ؛ وفي الميكانيك وعلم الفلك ، **مبادىء** ديكارت و**مبادىء** نيوتن . وفي الفلسفة ، وبشكل أدقّ في نظرية المعرفة ، أي في نظرية أساس العلم ، كان لا بدّ من الفطرية الديكارتية ومن مذهب لوك الحسيّ . فبدون ديكارت ، بدون تمزيق التراث ، ما كان يمكنُ

---

(١) مما لا شك فيه أنَّ شيئاً طبيعياً ليس طبيعياً بطبيعته ، فهو موضوع اختبار عملي وموضوع إدراك في ثقافةٍ ما ، مثال ذلك أنَّ الشيء المعدنيّ والشيء البلوريّ ليس لهما وجود له دلالته خارج منشط قلّاع الحجارة أو المنجميّ ، خارج العمل في التعدين أو المنجم ، وإن التوقّف هنا عند هذا الأمر العاديّ قد يشكّل استطراداً .

(٢) ورد عند هـ . متزغر ، مصدر سابق ، ص 195 .

لتاريخ العلم أن يبدأ(١). ولكنْ في رأي ديكارت ، المعرفة لا تاريخ لها . كان لا بدّ من نيوتن ، ومن دحض علم الفلك الديكارتيّ، حتى يظهر التاريخ ، كإنكار للبداية المطلوبة ضد أصول مرفوضة ، بوصفه بُعْداً من أبعاد العلم . إنَّ تاريخ العلوم هو الاستيعاء الصريح (Prise de Conscience) ، المعروض كنظرية ، لواقع أنَّ العلوم هي خطابات انتقاديَّة وتقدميَّة لتحديد ما يجب اعتباره حقيقياً في التجربة . إنَّ موضوع تاريخ العلوم هو بالتالي غَرَض غير معطىً هنا ، غرضٌ يكونُ النقصُ جوهرَه . ففي أي حال لا يمكن لتاريخ العلوم أن يكون تاريخاً طبيعياً لغرَض ثقافيّ . وهو غالباً ما يُصنع بوصفه تاريخاً طبيعياً ، لأنَّه يماثل العلمَ مع العلماء ، والعلماء مع سيرتهم المدنيَّة والأكاديميَّة ، أو لأنه يماهي العلمَ مع النتائج ، والنتائج مع منطوقه التربوي الراهن .

لا يمكن تحديد موضوع مؤرخ العلوم إلَّا بقرارٍ يحدّد له فائدته وأهميَّته . وهو كذلك دائماً ، في الصميم ، حتى في الحالة التي لا يخضع فيها هذا القرار إلَّا لتراثٍ محفوظ بلا نقد . ولنضرب مثلاً على ذلك ، مثال تاريخ تقديم الرياضيات الترجيحيَّة وامتدادها في علم الأحياء وفي علوم الإنسان في القرن التاسع عشر(٢)، فموضوع التاريخ هذا لا ينتسب إلى أيٍّ من العلوم المكوّنة في القرن التاسع عشر ؛ وهو لا يتطابق مع أي غَرَض طبيعي يمكنُ لمعرفته أن تكون الجواب أو الحشو الوصفي ، وبالتالي ، فإنَّ المؤرخ يكوّن بنفسه موضوعاً انطلاقاً من حالة راهنة للعلوم الإحيائيَّة والإنسانيَّة ، وهي ليست النتيجة المنطقية ولا الحصيلة التاريخية لأية حالة سابقة من علم مميّز ، لا من رياضيات لابلاس ، ولا من بيولوجيا داروين ، ولا من فيزياء فخنر النفسية ، ولا من اثنولوجيا تايلور ، ولا من علم اجتماع دوركيم . ولكن في المقابل ، لا يمكن للمقايسة الإحيائية (Biométrie) ولا للمقايسة النفسية (Psychométrie) أن تؤسسا على أيدي كتلي ، فالتون ، كاتل ، وبيني ، إلَّا انطلاقاً من اللحظة التي تعيّن فيها على ممارسات غير علمية أن تقدّم للنّظر مادة منسجمة وقابلة لمعالجة رياضية . إنَّ القامة البشرية ، التي كانت موضوع دراسة كتلي (Quêtlet) ، تفترض قيام الجيوش القوتية والتجنيد ، كما تفترض وجود الأهميَّة المناطة بالمعايير الإصلاحيّة . أما الاستعدادات الفكرية ، وهي موضوع دراسة بيني (Binet) فتفترض قيام التعليم الابتدائي الإلزامي والأهمية المناطة بالمعايير التأخريّة ، وبالتالي ، فإن تاريخ العلوم ، وبقدر ما يُطبّق على الموضوع المحدَّد أعلاه ، لا يكون متعلّقاً فقط بمجموعة علوم بلا تماسك ذاتي بل يكون متعلّقاً أيضاً باللاعلم، بالفكروية، بالممارسة السياسية والاجتماعية . وهكذا لا يكون لهذا الموضوع مكانه النظري الطبيعي في هذا العلم أو ذاك ، حيثما يمكن للتاريخ أن يمضي لاقتطاعه ، ولا أيضاً في السياسة أو علم التربية ، إن المكان النظري لهذا الموضوع لا ينبغي البحث عنه في مكان آخر غير تاريخ العلوم ذاته ، لأن التاريخ ، وحده فقط ، هو الذي يشكّل المجال المتخصّص حيث تُثار

---

(١) انظر لاحقاً ، الدراسة حول **فونتنل** ، ص 55 .

(٢) إنّه جزئياً موضوع دراسة يقوم بها جاك بيكمال .

المسائل النظرية التي طرحتها الممارسة العلميّة من خلال صيرورتها[1] ، فقد ابتكر كتلي ، سندل ، بيني ، وسيمون علاقات غير متوقّعة بين الرياضيّات وممارسات غير علميّة بدايةً : النخب ، التهجين ، التوجية . وكانت اختراعات أجوبة مسائل طرحوها على أنفسهم في لغةٍ كان عليهم أنْ يمنحوها شكلها . وإن الدراسات النقدية لهذه المسائل وهذه الأجوبة هي الموضوع الخاص بتاريخ العلوم ، الأمر الذي يكفي لاستبعاد الاعتراض المحتمل من جانب تصوّرات خارجيَّة / ظاهرية .

ولا ريب أنَّ تاريخ العلوم يمكنه التفريق والتسليم بعدَّة مستويات لأغراض ومواضيع في المجال النظري المتخصص الذي يكوّنه ، وثائق يتعيَّنُ تصنيفها ؛ أدوات وتقنيّات ينبغي وصفُها ؛ مناهج ومسائل يجب تأويلها ؛ مفاهيم يلزم تحليلها ونقدها . وإن هذه المهمة الأخيرة تنيطُ بالمهام السابقة جدارة تاريخ العلوم وشرفه ، فالتهكّم على الأهمية المناطة بالمفاهيم لأسهلُ من فهم عدم وجود علم من دونها . وليس تاريخ الأدوات أو الأكاديميات من تاريخ العلوم إلاَّ إذا رُبط باستعمالاته وتوجّهاته مع النظريّات . لقد كان ديكارت بحاجة إلى فريه (Ferrier) لكي يصقل الزجاجات البصريَّة ، لكنَّه هو الذي وضع نظريات المنحنيات التي ينبغي الحصول عليها بالصقل .

ويمكن لتاريخ نتائج المعرفة ألاَّ يكون سوى تسجيل زمني / إخباري . أما تاريخ العلوم فيتعلَّق بنشاط تقويمي علمي ، بالبحث عن الحقيقة ، وان النشاط العلمي يظهر بصفته هذه على مستوى المسائل والمناهج والمفاهيم . لهذا لا يمكن لزمان تاريخ العلوم أن يكون شبكة جاهزة للمجرى العام للزمان . فالتاريخ الإخباري / الزمني للآلات أو للنتائج يمكن تقطيعه وفقاً لحقبات التاريخ العام . وأما الزمن الأهلي / المدني الذي تندرج فيه سيرةُ العلماء فهو نفسه بالنسبة إلى الحقيقة ولكنَّ زمن حلول الحقيقة العلميّة ، زمن التحقق من الحقيقة ، له سيولته ولزوجته المختلفتان بالنسبة إلى مختلف العلوم في حقبات واحدة من التاريخ العام . إن التبويب التحقيبي للعناصر حسب مندلييف (Mendéléev) . عجَّل في مسيرة الكيمياء وهزَّ الفيزياء الذريَّة ، بينما كانت علوم أخرى لا تزال تحافظ على طابع مُتصنِّع . وهكذا كان تاريخ العلوم ، تاريخ العلاقة التصاعدية بين العقل والحقيقة ، يفرز زمانه بنفسه ، وكان يفرزه بشكل مُغاير وفقاً للحظة التقدّم التي ينطلق منها لكي ينيط نفسه بمهمّة إحياء ما كانت اللغة اليومية لا تزال تجيز فهمه في الخطاب النّظري السابق . إنَّ ابتكاراً علميًّا يُرقّي بعض الخطابات غير المفهومة في اللحظة التي أطلقت فيها ، مثل خطاب غرغور مندل ، إنما يلغي خطباً أخرى كان مؤلّفوها يعتقدون مع ذلك أنهم سيكوّنون مدرسة . ولا يمكن لمعنى الانقطاعات والتوليدات التاريخيّة أنْ تتنزّل على مؤرخ العلوم من مكان آخر إلاَّ من

---

(١) « تدخل الممارسة النظريَّة في التعريف العام للممارسة ، إنها تعمل على مادة أوليَّة (تمثّلات ، مفاهيم ، وقائع) تمدُّها بها ممارسات أخرى ، إما « تجريبية » وإما « تقنيَّة » وإما « فكرويَّة » . . . وإن الممارسة النظريَّة لعلمٍ ما تمتاز دائماً بوضوح من الممارسة النظريَّة الفكروية لما قبل تاريخه » .

Louis Althusser, Pour Marx, Paris, 1965.

احتكاكه واتصاله بالعلم الطازج . ويجري الاتصال من خلال علم المعرفة ، شرط أن يكون علماً متنبّهاً وجسوراً ، كما علّم غاستون باشلار . وان تاريخ العلوم ، المفهوم على هذا النحو ، لا يمكنه إلّا أن يكون هشّاً ، مدعواً إلى تصويب ذاته . أما بالنسبة إلى الرياضي الحديث ، فإن علاقة التعاقب بين طريقة أرخميدس الشموليّة والحساب اللامتناهي الصّغر ليست ما كانته بالنسبة إلى مونتيكلا (Montucla) ، أوّل مؤرّخ كبير للرياضيّات . ذلك أنه لا يوجد تعريف ممكن للرياضيّات قبل الريّاضيات ، أي قبل التعاقب الذي لا يزال جارياً بين الابتكارات والقرارات التي تكوّنُ الرياضيّات . لقد قال جان كافيس (Jean Cavaillès) : « إنّ الرياضيّات صيرورة »[1] . في هذه الشروط ، لا يمكن لمؤرّخ الرياضيّات إلّا أن يأخذ من الرياضيّ الحاليّ التعريف الظرفي لما يكونُ رياضيّاً . ولذا ، فإنّ كثيراً من الأعمال التي كانت تُهمّ الرياضيّات في الماضي ، تفقد أهميتها الرياضيّة ، وتغدو تطبيقاتٍ غثّة في نظر صرامةٍ جديدة .

يُطلب من كل نظريّة ، بحقّ ، أنْ تقدّم براهينَ فعاليتها العمليّة ، وبالتالي ما هو الأثرُ العملي ، في نظر مؤرّخ العلوم ، لنظريّة تنزع إلى الاعتراف باستقلاليّة علمٍ كهذا يشكّل الميدانَ الذي تُدْرَسُ فيه المسائلُ النظريّة التي تطرحها الممارسةُ العلميّة ؟ إنّ إحدى النتائج العمليّة الأكثر أهميّة هي تصفية وإزالة ما أسماه ج . ت . كلارك (J. T. Clark) « جرثومة الرائد »[3] وعند الاقتضاء ، إن كان ثمة روّاد فإن تاريخ العلوم قد يفقدُ كل معنى ، طالما أن العلم ذاته لا يملك بُعْداً تاريخياً إلّا في الظّاهر . ولئن كان في الأزمنة القديمة ، في عصر العالم المُغْلَق ، قد أمكن لأحدهم أن يكون ، في علم الفلك ، رائداً لمفكّر في عصر العالم اللامتناهي ، فإنّ دراسة تاريخ العلوم والأفكار مثل دراسة ألكسندر كوبري[1] قد تكون مستحيلة . فربّما يكون رائدٌ ما مفكّراً ، باحثاً قد سار في الماضي على جزء من طريق أكملها آخر في عهد قريب جداً . وإن التسلّي بالبحث ، بإيجاد روّاد للاحتفاء بهم ، هو العارض الأوضح للعجز عن النقد الابيستمولوجي . فقبل أن يوضع جنباً إلى جنب مسيران على طريقٍ واحدة ، يكون من المستحسن أولاً التأكد من أن الأمر يتعلّق حقاً بالطريق ذاتها ، ففي معرفة متناسقة يكون مفهومٌ ما ذا علاقة بكل المفاهيم الأخرى. فحين قام أريسطارق السموسي (من Samos) بافتراض مركزية الشمس ، لم يكن رائده كوبرنيك، ولا داعي لأن يستأذن هذا الأخير من ذاك . إن تغيير المركز المرجعيّ للحركات السماوية ، يعني إضفاء النسبية على الفوق والتحت ، يعني تبديل أبعاد الكون ، وبإيجاز يعني تكوين منظومة (Système) . والحال ، فإنّ كوبرنيك قد أخذ على كل النظريّات الفلكية السابقة لنظريته بأنها ليست منظومات عقلانية[2] .

---

(١) La Pensée mathématique, in «Bulletin de la société française de la philosophie», CL (1946) 1, p. 8.

(٢) راجع حول هذا الموضوع : Michel Serres, Les Anamnèses mathématiques, in Archives internationales d'histoire des Sciences, XX (1967), 78-79, pp. 3-38.

فمن الممكن لرائدٍ ما أن يكون مفكّراً لعدَّة أزمنة لزمانه أو للأزمنة التي توصف بأنها متواصلة مع فكره ، وكأنها منفّذة لمشروعه غير المكتمل . وبالتالي فإنَّ الرائد هو مفكّر يعتقد المؤرّخ أنّ بإمكانه إخراجه من إطاره الثقافي لكي يدخله في إطار آخر ، مما يعني النظر في المفاهيم ، الخطابات والحركات التخمينية أو التجريبيَّة بوصفها قادرة على التنقّل ومعاودة التموضع في مجال فكري تكون فيه قابلية انقلاب العلاقات حاصلةً من خلال نسيان الجانب التاريخي للغَرض / الموضوع الذي يجري تناوله . ولكم جرى البحث على هذا النحو ، عن روّاد للتحوليّة الداروينية لدى الطبيعانيّين ، أو الفلاسفة ، أو فقط لدى صحافيّي القرن الثامن عشر !(١) وقد تكون طويلةً لائحة الروّاد . وعند اللزوم ، يمكنُ بعد دوتن (Dutens) أنْ تعاد كتابة « **أبحاث حول أصل الاكتشافات المنسوبة إلى المُحَدثين** » (1776) . فعندما كتب دوتن أنَّ أبقراط عرف الدورة الدموية ، وأنَّ منظومة كوبرنيك تعود في نسبها إلى الأقدمين ، إنما نضحك من كونه ينسى ما يدينُ به هارفي (Harvey) لعلم التشريح في عصر النهضة ولاستعمال نماذج ميكانيكية ، ويتناسى أنَّ طرافةَ كوبرنيك قد كَمُنت في البحث عن الاحتمال الرياضي لحركة الأرض . ولربّما تعيّن أنْ نضحك بمقدار مماثل من هؤلاء ، المُحدثين أكثر ، الذين يحيّون ريومير (Réaumer) أو موبرتوي (Maupertuis) بوصفهما رائدَي مندل ، دون أن يلاحظوا أن المسألة التي طرحها مندل كانت خاصة به دون سواه، وأنّه حلَّها بابتكار مفهوم لا سابق له ، هو مفهوم الطابع الوراثي المستقّل(٢) . باختصار ، طالما أنَّ تحليلاً نقدياً للنصوص وللأعمال المقرَّبة بواسطة الرصد البعيد للديمومة الاستكشافية لم يقرّر صراحة وجود تماهٍ بين هذا الباحث وذاك في مسألة البحث ومقصده ، ووجود تماثل في دلالة المفاهيم القائدة ، وتوحّد في منظومة المفاهيم التي تستمد منها المفاهيمُ السابقةُ معانيها ، فإن من الاصطناع والارتجال والالتواء في مشروع أصيل وجديد لتاريخ العلوم ، أن يُوضع كاتبانِ علميَّان في تعاقبٍ منطقي بين البدء والختام ، أو بين السَّبْق والإنجاز(٣) . فحين يجري إحلال الزمن المنطقي لعلاقات الحقيقة محل الزمن التاريخي لاختراعها ، إنما يجري إلحاق تاريخ العلم بالعلم ، وموضوع الأول بموضوع الثاني ، ويجري ابتداعٍ هذا التصنّع ، هذا الموضوع التاريخي الزائف ، الذي هو الرائد . لقد كتب ألكسندر كوبري : « إنَّ مفهوم الرائد بالنسبة إلى المؤرّخ هو مفهوم شديد الخطورة . فلا شك في صحَّة القول إن الأفكار تمتاز بتطور شبه استقلاليّ ، أي أنها مولودة في فكر ، وتبلغ سن الرشد وتؤتي ثمارها في فكر آخر ، ولذا فمن الممكن وضعُ تاريخ للمسائل وحلولها ، كما أنَّه من الصحيح أيضاً أنَّ الأجيال اللاحقة لا تهتّم بالأجيال التي تسبقها إلاَّ بمقدار ما ترى فيها أسلافاً لها أو روّادها .

---

(١) The Philosophy of science and history of science, in Critical Problems in the history of Science, Marshall Clagett éd., Madison, 2d ed., 1962, p. 103.

(٢) نقل إلى الفرنسية تحت عنوان : **From the Clojed Warld to the infinite Universe,** Ballitmore, 1957, De monde clos à l'Univers infini, Paris, 1962.

(٣) في سبيل نقد هذه المحاولات ، راجع :

Michel Foucault, **Les Mots et les Choses,** pp. 158-176.

مع ذلك من البيّن ـ أو على الأقل من المفترض أن يكون جليّاً ـ أنَّ أحداً لم يعتبر نفسه أبداً بمثابة رائد لأي شخص آخر : وأنه لم يتمكّن من تحقيق ذلك . كما أن تصوّره بهذه الصفة هو أفضل وسيلة للحؤول دون فهمه »[٣] .

إنَّما الرائدُ هو رجل المعرفة الذي نعلم عنه ، فقط بعد وفاته بكثير ، أنَّه سبق جميع معاصريه وأنَّه جاء قبل هذا الذي يُعتبر بمثابة محرِز قَصَبَ السَّبْق . وان عدم استيعاء واقع أنَّه من صنيع تاريخ معيّن للعلوم وليس عاملاً لتقدّم العلم ، إنما يعني التسليم بشرط إمكانه كحقيقة ، والقبول بالتزامن الخيالي للسابق واللاحق في نوع من المجال المنطقيّ .

حين نتناول بالنَّقد موضوعاً تاريخيّاً زائفاً ، فإنما نكون قد حاولنا ، بالدليل العكسي ، تسويغَ التصوّر الذي اقترحناه حول تحديد نوعي لموضوعه من جانب تاريخ العلوم . فليس تاريخ العلوم علماً ولا موضوعه موضوعاً علميّاً . وإن صنع تاريخ العلوم ، في المعنى الإجرائيّ جداً للكلمة ، هو إحدى وظائف الابيستمولوجيا الفلسفية ، لكنها ليست الوظيفة الأسهل منالاً .

---

(١) Cf. J. Piquemal, **Aspects de la pensée de Mendel** (Conférence du Pabais de la Découverte, 1965).

(٢) انظرْ ، لاحقاً ، نص بيو (Biot) ، ص 177 .

(٣) **La Révolution astronomique,** p. 79.

الفعالية الرمزية[1]

حسن قبيسي

إنَّ أول كبريات النصوص السحرية ـ الدينية المعروفة التي تنتمي إلى الثقافات الأمريكية الجنوبية والذي نشره السيدان واسين وهولمر مؤخّراً يلقي ضوءاً جديداً كل الجدّة على بعض أوجه العلاج الكهاني ويطرح مشكلات اجتهادية نظرية لا يستنفذها التعليق الممتاز الذي قام به الناشران على النصّ المذكور . ونحن نودّ هنا أن نتناول هذا النصّ من جديد لا من خلال المنظور اللغوي أو المستمرك الذي دُرس من خلاله بوجه خاص[2] ، بل من أجل استخلاص ما ينطوي عليه من أبعاد عامة .

والنصّ المعني هو عبارة عن تعويذة طويلة تصل في الرواية الأهلية إلى ثمانية عشرة صفحة موزعة على مئة وثلاثة وخمسين آية جمعها غيلرمو هايا أحد هنود الكونا عن لسان معرّف عجوز من أبناء قبيلته . ومن المعلوم أن الكونا يقيمون في أراضي جمهورية باناما ، وان المأسوف عليه إيرلاند نوردِنْسكيولد كان قد اهتمّ اهتماماً خاصاً بدراسة أوضاعهم ، حتى أنه توصل إلى اتخاذ مساعدين له من بين أبنائهم . أما في الحالة التي تعنينا هنا ، فقد وضع هايا بتصرّف الدكتور واسين الذي كان قد خلف نوردِنْسكيولد نصّاً مكتوباً باللغة الأم ومرفقاً بترجمة اسبانية له انصرف السيد هولمر إلى مراجعتها بكل الاهتمام اللازم .

أما غاية هذه التعويذة فهي تيسير الولادة المتعسّرة . لكن استعمالها لا يتمّ إلاَّ في حالات استثنائية نسبياً لأن النساء الأهليات في أمريكا العظمى والجنوبية تلدن بصورة أسهل من نساء

---

(١) أهدي هذا المقال لريمون دي سوسور ونشر تحت نفس العنوان في مجلة تاريخ الأديان ، المجلّد ١٣٥ ، رقم ١ ، ١٩٤٩ ، ص ٥ ـ ٢٧ [الفصل العاشر من « الإناسة البنيانية » القسم الأول ، بلون ، ١٩٥٧] .

- Revue de l'histoire des religions, t. 135, N° 1, 1949, pp. 5-27.

(٢) نيلز هولمر وهنري واسين ، مو ـ إيغالا أو طريق مو ، أغنية طبية من معشر الكونا في باناما ، غوتبرغ ، ١٩٤٧ .

- Nils N. Holmer et Henry Wassen, Mu-Igela or the way of Muu, a medicine song from the cunas of Panama, Göteborg, 1947.

المجتمعات الغربية . وبالتالي فإن الكاهن نادراً ما يتدخّل لتسهيل الولادة ، فإذا فعل فإنما يتدخّل بعد تعسّرها وبناءً على طلب من القابلة . تبدأ الترنيمة برسم لوحة للفزع الشديد الذي ينتاب القابلة المذكورة . تم تصف استنجادها بالكاهن وانطلاق هذا الأخير باتجاه كوخ المرأة الواضعة ووصوله إليها وانصرافه إلى إعداد عدّته التي تتلخص في تبخير الغرفة بعدد من حبوب الكاكاو المحروقة والقيام بابتهالات معيّنة وإعداد التماثيل الصغيرة المقدسة المسمّاة **نوشو** . إنّ هذه الصور المنحوتة من خواصّ بعض المواد المعيّنة التي تسبغ عليها فعاليتها ، تمثّل معشر الجنّ الحافظين الذين يستعين بهم الكاهن ويتوجه برفقتهم وعلى رأسهم إلى مقرّ مو ، وهو القوة الغيبية المسؤولة عن تكوّن الجنين . والواقع إن تعسّر الولادة يحصل بعرف هؤلاء القوم لأن مو قد تعدّى صلاحياته واستولى على **بوربا** الأم العتيدة ، أي على « روحها » . وهكذا تقوم الترنيمة بأسرها على عملية بحث : بحث عن البوربا المفقودة التي تُستعاد بعد القيام بأمور عديدة لإزالة العوائق والانتصار على الوحوش المفترسة وصولاً إلى المبارزة الحاسمة التي تجري بين الكاهن وجنّه الحافظين من جهة ومو وبناته من جهة أخرى ، وذلك عن طريق الاستعانة بعدد من القبعات السحرية التي تنوء أولئك البنات تحت عبئها. هكذا ينهزم مو وتكون هزيمته إيذاناً باكتشاف بوربا المريضة وتحريرها، فتحصل الولادة عندئذ . وتنتهي الترنيمة بذكر الاحتياطات اللازم اتخاذها حتى لا يتسنّى لمو أن يهرب من ملاحقة زائريه . والمعركة لا تُشَنّ ضد مو نفسه ، باعتبار أن لا غنى عنه في عملية الإنجاب . بل نشنّ ضدّ تجاوزاته وحسب. فما أن يوضع حدّ لهذه التجاوزات حتى تعود العلاقة معه وديّة، بحيث أن تحية الوداع التي يلقيها مو على الكاهن تكاد تكون عبارة عن بطاقة دعوة : « متى تعود لزيارتي أيها الصديق نيلي ؟ (٤١٢) » .

لقد عمدنا حتى الآن إلى ترجمة كلمة نيلي بكاهن التي قد تبدو في غير محلّها . إذ لا يبدو أن العلاج يتطلّب من جانب الشخص الذي يتولّى القيام به لجوءه إلى الوجد أو انتقاله إلى حالة ثانية. إلاّ أن دخنة الكاكاو ترمي بالدرجة الأولى إلى «تمتين ملابسه» وإلى « تعزيز قوته » هو بالذات ، أي إلى « جعله من الشجاعة بحيث يتمكن من التصدّي لمو (٦٥ - ٦٦) ، خاصة وان تصنيفات الكونا التي تميّز بين أنماط عدة من الأطباء تنصّ على أن قوة النيلي مستمدّة من مصادر غيبيّة . فالأطباء الأهليون ينقسمون إلى نيلي وإيناتوليدي وأبْسوجيدي . وبينما تستند مهام هذين الصنفين الأخيرين إلى المعرفة بالترانيم والأدوية التي يكتسبونها عن طريق الدراسة ويتحققون منها عن طريق الامتحان ، تُعتبر موهبة النيلي موهبة فطرية تتجسّد في مقدرته على القيام برحلة تمكّنه من اكتشاف علّة المرض فوراً ، أي من الاهتداء إلى المكان الذي اختُطفت إليه القوى الحيوية ، خاصة كانت أو عامة ، على يد الجن الأشرار . إذ أن بوسع النيلي أن يجنّد الجنّ ليجعل منهم حافظين أو مساعدين له[٣]. فنحن هنا إذن حيال كاهن بالفعل حتى ولو أن كان تدخّله في عملية

---

(١) إ . نيوردنسكيولد ، التعيش التاريخي والنياسي لهنود الكونا . نشر بعناية هنري واسين (الدراسات الناسونية المقارنة ، ١٠) غوتبرغ ، ١٩٣٨ . =

الولادة لا يتّصف بكل المواصفات التي تقترن عادة بالقيام بهذه الوظيفة . ثم ان النوشو ، أي معشر الجن الحافظين الذين يحضرون بموجب نداء من الكاهن ليحلّوا في التماثيل الصغيرة التي نحتها، يتلقون منه ، بالإضافة إلى ما لديهم من صفتي الاستبصار والتخفي عن الأنظار ، صفة النيجا أي « الحيوية » و « الصلابة » التي تجعل منهم نيليجان (جمع نيلي) أي « في خدمة البشر » أو « كائنات على صورة البشر » (٢٣٥ ـ ٢٣٧) لكنهم يظلّون يتمتّعون بقدرات استثنائية .

إنَّ الترنيمة ، على نحو ما لخصّناها بإيجاز ، تبدو من الطراز الشائع : فالمريض يعاني من كونه قد فقد قرينه الروحي ، أو على الأصح يعاني لأنه فقد واحداً من القرناء الخاصّين الذين تتشكّل من مجموعهم قوّته الحيوية (ولنا عودة إلى هذه النقطة) . والكاهن يقوم ، بمساعدة جنّه الحافظين ، برحلة إلى العالم الغيبي لكي ينتزع القرين المذكور من الجن الشرير الذي قبض عليه ، ثم يعيده إلى صاحبه مما يؤدي إلى شفائه . لكن وجه الأهمية الاستثنائية التي يتمتع بها النصّ الذي نحن بصدده لا يكمن في هذا الإطار الشكلي بل في ذلك الاكتشاف ـ الذي نجم على الأرجح عن قراءة معينة ، لكن الفضل فيها يعود على كل حال إلى السيدين هولمر وواسين ـ والذي يرى أن مو ـ إيغالا أي « طريق مو » ومقرّ مو ، ليسا بالنسبة للمفكر الأهلي كناية عن سبيل ومستقرّ اسطوريّين ، بل إنهما يُمثّلان حرفياً فرج المرأة الحامل ومهبلها اللذين يتحراهما الكاهن والنوشو ويشنّان في أعماقهما معركتهم المظفّرة .

إنَّ هذا الاجتهاد يقوم قبل كل شيء على تحليل لمقولة البوربا . فالبوربا مبدأ روحي مختلف عن النيجا التي حدّدناها أعلاه . إذ أن الثانية ، خلافاً للأولى ، لا يمكن أن تُسلب من صاحبها ، علماً أن البشر والحيوانات فقط هم الذين يملكون مثلها . فالنبات أو الحجر له بوربا وليس له نيجا . وكذلك الأمر بالنسبة للجثة . أما الطفل فلا تتطور النيجا عنده إلّا مع تقدم السنّ . فيبدو والحالة هذه أن بوسعنا أن نعبّر عن النيجا « بالقوة الحيوية » وعن البوربا « بالقرين » أو « بالروح » دون أن يشكو تعبيرنا هذا من عوج كبير ، نظراً لأن هاتين الكلمتين لا تنطويان على تمييز بين ما هو ذو حياة وما هو موات (فكل شيء ذو حياة عند معشر الكوما) ، بل تتجاوبان بالأحرى مع المقولة الأفلاطونية حول « المثال » أو « المثال النموذجي » الذي يشكل كل كائن من الكائنات أو كل شيء من الأشياء تجسيداً محسوساً له .

والحال إن المريضة في ترنيمتنا قد فقدت ما هو أكثر من بورباها . فالنص الأهليّ يقول إنها تشكو من الحمّى ، « رداء المرض الساخن » (I وما يليه) ، كما تشكو من فقدان البصر أو من ضعفه ، باعتبارها « تائهة . . مستلقية على درب مو بوكليب » (٩٧) ، خاصة إنها تقول للكاهن بعد

- E. Nordenskiöld, An historical and Ethnological survey of the cuna indians, edited... by Henry Wassen (Comparative Ethnographical Studies, 10), Göteborg, 1938, pp. 80, sq. =

أن سألها أن « مو بوكليب قد أتاني وهو يريد أن يحتفظ بالنيجا بوربا ليلي خاصّتي(*) إلى الأبد » (٩٨) . إن هولمر يقترح ترجمة نيجا بقوة جسدية وترجمة بوربا (ليلي) بروح أو كنه . من هنا يتأتّى لديه قوله : « روح حياتها »[1] . ربما كان للباحث أن يشتط في قطع الأشواط إذ يوحي بأن النيجا ، وهي صفة من صفات الكائن الحي ، تنجم عمّا لدى هذا الكائن من وجود لعدة بوربات(**) متكاملة الوظائف ، لا عن وجود بوربا واحدة . غير أن لكلّ جزء من أجزاء الجسد بورباه الخاصة ، كما يبدو أن النيجا تشكّل على الصعيد الروحي ما تشكّله مقولة الجسم المتعضّي : فكما أن الحياة تنشأ عن انسجام الأعضاء فيما بينها ، كذلك فإن « القوة الحيوية » لا تعدو كونها تضافر جميع البوربات تضافراً متسقاً من خلال تولّي كل منها لوظائفة عضو معيّن .

والواقع إن الكاهن لا يستعيد النيجا بوربا ليلي وحسب : فاكتشاف هذه إنما يلي مباشرة اكتشاف بوربات أخرى تقع منها على نفس الصعيد وهي بوربات القلب والعظام والأسنان والشعر والأظافر والقدمين (٤٠١ ـ ٤٠٨ و ٤٣٥ ـ ٤٤٢) . وقد يتعجب المرء عندما يغيب عن ناظره ، إذ يقرأ هذه اللائحة ، تلك البوربا التي تتولّى شؤون الأعضاء المصابة أكثر من غيرها : نعني أعضاء الإنجاب . ذلك أن بوربا المهبل ، كما يشير ناشر النص ، لا تُعتبر بمثابة الضحية بل بمثابة المسؤولة عن هذا الاضطراب المرضي . إذ أن مو وبناته الموجان هي القوى التي تتولّى عملية تطوّر الجنين ـ على نحو ما سبق لنوردنسكيولد أن أشار ـ كما أنها هي التي تزوّده بطاقاته التي تُسمى كورنجين . بيد أن النصّ لا يحيلنا أبداً على هذه النعوت الإيجابية . إذ أنه يتحدَّث عن مو بوصفه مفتعلاً للفوضى ، بوصفه « روحاً » مخصوصة قامت بالقبض على « أرواح » أخرى مخصوصة ، فشلّتها وقضت بذلك على التعاضد الذي كان يؤمّن تماسك « الجسد الرئيسي » ووحدته، أي مصدر نيجاه(***). لكن من الواجب أن يظل مو حيث هو: إذ أن الحملة التي شُنّت من أجل تحرير البوربات قد تؤدي إلى فرار مو عبر الطريق التي ظلت سالكة بصورة مؤقتة . من هنا تلك الاحتياطات اللازم اتخاذها والتي تملأ تفاصيلها القسم الأخير من الترنيمة . فالكاهن يعمد إلى تعبئة أسياد الوحوش الكاسرة لتتولّى حراسة الطريق المذكورة . فتُختَلط السبل ، وتُنصب شباك من الذهب والفضّة ، ويُشدّد معشر النيليجان من حراستهم طيلة أربعة أيام ويلوّحون بالعصي والقضبان (٥٠٥ ـ ٥٣٥) . فمو لا يُعتبر والحالة هذه قوة شريرة حُكماً ، بل قوة منحرفة . فتتفسّر الولادة المتعسّرة باعتبارها اختطافاً من جانب « روح » المهبل لسائر «الأرواح» الأخرى التي تتولّى مختلف أجزاء الجسد . فإذا تمّ تحرير هذه الأرواح لا يسع الروح المذكورة ، بل لا ينبغي لها ، إلّا أن تستأنف تعاونها من جديد ؛ ولنشدّد منذ الآن على دقّة الأيديولوجيا الأهلية من حيث تبنّيها واعتناقها

(*) Mon nigapourbalele.

(**) Plusieurs Purba.

(١) هولمر وواسين ، المرجع المذكور ، ص ٣٨ ، هامش رقم ٤٤ .

(***) Son nija

للمضمون العاطفي للاضطراب الجسماني على نحو ما يتجلّى في وعي المريض بصورة غير متبلورة .

لإدراك مو ينبغي للكاهن ولمعاونيه أن يسلكوا طريقاً ، « طريق مو » ، تساعدنا تلميحات النصّ على تعيينه بنفس الطريقة . فعندما يفرغ الكاهن القابع تحت أرجوحة نوم المريضة من نحت تماثيل النوشو ، تنتصب هذه التماثيل « على مدخل الطريق » (٧٢ ، ٨٣) ويحضّها الكاهن بقوله :

ها هي المريضة قابعة في أرجوحتها أمامكم ،
النسيج الأبيض ممدّد ، نسيجها الأبيض يتحرك بهدوء .
جسد المريضة الضعيف مستلقٍ ؛
عندما يضيئون طريق مو ، يرشح من هذه الطريق ما يشبه الدماء ؛
وما يرشح منها يسيل تحت الأرجوحة ، أحمر اللون ، كأنه الدماء ؛
يهبط النسيج الأبيض حتى يصل إلى جوف الأرض ؛
كائنٌ بشريٌّ يهبط في وسط النسيج الأبيض (٨٤ ـ ٩٠) . . .

إنَّ المترجمين يوردان معنى الجملتين الأخيرتين بوصفه مشكوكاً فيه . لكنهما يحيلان في الوقت نفسه على نصّ أهلي آخر نشره نورنسكيولد لا يدع مجالاً للشك حول المماهاة بين « النسيج الأبيض » والفرج :

Sibugua molul arkaali
Blanca tela abriendo
Sibugua molul akinnali
Blanca tela extendiendo

. . . . . .
Sibugua molul abalase tulapura ekuanali
Blanca tela centro feto Caer haciendo[1]

لا شك إذن في أن « طريق مو » المظلمة التي ضرّجتها الولادة المتعسّرة بالدم والتي ينبغي أن يتلمّسها معشر النوشو على بصيص ملابسهم وقبعاتهم السحرية ، هي فرج المريضة . ولا شك في أن « مقرّ مو » ، و « النبع العكِر » حيث يقوم منزله هو المهبل ، لأن المعرّف المحلّي يعلّق على هذا المقرّ الأموّكا بيرياويلا بوصفه أوميغان بوربا أموريكويدي ، أي «طمث النساء العكر» الذي يسمّى أيضاً « النبع العميق والمظلم » (٢٥٠ ـ ٢٥١) و « المكان الداخلي المظلم »[2] (٣٢) .

---

(١) نوردنسكيولد ، المرجع المذكور ، ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨ . هولمر وواسين ، المرجع المذكور ، ص ٣٨ ، هوامش ٣٥ ـ ٣٩ .

(٢) إن ترجمة Ti ipya « بزوبعة » ترجمة متكلّفة . فبعض الأهالي الأمريكيين الجنوبيين يعتبرون أن « عين الماء » هي =

فالنصّ الذي نحن بصدده يمتاز إذن بميزة فريدة تخوّله أن يحتل مكاناً خاصاً بين العلاجات الكهانية الموصوفة . إن هذه العلاجات تنتمي إلى ثلاثة أنماط لا يتنافى بعضها مع بعض على كل حال . فإما أن يخضع العضو المريض للمعالجة الجسدية عن طريق التلمّس باليد أو عن طريق الامتصاص الذي يرمي إلى استخراج علّة المرض والتي غالباً ما تكون عبارة عن شوكة أو بلّورة أو ريشة يبرزها المعالج في اللحظة المناسبة (أميركا الاستوائية ، أوستراليا ، ألاسكا) ، وإما أن يتمحور العلاج حول معركة يتظاهر الكاهن بشنّها ، داخل الكوخ أولاً ثم في العراء ، ضدّ الجنّ الأشرار ، كما هي الحال عند معشر الأروكان ، وإما أن يتلفظ المعالج ببعض التعاويذ ثم يأمر باتّباع عدد من الإجراءات (كوضع المريض على أنحاء مختلفة من صورة يرسمها الكاهن على التراب بواسطة رمال ولقاحات ملوّنة) لا تتضح العلاقة المباشرة بينها وبين الاضطرابات المخصوصة التي يُفترض علاجها ، كما هي الحال عند معشر النافاجو مثلاً . والحال إن الطريقة العلاجية في كل هذه الحالات (التي نعلم أنها كثيراً ما تسفر عن نتيجة إيجابية) أمر يصعب تفسيره :فهي عندما تتصدّى مباشرة للقسم العليل تكون من الإسفاف الواضح بمكان (بل تكون على وجه الإجمال مجرّد خزعبلات) بحيث لا يسعنا أن نعترف لها بأية قيمة جوانيّة . أما عندما تقوم على ترداد بعض الشعائر التي تتصف بالتجريد في معظم الأحيان ، فإن المرء لا يتوصّل إلى فهم وقعها على المرضى . وليس أبسط على المرء من أن يتخلّص من هذه الصعوبات كلّها بأن يجعلها في عداد العلاجات النفسانية . لكن هذا التعبير يظل فارغاً من المعنى ما لم يعمد إلى تحديد الطريقة التي تُستَنفر بواسطتها بعض التصوّرات النفسانية المحدّدة من أجل مكافحة الاضطرابات الجسمانية التي لا تقل تحديداً هي الأخرى. والحال إن النصّ الذي تناولناه بالتحليل يوفّر لنا مساهمة استثنائية في حل هذه المشكلة. فهو يشكّل طبابة نفسانية محضة ، إذ أن الكاهن لا يلمس جسد المريضة ولا يصف لها أي دواء . لكنه في الوقت نفسه يتوصل توصلاً مباشراً وواضحاً إلى التأثير على الحالة المرضية وموضعها : لذا فنحن نذهب إلى القول بأن الترنيمة تشكل **معالجة نفسانية** للعضو المريض ، وإن الشفاء إنما يتوقّف على هذه المعالجة بالذات .

* * *

سنبدأ أولاً ببلورة واقع هذه المعالجة وخصائصها ، ثم نعمد بعد ذلك إلى البحث عما عساه أن يكون هدفها وفعاليتها . إن أول ما يلفت الانتباه في هذه الترنيمة التي تصف وقائع صراع دراماتيكي يجري بين بعض الجنّ المساعدين وبعض الجن الأشرار من أجل استعادة إحدى « الأرواح » لا تكرّس إلاّ قسماً ضئيلاً منها لوصف هذا الصراع الفعلي : فالمبارزة بين الفريقين لا تحتل إلاّ أقل من صفحة من أصل ثماني عشرة . أما مقابلة مو بوكليب فتحتلّ صفحتين لا أكثر . خلافاً لذلك، نجد إسهاباً شديداً في وصف العمليات التمهيدية، فضلاً عن أن وصف الاسته ادات

= كناية عن نبع . وهذا ما نجده على كل حال في اللغتين الأسبانية والبرتغالية (انظر في البرتغالية Aloha d'agua) . [وفي العربية أيضاً . م .] .

وتجهيزات النوشو ومسالك الطرق والمواقع يغصّ بالتفاصيل الدقيقة. هكذا مثلاً يتوقف النصّ منذ البداية عند وصف زيارة القابلة للكاهن : فيأتي على ذكر الحديث الذي دار بين المريضة والقابلة ، ثم بين القابلة والكاهن ، فيكرّر ذلك مرتين ، إذ أن كل متحدّث يستعيد بالضبط عبارة الآخر قبل أن يجيب عليها .

قالت المريضة للقابلة : « الحق إنني أرتدي لباس المرض الساخن » .

فردّت القابلة على المريضة : « الحق إنك ترتدين لباس المرض الساخن ، هكذا سمعتك تقولين » (١ ـ ٢) .

قد يكون للبعض[1] أن يشير إلى أن هذا الأسلوب متّبع لدى معشر الكونا وإنه يجد تفسيره في اضطرار الشعوب التي تقتصر على التراث الشفهي إلى تركيز الأقوال تركيزاً دقيقاً في الذاكرة . لكن هذا الأسلوب ينطبق هنا كذلك على الخطوات العملية لا على الأقوال وحدها :

قامت القابلة بجولة في الكوخ
بحثت القابلة عن بعض اللآلىء
قامت القابلة بجولة
قدّمت القابلة رِجلاً أمام الأخرى
لمست القابلة الأرض برِجلها
قدّمت القابلة رِجلها الأخرى إلى الأمام
فتحت القابلة باب الكوخ ؛ أزّ باب كوخها
خرجت القابلة . . . (٧ ـ ١٤) .

إن هذا الوصف المتأنّي لخروج القابلة يتكرّر عند وصولها لدى الكاهن ، وعند عودتها لدى المريضة ، ثم عند انطلاق الكاهن وعند وصوله . كما يتكرّر الوصف أحياناً على دفعتين مستعملاً نفس الألفاظ (٣٧ ـ ٣٩ و ٤٥ ـ ٤٧) . هكذا يبدأ العلاج إذن بلمحة تاريخية عن الأحداث التي سبقته ، ويتوقف عند بعض الأوجه التي قد تبدو ثانوية (« المداخل » و « المخارج ») ليعالجها بتفصيل شديد كما لو أنها شريط سينمائي تمّ تصويره « على البطيء » . والنصّ بمجمله يحفل بهذه التقنيّة . لكن تطبيقها إنما يتمّ بصورة سستامية مضطردة في بدايته بشكل خاص ومن أجل وصف أحداث ذات أهمية استذكارية .

فكل شيء يجري كما لو أن المعالج يحاول إرجاع المريضة ـ التي يبدو أن انتباهها لما يجري في الواقع قد تضاءل كما أن حساسيّتها قد تفاقمت بفعل الألم ـ إلى أن تحيا من جديد وبصورة شديدة الدّقة والزخم وضعاً استهلالياً معيناً وأن تستوعب ذهنيا أدنى تفاصيله . والواقع أن الوضع

(١) هولمر وواسين ، المرجع المذكور ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

المذكور يستحضر سلسلة من الأحداث التي يشكّل جسد المريضة وأعضاؤها الداخلية مسرحها العتيد . وهكذا يتم الانتقال من الواقع في أبسط أشكاله إلى الأسطورة ، من العالم الطبيعي إلى العالم الجسماني ، من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي . كما ينبغي للأسطورة التي تجري [وقائعها] في الجسد الداخلي أن تحتفظ بنفس الحيوية وبنفس طابع الاختبار المعيوش اللذين يسعى الكاهن إلى فرض شروطهما باستغلاله للحالة السقيمة وباتّباعه لتقنيّة ملحاحيّة مخصوصة بهذه الحالة .

أما الصفحات العشرة التي تلي فإنها تخضع لوتيرة لاهثة تشكّل تذبذباً لايني يتسارع بين الموضوعات الأسطورية والموضوعات الجسمانية ، كما لو أن المقصود منها إلغاء التمييز بين هذه الموضوعات في ذهن المريضة وجعلها عاجزة عن التفريق بين الأوصاف العائدة لكلّ منهما. هكذا نجد صوراً تصوّر المرأة قابعة في أرجوحتها أو متّخذة ذلك الوضع الذي تتخذه المرأة الأهلية أثناء الوضع إذ تباعد بين ركبتيها وتتجه نحو الشرق ، متأوهة من الألم ، بينما ينزف دمها ويتمدّد فرجها ويختلج (٨٤ - ٩٢ ، ١٢٣ - ١٢٤ ، ١٣٤ - ١٣٥ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٧٣ ، ١٧٧ - ١٧٨ ، ٢٠٢ - ٢٠٤) ، ثم تعقبها صور أخرى تنادي الجنّ بأسمائهم : جنّ المشروبات الكحولية ، جنّ الريح والماء والغابات ، ناهيك بجنيّ « السفينة الفضيّة التي يركبها الرجل الأبيض » والذي يشكل شهادة ثمينة على مرونة الأسطورة (١٨٧) . والموضوعات التي أشرنا إليها تلتقي في ما بينها : فالنوشو يتقزّزون وينزفون دماً شأنهم شأن المريضة . كما أن آلام المريضة تتّخذ أبعاداً كونية : « فيتّسع نسيجها الأبيض ليصل إلى باطن الأرض . . . وحتى باطن الأرض ، يتكوّن مما يرشح منها غدير يشبه الدماء ، أحمر قانٍ . (٨٩ ، ٩٢) » . ثم إن كل جنيّ من الجنّ يحظى عند ظهوره بوصف تفصيلي ، كما يُصار إلى التوقف طويلاً عند مواصفات العتاد السحري الذي يتلقّاه من الكاهن : لآليء سوداء ، لآليء نارية اللون ، لآليء قاتمة ، لآليء مستديرة ، عظام حيوان الببر ، عظام مستديرة ، عظام الرقبة وعظام كثيرة أخرى ، طوق من الفضة ، عظام القنفذ ، عظام طائر الكركيتولي ، عظام عصفور المنقار الأخضر ، عظام تصنع منها المزامير ، لآليء فضية (١٠٤ - ١١٨) . ثم تبدأ عملية التعبئة العامة وكأنما هذه الضمانات كلها لم تصبح كافية بعد ، وأن على جميع قوى المريضة ، المعروفة منها وغير المعروفة ، ينبغي أن تُستَنْفر استعدادا للهجوم (١١٩ - ٢٢٩) .

ولكن ما أن يصار إلى الانطلاق في ملكوت الأسطورة حتى يُطرح على المريضة أمر اختراق فرجها بتعابير حسيّة ومعروفة رغم الصفة الأسطورية لهذا الاختراق . إذ يعمد « مو » مرتين إلى تسمية المهبل باسمه ، دون أن يأتي على ذكر المبدأ الروحي الذي يتولّى أمره (« مو المريضة » ، ٢٠٤ ، ٤٥٣)[1] . كما نجد هنا أن النيليجيان هم الذين يتزيّون بزي الإحليل المنتصب ويقومون

(١) هولمر وواسين ، ص ٤٥ الهامش ٢١٩ ، ص ٥٧ الهامش ٥٣٩ .

مقامه من أجل الولوج إلى طريق مو :

أخذت قبعات النيليجان تتألق ، قبعات النيليجان تبيضّ ،
أصبح النيليجان رقاقاً مطأطئين ، كأنهم أطراف مستقيمة ،
أخذ النيليجان يصبحون رهيبين (؟) ، أخذ يصبحون جميعاً رهيبين (؟)
من أجل إنقاذ نيجا بوربا ليلي المريضة (٢٣٠ ـ ٢٣٣) .

وبعد ذلك :

راح النيليجان يتمايلون باتجاه أعلى الأرجوحة ، توجّهوا صُعداً ، مثل نوسوباني[1] (٢٣٩) .

فتقنية الرواية ترمي إذن إلى إحياء اختبار فعلي تقتصر الأسطورة من خلاله على الاستعاضة عن أطراف النزاع . إذ أن أطراف النزاع هؤلاء يلجون المنفذ الطبيعي ، ويستطيع المرء أن يتخيَّل أن المريضة قد شعرت شعوراً فعلياً بولوجهم بعد كل ذلك الإعداد النفساني . بل إنها لا تشعر بولوجهم وحسب ، إذ أنهم « يضيئون »(*) الطريق التي أزمعوا على اجتيازها ، وذلك خدمة لأنفسهم على الأرجح ولكي يهتدوا سواء السبيل ، ولكن خدمة للمريضة أيضاً ، وذلك من أجل « توضيح »(*) موضع الأحاسيس المؤلمة التي لا توصف وجعله بمتناول الفكر الواعي :

النيليجان يجعلون رؤية المريضة ثاقبة ، النيليجان يفتحون لدى المريضة عينين مضيئتين . . . (٢٣٨) .

وهذه «الرؤية المضيئة» ، على حد تعبير النصّ ، تسمح لهم بالإسهاب في ذكر تفاصيل هذا الدرب المعقّد بحيث يتأتّى لدينا تشريح أسطوري حقيقي لا يتجاوب مع بنية الأعضاء التناسلية الفعلية بقدر ما يتجاوب مع ضرب من الجغرافيا العاطفية التي تعيّن كل نقطة من نقاط المقاومة وكل موضع من مواضع التوثب :

اتّخذ النيليجان سبيلهم ، ساروا صفاً واحداً طوال درب مو حتى وصلوا إلى الجبل المنخفض ،
اتّخذ النيليجان سبيلهم إلخ ، حتى وصلوا إلى الجبل القصير ،
اتّخذ النيليجان سبيلهم إلخ ، حتى وصلوا إلى الجبل الطويل ،
اتّخذ النيليجان سبيلهم إلخ ، حتى وصلوا إلى يالا بوكولا يالا (غير مترجم)

---

(١) علامتا الاستفهام من وضع المترجم . أما كلمة نوسوباني ، وهي من النوسو التي تعني « دودة » فتستعمل عادة للدلالة على « الإحليل » (انظر هولمر وواسين ، ص ٤٧ هامش ٢٨٠ ، وص ٥٧ هامش ٥٤٠ ، وص ٨٢) .

(*) Rendre clair = éclairer .

لا يشتق « الوضوح » من « الإضاءة » في العربية إلّا على مستوى المعنى . بينما يشتق على مستوى اللفظ في الفرنسية Rendre clair = éclairer .

اتّخذ النيليجان سبيلهم إلخ ، حتى وصلوا إلى يالا أكاواتا ليكون (أيضاً)

اتّخذ النيليجان سبيلهم إلخ ، حتى وصلوا إلى يالا ايلاميسويكون (أيضاً) .
اتّخذ النيليجان سبيلهم إلخ ، حتى وصلوا إلى وسط الجبل المنبسط ،
اتّخذ النيليجان سبيلهم ، ساروا صفاً واحداً طوال درب مو (٢٤١ ـ ٢٤٨) .

أما لوحة العالم المهبلي الذي تسكنه الوحوش الخيالية والحيوانات الكاسرة فيخضع بدوره لنفس الاجتهاد الذي يجد تأييده على كل حال من قبل المعرّف الأهلي : فهو يقول: «إن الحيوانات هي التي تزيد من آلام المرأة عندما تبذل الجهد » ، أي أنها عبارة عن تلك الآلام نفسها وقد تجسّدت . وهنا أيضاً يبدو أن الترنيمة ترمي من حيث هدفها الرئيسي إلى وصف هذه الحيوانات وتسميتها بأسمائها على مسمع من المريضة ، وتقديمها لها على نحو يمكّنها من إدراكها بواسطة الفكر الواعي أو اللاوعي : فهذا هو العم قاطور(*) يتحرك هنا وهناك بعينيه الجاحظتين وجسده المتلوّي المبرقع ، مقعياً على قفاه ملوّحاً بذيله ، وذاك هو العم قاطور نيكواليلي ، بجسده الملتمع ، يحرّك زعانفه البرّاقة فتجتاح زعانفه أرجاء المكان ، وتدفع كل ما تصادفه في طريقها وتطبق عليه ، وذلك هو نيلي كيكيربانا ليلي ، الأخطبوط ، الذي يُخرج مجسّاته اللزجة تارة ثم يقبضها مرة أخرى . إلى ما هنالك من الحيوانات الأخرى : كصاحب القبّعة الرخوة ، وصاحب القبعة الحمراء ، وصاحب القبعة المتعدّدة الألوان ، إلخ . هذا فضلاً عن الحيوانات الحارسة : النمر الأسود والوحش الأحمر والوحش ذو اللونين ، والوحش الرمادي اللون ، وكلٌّ منها مقيّد بسلسلة من حديد ، هذا تدلّى لسانه من فمه ، وذاك اندلق لسانه أمامه وقد سال منه اللعاب والزبد ، وذلك يلوّح بذيله الملتهب وقد كشّر عن أنياب حادة مخيفة تمزق كل شيء، و «كل شيء أحمر اللون، أحمر بلون الدم» (٢٥٣ ـ ٢٩٨). وحتى تتمكن النيليجيان من ولوج هذا الجحيم الذي أين منه جحيم جيروم بوش لتلتقي بصاحبه ، عليها أن تذلّل عقبات أخرى ذات طبيعة مادية : من ألياف وحبال متدليّة وخيوط متوتّرة وحُجب متتالية : ألوانها كألوان قوس قزح ، ذهبية ، فضيّة ، حمراء ، سوداء ، سمراء ، زرقاء ، بيضاء ، دوديّة الشكل ، « أشبه بربطات العنق » ، صفراء مجزوزة ، كثيفة (٣٠٥ ـ ٣٣٠) . وتحقيقاً لهذه الغاية يستعين الكاهن بإمدادات جديدة : أسياد ـ الحيوانات ـ المنقّبة ـ في ـ الغابة ، التي عليها أن « تقطع وتجمع وتعقد وتجتزىء » الخيوط التي يتعرّف هولمر وواسين من خلالها على جوانب المهبل المخاطيّة .

ثم يأتي الاجتياح على أثر سقوط هذه العوائق الأخيرة . وهنا بالذات تقع مبارزة القبعات التي يذهب بنا نقاشها أشواطاً بعيدة عن الغاية المباشرة من هذه الدراسة . وبعد تحرير النيجا بوربا ليلي يأتي أوان النزول وهو أمر لا يقل خطراً عن الصعود : إذ أن الغاية من كل هذه العملية هي تسهيل الولادة أي ، على وجه التحديد ، تيسير النزول المتعسّر . فيعمد الكاهن إلى تعداد جماعته وينبري إلى تشجيع جنوده . لكنه يظل عليه رغم ذلك أنه يستدعي إمدادات أخرى ، فيبعث في طلب

(*) نوع من التماسيح .

« ممهّدي الطريق » الذين هم أسياد ـ الحيوانات ـ الحفّارة ، كالخلد مثلاً . ثم إنه يُهيب بالنيجا أن تتوجه نحو المنفذ :

إن جسدك يقبع أمامك ، في الأرجوحة
نسيجه الأبيض ممدّد
نسيجه الأبيض الداخلي يتحرك بتؤدة
إن مريضتك تقبع أمامك ، ويُخيّل إليها إنها فقدت البصر
إنهم يضعون النيجا بوربا ليلي في جسدها من جديد . . . (٤٣٠ ـ ٤٣٥)

ثم تلي ذلك حلقة غامضة يُشتم منها أن المريضة لم تشف بعد . فينطلق الكاهن إلى الجبل مصطحباً معه أهل القرية لقطاف بعض النباتات الطبية ، ثم يعود فيستأنف هجمته بشكل جديد : فيقوم الكاهن نفسه هذه المرّة مقام الإحليل ، ويقتحم « فتحة مو » ثم يأخذ بالتحرك فيها « على نحو ما يفعل نوسوباني . . . فينظّف الموضع الداخلي ويجفّفه على أكمل وجه » (٤٥٣ ـ ٤٥٤) . غير أن استعمال المعقِّلات(**) قد يوحي بأن الولادة قد حصلت . وفي الختام ، وقبل الإتيان على ذكر الاحتياطات التي ينبغي اتخاذها حتى لا يفرّ مو ، والتي سبق لنا أن وصفناها ، نجد استدعاءً لقوم من الرُّماة بالسهام . ولما كانت مهمتهم تقوم على إثارة سحابة من الغبار « من أجل التعتيم على طريق مو » (٤٦٤) ، وعلى تولّي حراسة كل الطرقات التي قد يسلكها مو ، بما في ذلك الدروب الفرعية والمختصرة (٤٦٨) ، فإن تدخّلهم يشكّل هو الآخر ، على الأرجح ، جزءاً من الخاتمة .

ربما كانت الحلقة السابقة تستند إلى تقنية علاجية ثانية تقوم على المعالجة اليدوية للأعضاء وعلى استخدام بعض الأدوية . لكنها ربما كانت تشكّل ، بالعكس ، ملحقاً بالرحلة الأولى يعتمد بدوره الشكل المجازي لكنه يتوسّع في روايتنا توسعاً أشمل . وهكذا يكون لدينا هجمتان تُشنّان لنجدة المريضة ، بحيث تعتمد إحداهما على أسطوريات نفسية ـ جسمانية ، والأخرى على أسطوريات نفسية ـ مجتمعية يشهد عليها النداء الموجه إلى أهل القرية لكنها يبدو أنها ظلت في مستهلّها . مهما يكن من أمر تجدر الإشارة إلى أن الترنيمة تنتهي بعد الولادة مثلما كانت قد بدأت قبل العلاج : فقد جرت الموازنة بعناية بين الأحداث السابقة والأحداث اللاحقة . والواقع إن المقصود من ذلك بناء مجموعة سستامية . فالعلاج لا يحرص على اتّباع الطرائق الدقيقة من أجل « إحكام الطوق » حول مراوغات مو وحسب : فالواقع إنه فعاليّته كانت ستبوء بالفشل لو أنه لم يحرص ، من قبل التكهّن بنتائجه ، على تقديم حلّ لمشكلة المريضة ، أي على تقديم وضع يعود

(**) المعقِّلات Les astringents : مواد تحدث انقباضاً في الأنسجة الحية ، كالشبّة والكينا والعفص . . . والعقول في لسان العرب دواء يُمسك البطن بعد استطلاقه . والمعقِّلات لفظ مقترح على غرار مسهّلات وهو من حيث المعنى نقيضها (م) .

(*) Mon nigapourbalele.

فيه كل أطراف النزاع إلى اتّخاذ مواضعهم السابقة وإلى الاندراج في سياق نظام معلوم لا يتهدّده أيُّ خطر .

* * *

يقوم العلاج إذن على إتاحة المجال لإعمال الفكر في وضع معيّن كانت معطياته قبل ذلك تقتصر على المعطيات العاطفية ، كما يقوم على إتاحة المجال أمام تقبّل هذا الفكر لآلام يأبى الجسد أن يتحمّلها . أما عدم تجاوب أسطوريات الكاهن مع الواقع الموضوعي فأمر لا أهمية له : إذ أن المريضة تؤمن بهذا التجاوب وهي تنتمي إلى مجتمع يؤمن به . إن معشر الجن الحافظين ومعشر الجن الأشرار ، والوحوش الغيبية والحيوانات السحرية ، تشكل أجزاءً من سستام متماسك تستند إليه نظرة الأهلين للعالم . والمريضة تسلّم بهذه الأجزاء أو هي ، على الأصح ، لم يسبق لها أن طرحتها على بساط الشك . أما ما لا تسلّم به فهو تلك الآلام المشوّشة الاعتباطية التي تشكل من ناحيتها عنصراً غريباً على سستامها ، وهو ما سيعمل الكاهن ، عبر الاستعانة بالأسطورة ، على إعادته إلى وضعه السابق من المجموع حيث يستقرّ كل شيء على حال .

لكن المريضة لا تقتصر بعد إدراكها لما يجري على الامتثال له : بل إنها تشفى أيضاً . وهذا أمر لا نجد له مثيلاً لدى مرضانا عندما نشرح لهم سبب اضطراباتهم ونخبرهم بأمر الإفرازات والميكروبات والفيروسات التي تسبّبها . قد يتّهمنا البعض بأن كلامنا يشكو من بعض المفارقة إذا نحن أجبنا بأنّ علّة ذلك تكمن في أن هناك وجوداً للميكروبات في حين أن الوحوش الغيبية لا وجود لها . ومع ذلك فإن العلاقة القائمة بين الميكروب والمرض هي علاقة تقع خارج ذهن المريض ، إنها علاقة العلّة بالمعلول . في حين أن العلاقة بين الوحش والمرض علاقة تقع داخل الفكر المذكور ، سواء كانت واعية أو لا واعية : إنها علاقة الرمز بالشيء المرموز إليه ، أو ، الدالّ بالمدلول عليه إذا نحن شئنا استعمال مصطلحات الألسنيّين . إن الكاهن يضع بمتناول المريضة كلاماً يمكن التعبير من خلاله تعبيراً مباشراً عن حالات غير متبلورة ، وغير قابلة للتبلور بطريقة أخرى . وهذا الانتقال إلى صيغة التعبير اللفظية (التي تسمح للمريضة في الوقت نفسه ، أن تعيش على نحو منظم ومفهوم تجربتها الراهنة ، التي تظل لولا ذلك في حيّز الفوضى وحالة الاستعصاء على التعبير) هو الذي يؤدي إلى إلغاء معوّقات العملية الجسمانية ، أي إلى جعل هذه الحلقة التي تعاني منها المريضة تنتظم انتظاماً حسناً من جديد ضمن سلسلة الأحداث .

من هذه النهاية نجد أن العلاج الكهاني يقع في منتصف الطريق بين طبّنا العضوي وبعض العلاجات النفسانية ، كالتحليل النفسي مثلاً . وتتأتى أصالته من أنه يطبق على الاضطراب العضوي طريقة قريبة جداً من العلاجات النفسية المذكورة . كيف يمكن أن يحصل ذلك ؟ إن القيام بمقارنة صارمة بين الكهانة والتحليل النفسي (وهي مقارنة لا تنطوي لدينا على أية استهانة بقيمة التحليل المذكور) كفيل بمساعدتنا على توضيح هذه النقطة .

فالهدف المنشود ، في كلا الحالتين ، هو استيعاء بعض الصراعات وبعض المدافعات التي ظلت حتى ذلك الحين في حيّز اللاوعي ، إما لكبتها تحت وطأة قوى نفسانية أخرى ، وإما ـ في حالة الولادة ـ بناء على حالة طبيعتها الخاصة التي ليست طبيعة نفسية، بل عضوية، بل مجرد آلية أيضاً. وفي كلا الحالتين كذلك تنحلّ الصراعات والمدافعات لا بفعل المعرفة الفعلية والمفترضة التي تكتسبها المريضة بصورة تدريجية حول حقيقة الصراعات والمدافعات المذكورة ، بل لأن تلك المعرفة تجعل من الممكن القيام باختبار مخصوص تتحقق الصراعات خلاله وفقاً لنسق معيّن وعلى صعيد معلوم يتيحان لها أن تجري على هواها ويؤديان إلى حلّ عقدتها . إن هذا الاختبار المعيوش يسمى في التحليل النفسي **بالتفريج عن الكرب** . ومن المعلوم إن شرطه تدخل المحلّل تدخلاً عفوياً بحيث يمثل في صراعات المريض عبر إوالة التحوّل المزدوجة وذلك بوصفه طرفاً في النزاع مجسداً بلحم ودم ، وبحكم أن المريض يستطيع أن يعبّر بحضوره وأن يبلور في وجهه وضعاً استهلالياً كان لا يزال مفتقداً للتبلور ومستعصياً على التعبير .

إنَّ هذه المواصفات جميعاً متوفرة في العلاج الكهاني . ففي هذا العلاج أيضاً نجد أن الغاية المنشودة هي استثارة اختبار معيّن ، فإذا انتظم أمر هذا الاختبار ترتّبت بعض الإوالات التي كانت خارج رقابة الذات وانضبطت بصورة عفوية بحيث تؤول إلى الاندراج في وظافة متّسقة الجوانب . وفي هذا المجال يقوم الكاهن بالدور المزدوج الذي يقوم به المحلّل النفسي . أما الدور الأول ـ دور المستمع بالنسبة للمحلّل النفسي ودور المتكلم بالنسبة للكاهن ـ فيقيم علاقة مباشرة مع وعي المريض (وغير مباشرة مع لاوعيه) . إنه الدور الذي تؤديه التعويذة بمعناها الفعلي . لكن الكاهن لا يقتصر على التفوّه بالتعويذة : بل هو بطلها ، إذ أنه هو الذي يلج إلى الأعضاء التي يتهدّدها الخطر ويترأس الكتيبة الغيبية المكوّنة من معشر الجن ، فيحرّر الروح ويخلّصها من الأسر . فهو بهذا المعنى يتجسّد فعلاً ، ـ كما يتجسّد المحلل النفسي بوصفه موضوعاً للتحوّل ـ لكي يصبح ، بناءً على التصوّرات التي يدخلها في ذهن المريض ، الطرف الفعلي في الصراع الذي يختبره هذا المريض في مسافة متوسطة بين العالم العضوي والعالم النفسي . وإذا كان المريض المصاب بالعُصاب يصفّي أسطورة فردية عن طريق التصادّ مع محلل نفسي فعلي ، فإن المريضة الأهلية تتغلّب على اضطراب عضوي حقيقي بأن تتماهى بكاهن بدّل موضعه على نحو أسطوري .

غير أن الموازنة بين الحالتين لا تستبعد وجود بعض الاختلافات . وليس ثمة ما يدهش في الأمر إذا نحن أعرنا انتباهنا لطبيعة الاضطراب الذي يُفترض شفاؤه ، وهي طبيعة نفسية في الحالة الأولى وعضوية في الثانية . والواقع إن العلاج الكهاني يبدو بمثابة العديل المضبوط للعلاج النفسي التحليلي ، شرط أن يصار إلى قلب كل أبعاده . فالعلاجان ، كلاهما ، يرميان إلى استثارة خبرة معينة . وكلاهما يتوصل إلى استثارة هذه الخبرة بأن يسترجعا بناء أسطورة ينبغي أن يعيشها المريض أو أن يعيشها من جديد . لكن هذه الأسطورة هي في الحالة الأولى أسطورة فردية يعمد المريض إلى بنائها انطلاقاً من عناصر مستمدة من ماضيه ، كما أنها في الحالة الثانية أسطورة مجتمعية يتلقاها

المريض من خارج ولا تتجاوب مع حالة شخصية سابقة. وإعداداً لعملية التفريج التي تتحوّل عندئذٍ إلى تفريج بعد لأي يعمد المحلل النفسي إلى الإصغاء في حين يعمد الكاهن إلى الكلام. بل أكثر من ذلك : فعندما تتهيأ عناصر التحوّل وتنتظم يعمد المريض إلى استدراج المحلل النفسي إلى الكلام بأن ينسب إليه مشاعر ونوايا مفترضة . أما في التعويذة فإن الأمر يجري بالعكس . وإذ يتكلم الكاهن نيابة عن مريضته فهو يسألها ويجيب عن لسانها بإجابات تتلاءم مع تفسير حالتها الذي ينبغي أن يرسخ في ذهنها :

لقد تاه بصري . لقد سها على طريق مو بوكليب :
إن مو بوكليب هو الذي أتى إليَّ . إنه يريد الاستحواذ على نيجابورباليلي ؛
إن مو نوربيتي قد أتى إليَّ . إنه يريد الاستحواذ على نيجابوباليلي إلى الأبد ؛ إلخ .
(٩٧ - ١٠١) .

إلَّا أن التشابه بين الحالتين يصبح أشدّ وضوحاً عندما نقارن بين طريقة الكاهن وبعض العلاجات التي ظهرت مؤخراً والتي تعرب عن انتمائها للتحليل النفسي . فقد سبق للسيد ديزوال أن شدّد في أبحاثه التي تناولت أحلام اليقظة على أن الاضطراب النفسي العليل لا يُتناول إلَّا بالكلام الرمزي . فهو يخاطب مرضاه والحالة هذه عن طريق الرموز . لكن هذه الرموز تظل عبارة عن مجازات واستعارات لفظية . أما السيدة سيشيهاي فقد ذهبت في أحد أبحاثها الأخيرة الذي لم نكن على علم بها عند بدئنا بهذه الدراسة، أشواطاً بعيدة[1]، ويبدو لنا أن النتائج التي خلصت إليها في علاجها لإحدى حالات الفِصام التي اعتُبرت ميؤوساً منها تؤيد تأييداً تاماً ما ذكرناه في الأسطر السابقة حول العلاقات القائمة بين التحليل النفسي والكهانة . ذلك أن السيدة سيشيهاي قد لاحظت أن الحديث مهما بلغ من الرمزية كان لا يزال يصطدم بحاجز الوعي وأنه لم يكن يقوى على بلوغ العقد الدفينة إلَّا عن طريق الأفعال . هكذا كان على المحلّلة النفسية ، من أجل حلّ إحدى عِقد الفِطام ، أن تقف من مريضتها موقف الأم . وهو موقف لم يتحقق عن طريق الاضطلاع الحرفي بالسلوك المناسب . بل تحقّق ، إذا جاز القول ، عن طريق اللجوء ، على دفعات متقطّعة ، إلى أفعال يرمز كلٌّ منها إلى عنصر أساسي من عناصر الموقف المذكور : مثال ذلك أن يوضع خدّ المريضة على احتكاك ما بثدي المحلّلة النفسية . إن الشحنة الرمزية لمثل هذه الأفعال قمينة بجعلها تشكل كلاماً معيناً : والحق إن الطبيب لا يتحدث مع مريضه بالكلام بل بعمليات عينيَّة هي كناية عن طقوس حقيقية تجتاز حاجز الوعي دونما عوائق تذكر لتنقل مرسالها نقلاً مباشراً إلى اللاوعي .

---

(١) م . سيشيهاي ، التحقق الرمزي (الملحق رقم ١٢ من المجلة السويسرية للنفسانيات والنفسانيات التطبيقية) ، برن ، ١٩٤٧ .

- M. A. Sechehaye, la réalisation symbolique (supplément n° 12 de la Revue suisse de psychologie et de psychologie appliquée). Berne, 1947.

هكذا نلتقي من جديد مع مسألة التلاعب التي كانت قد بدت لنا مسألة جوهرية من أجل فهم العلاج الكهاني ، لكننا بتنا نرى الآن أن تعريفها التقليدي أصبح بحاجة إلى توسيع كبير : إذ أن التلاعب تارة يكون تلاعباً بالأفكار وطوراً تلاعباً بالأعضاء ، علماً ان الشرط المشترك بينهما يظل اعتمادهما على الرموز ، أي على ما للمدلول عليه من مكافئات ذات دلالة تنتمي إلى نصاب واقعي آخر غير النصاب الذي ينتمي إليه . إن **البوادر** التي تقوم بها السيدة سيشيهاي تؤثر على **الذهن** اللاوعي لدى مريضتها المصابة بالفصام ، مثلما أن **التصورات** التي يُحييها الكاهن تحدث تعديلاً على **الوظائف** العضوية لدى المرأة المنجبة . فاشتغال تلك الوظائف كان مُعوَّقاً في بداية الترنيمة ، ثم أعقبه الخلاص في آخرها . علماً بأن الخطوات التي حقّقتها عملية الولادة تنعكس على مراحل الأسطورة المتعاقبة : فولوج الفرج للمرة الأولى ، وهو الولوج الذي قام به النيليجان ، إنما تمّ صفاً واحداً (٢٤١) . وبما أنه عبارة عن صعود فقد تمّ بمساعدة القبعات العجيبة التي تفتح الطريق وتضيئه . وعندما آن أوان العودة (الذي يتجاوب مع المرحلة الثانية من الأسطورة ، إذ أن المقصود هنا هو إنزال الوليد) عاد الانتباه وانتقل إلى موضع القدمين : فيشير النصّ إلى أنهما تنتعلان حذائين (٤٩٤ ـ ٤٩٦) . أما عندما وصل النيليجان إلى مقر مو وقاموا باجتياحه ، فإنهم كفّوا عن السير صفاً واحداً وأخذوا يسيرون « أربعة أربعة » (٣٨٨) ، ناهيك بأنهم هجموا « جميعاً كجبهة واحدة » عندما توجّهوا إلى الخروج نحو الهواء الطلق (٢٤٨) . لا شك في أن هذا التحوّل الذي طرأ على تفاصيل الأسطورة يرمي إلى استنهاض ردّ فعل عضوي مناسب . لكن المريضة لا يسعها أن تستشعر رد الفعل المذكور بوصفه خبرة معيوشة ما لم يقترن بتقدّم فعلي في اتساع الرحم وانبساطه . فالفعالية الرمزية هي التي تضمن انسجام الموازنة بين الأسطورة والعمليات . إذ أن الأسطورة والعمليات يشكلان زوجاً ثنائياً نعثر فيه دائماً على ثنائية المريض والطبيب . ففي علاج الفصام يقوم الطبيب بالعمليات ويُنتج المريض أسطورته . أما في العلاج الكهاني ، فالكاهن يتولى أمر الأسطورة بينما يقوم المريض بتنفيذ العمليات .

* * *

وربما اتّضح لنا أن التماثل بين الطريقتين أكمل وأشدّ إذا كان لنا أن نسلّم بما يبدو أن فرويد كان قد أشار إليه في موضعين من كتاباته[1] ، من أنّ وصف بنية الذهانات والعُصابات بتعابير نفسانية

---

(١) في ما يتخطّى مبدأ اللذة وفي « المحاضرات الجديدة » ، ص ٧٩ وص ١٩٨ من الطبعتين الإنكليزيتين . أشار كريس إلى هذين الوضعين في مقالة بعنوان « طبيعة مقولات التحليل النفسي ومصداقيتها » ضمن « الحرية والخبرة ، مقالات مهداة إلى هـ . م . كالن » . منشورات جامعة كورنل ، ١٩٤٧ ، ص ٢٤٤ .

- Au delà du principe du plaisir et Nouvelles conférences, p. 79 et 198. cité par E. Kris, The nature of psychoanalytic propositions and their validation, dans Freedom and Experience, Essais presented to H. M. Kallen, Cornell University Press, 1947, p. 244.
- De Caspresson et Hyden, Institut Karolinska de stockholm.

ينبغي أن يـزول ذات يوم ليحـلّ محلّه فهم جسماني ، بـل حتى بيو ـ كيمـائي ، لها . ولعـلّ هذا الاحتمال هو اليوم أقرب إلينا مما نظن ، إذ يتبيّن من بعض الأبحاث السويدية التي جرت مؤخراً[1] أن الخلايا العصبية عند الشخص السوي تختلف عما هي عليـه عند الشخص المعتـلّ ، وإن هذا الاختلاف من طبيعة كيميائية تتناول غنى كلا النوعين من الخلايا بالنوكليوتيـدات . بناء على هـذه الفرضية ، أو على أية فرضية من نمطها ، يصبح العلاج الكهاني والعلاج التحليلي النفسي متشابهين قطعاً . إذ يكون المنشود في كل حالة من الحالتين إحداث تحويل عضوي يقوم بالدرجة الأولى على إعادة تنظيم بنيانية ، وذلك بدفع المريض باتجاه المكابدة الحادّة لإحدى الأساطير التي يتلقّاها من خارج تارة أو ينتجها من داخل تـارة أخرى ، والتي تتمـاثل من حيث بنيتها ، على صعيد النفسيـة اللاواعية ، مع البنية التي نسعى إلى تكوينها على صعيد الجسد . وهكذا تكمن الفعاليـة الرمـزية بـالضبط في هذه « الميـزة الاستدراجيـة » التي تتمتّع بهـا بعض البنى المتماثلة شكليـاً إذ تنبني ، بعناصر مختلفة ، على مختلف أصعدة الكائن الحي ويستدرج بعضها بعضاً : عمليات عضويـة ، نفسية لاواعية ، فكر متأنّ . إن المجاز الشعري يقدّم لنا مثلاً مألوفاً على هذه العملية الاستدراجية ، لكن استعماله لا يمكّنه من تخطي النصاب النفسي . ومن هنا تتبيّن لنا قيمة الحدس بالنسبة لرامبو حين يتحدث عنه بقوله : إنّ من الممكن استخدامه لتغيير العالم أيضاً .

إن مقـارنة العـلاج الكهاني مـع التحليل النفسي مكّنتنـا من توضيـح بعض جـوانب العـلاج المذكور ، لكننا لسنا متأكدين من العكس ، أي من أن دراسة الكهانة قد يُستعـان بها في يـوم من الأيام لتوضيح بعض النقاط التي ظلت غامضة في نظرية فرويد . ونحن هنا نشير بشكل خاص إلى مقولة الأسطورة ومقولة اللاوعي .

لقد رأينا أن الاختلاف الوحيد الذي يظل قائماً بين الطريقتين بعد اكتشاف مقوّمات العُصاب الجسمانية ، يتعلّق بأصل الأسطورة التي يهتدي إليها المرء ـ بموجب الطريقة الأولى ـ بوصفها كنزاً فردياً ، بينما يتلقّاها ـ بموجب الطريقة الثانية ـ من التراث الجماعي . والواقع أن كثيراً من المحلّلين النفسيـين لا يوافقون على القول بأن التشكيلات النفسية التي تعـود للظهور في وعي المـريض من شأنها أن تشكّل أسطورة : فهم يقولون إن التشكيلات المذكورة عبارة عن أحداث فعلية خاضعة في بعض الأحيـان لتعيين تـاريخ حصـولها. وإن من الممكن التحقق من صحـة حدوثهـا بأن نقـوم بتحرّ أو استقصاء عنها لدى ذوي المريض أو لدى الذين نشأ بينهم[2] . إننا لا نطرح تساؤلات حول الوقائع بحدّ ذاتها . لكن الأمر الذي ينبغي التساؤل حوله هو ما إذا كانت قيمة العلاج الشفائية تعود إلى ما

---

(١) دوكا سبرسون وهايون ، معهد كارولينسكا في ستوكهولم .

(٢) ماري بونابارت ، ملاحظات حول الاكتشاف التحليلي للمشهـد الأولاني ، ضمن دراسة التحليـل النفسي للولد ، مجلد رقم ١ ، نيويورك ، ١٩٤٥ .

- Marie Bonaparte, Notes on the Analytical Disovery of a Primal scene, dans the Psychonalytie study of the Child, Vol. I, New York, 1945.

تتصف به الأوضاع المستذكرة من طبيعة فعلية ، أو ما إذا كان المفعول المؤذي الذي تتمتّع به هذه الأوضاع لا يتأتّى عن أن المرء، عندما يتصوّرها، إنما يختبرها اختباراً مباشراً على شاكلة أسطورة معيوشة . ونحن نعني بذلك أن المفعول المؤذي الذي يتمتّع به وضع من الأوضاع لا ينجم عن خصائصه الجوانية ، بل عن قابلية بعض الأحداث التي تظهر في سياق نفساني وتاريخي ومجتمعي معيّن على استحداث تبلّر عاطفي يتمّ ضمن قالب بنية سابقة من حيث وجودها عليه. والواقع أن البنى المذكورة ـ أو على الأصحّ هذه القوانين البنيانية ـ تُعتبر خارج الزمن بالقياس على الحدث الذي حصل أو النادرة التي جرت . فالشخص المعتلّ النفس تنتظم لديه الحياة النفسية برمّتها والخبرات اللاحقة بأسرها بناءً على بنية واحدة أو طاغية وذلك بفعل الأسطورة الاستهلالية التي تلعب دور المنشط لعملية الانتظام هذه . لكن هذه البنية المذكورة ، فضلاً عن البنى الأخرى التي نجدها ملحقة لديه بمكان آخر رديف ، نجدها أيضاً لدى الشخص السويّ ، بدائياً كان أم متحضّراً . ومجمل هذه البنى تشكل ما نسميه باللاوعي . هكذا يتبيّن لنا كيف يتلاشى آخر فرق بين نظرية الكهانة ونظرية التحليل النفسي . إذ يكفّ اللاوعي عن كونه موئلاً عتيداً للخصائص الفردية ومستودعاً لتاريخ فريد قائم برأسه ، مما يجعل من كلٍّ منا كائناً لا يحلّ محلّه أحد . فيقتصر عندئذٍ على لفظة نستعملها للدلالة على وظيفة بعينها : الوظيفة الرمزية ، وهي وظيفة مختصة بالإنسان وحده ، ولا شك ، لكنها تمارس لدى جميع البشر وفقاً لقوانين واحدة ، وتُعتبر ، في الواقع ، كناية عن مجمل هذه القوانين .

فإذا صحّ مثل هذا الفهم للأمور ، فربما كان من الواجب علينا أن نميّز بين اللاوعي وما دون الوعي تمييزاً أدق من ذاك الذي عوّدتنا عليه النفسانيات المعاصرة . إذ أن ما دون الوعي ، الذي هو مستودع الذكريات والصور التي تتحصّل لدى كل منّا عبر حياته[1] ، يصبح عندئذٍ مجرّد وجه من أوجه الذاكرة . وهو في الوقت الذي يعزّز فيه ديمومته ينطوي على تعيين حدوده . إذ أن كلمة ما دون الوعي إنما تدل على أمر مفاده أن الذكريات لا تكون دائماً بمتناولنا رغم أنها مستودعة ومحفوظة لدينا . أما اللاوعي فهو على خلاف ذلك حيّز فارغ على الدوام . أو هو ، على الأصح ، لا يقلّ من حيث غربته عن الصور عن غربة المعدة تجاه الأطعمة التي تجتازها . فاللاوعي ، بوصفه عضواً أُنيطت به وظيفة معينة ، يقتصر على فرض بعض القوانين البنيانية ، التي تستنفذ واقعه وكيانه ، على بعض العناصر غير المتبلورة التي تفد عليه من خارج من حوافز أو عوائق أو تصورات أو ذكريات. هكذا يسعنا القول إن ما دون الوعي هو القاموس الفردي الذي يراكم فيه كلٌّ منا مصطلحات تاريخه الشخصي ، لكن هذه المصطلحات لا تتخذ دلالتها ، سواء بالنسبة لنا أو بالنسبة للآخرين ، إلاّ

(*) التبلّر العاطفي Cristallisation affective .

(١) إن هذا التعريف الذي تعرّض لانتقاءات كثيرة يستعيد معناه عن طريق التمييز الجذري بين ما دون الوعي واللاوعي .

بمقدار ما ينظّمها اللاوعي بناءً على قوانينه ويجعل منها بالتالي كلاماً قابلاً للفهم . ولما كانت هذه القوانين واحدة في جميع الظروف والمناسبات التي يمارس فيها اللاوعي دوره ، وبالنسبة لجميع الأشخاص ، فإن المشكلة التي طُرحت علينا في الفقرة السابقة نجد عندئذحلّها على أيسر نحو . فأهمية المصطلحات أدنى من أهمية البنية . وسواء كانت الأسطورة قد ابتُدعت من جديد من قبل الفرد أو استُعيرت من التراث ، فإنها لا تستمد من مصادرها ، فردية كانت أم جماعية ، (وهي مصادر تخضع دائماً لأنواع شتى من التداخل والتبادل) إلاَّ مادة الصور التى تشتغل عليها . أما البنية فتظل واحدة ، ولا مجال للقيام بالوظيفة الرمزية إلاَّ بالبنية المذكورة .

ولنضف أن هذه البنى ليست واحدة وحسب بالنسبة للجميع ، وبالنسبة لجميع المواد التي تنطبق عليها الوظيفة ، بل إنها أيضاً قليلة العدد . من هنا يتبيّن لنا لماذا كان عالم الرمزية في غاية التنوّع من حيث مضمونه ، لكنه محدود للغاية من حيث قوانينه . فثمّة لغات كثيرة ، لكن هناك عدداً قليلاً من القوانين الصِواتيّة ، وهي تصحّ ، رغم قلّتها ، على جميع اللغات . وإذا شئنا أن نجمع الحكايات والأساطير المعروفة حتى الآن لاقتضى الأمر هنا مجلّدات ضخمة . لكن بوسعنا أن نختصرها جميعاً إلى عدد ضئيل من الأنماط البسيطة التي تقوم ، بمعزل عن تنوع الشخصيات ، على عدد من الوظائف الأولية . ثم إن العقد ، هذه الأساطير الفردية ، تتلخص هي الأخرى ببعض الأنماط البسيطة ، هي كناية عن قوالب ينصهر فيها ذلك السيل من الحالات العديدة .

فإذا كان الكاهن لا يحلّل مريضه نفسياً ، فإن بوسعنا والحالة هذه أن نخلص إلى القول بأن البحث عن الزمن الضائع ، الذي يُعتبر لدى البعض مفتاح علاج التحليل النفسي ، ليس إلاَّ صيغة واحدة (لا يُستهان بقيمتها ونتائجها) من الصيغ التي تتخذها طريقة أعم بكثير ، وأن من الواجب تحديد هذه الطريقة بمعزل عن الرجوع إلى أصل الأسطورة فردياً كان أم جماعياً . ذلك أن الشكل الأسطوري يطغى على مضمون الرواية . هذا على الأقل ما يبدو أننا تعلّمناه من تحليل أحد النصوص الأهلية . لكننا نعلم ، بمعنى آخر ، إن كل أسطورة من الأساطير إنما هي سعي وراء الزمن الضائع . وبالتالي ، فهذا الشكل الحديث الذي تتخذه التقنية الكهانية ، والذي يُسمى بالتحليل النفسي ، يستمدّ مواصفاته المخصوصة به من أن الزمن الأسطوري لم يعد له وجود ولا مكان، في الحضارة الآلية، إلاَّ لدى المرء نفسه . فإذا تبيّن لنا ذلك ، كان بوسع التحليل النفسي أن يستمدّ من هذا البيان تأييداً لصحته ومصداقيته ، وأن يقول في الوقت نفسه آمالاً على تعميق أسس النظرية ، وأن يحسّن فهم لإوالة فعاليته ، بأن يعمد إلى المقارنة والموازنة بين طرائقه وأهدافه وبين تلك التي اعتمدها أسلافه العظام من كهنة وسحَرة .

* * *

المعـرفة

د. منى حسن دياب

يتناول الناس المعرفة بمعنيين مختلفين ؛ فأحياناً يتصورها المرء كما لو كانت كسباً يتم داخل النفس[١] ـ أي عمليـة داخليـة ذاتيـة ـ وأحيـانـاً كـما لـو أنها كسباً خـارجيـاً أو نمـواً مـطرداً لقـدرة الإنسان في السيطرة على العالم الخارجي .

أفلاطون يرى المعرفة ويتناولها في منظور مثـالي ويعرضهـا بشكل أسـطوري خيالي، فـالنفس عنده تعيش قبـل نزولهـا إلى الأرض ـ الحياة الـدنيا ـ في عـالم من الحقـائق الثابتـة الـدائمـة وهـو عـالم المثـل حيث ترافق الآلهة في معركتها مع المعرفة ثم ما تلبث هذه النفوس ـ الملائكة أن تفقد أجنحتها ـ أو ـ عالم الشفافية[٢] ـ فتهبط إلى الأرض ولكن ما تزال تساورهـا رغبة دائمة وتوق شـديد إلى حيـاتها الأولى مربض المثل ، هذه الرغبة هي التي تحدو بها إلى المعرفة وعن طريق التذكر تصل إلى حالة الكمال التي حرمت منها بهبوطها إلى الأرض فبالمعرفة يعود الاتصال بين النفس والعالم الإلهي[٣] .

ومن المستحيل أن نعترف بأن النفس في عملية المعـرفة ليست مـرآة جامـدة تعكس الأشياء والمعارف كما يريد باروخ اسبينوزا[٤] . بل إن المعرفة هي الانتقال من الغموض نفسه إلى المعرفة الواضحة المتميزة المشرقة في النفس . . ثم أن المعرفة ليست غاية في ذاتها وإنما هي وسيلة تمكننا من السيـطرة على الأشياء يقـول فرنسـوا بيكون في هـذا المعنى : « المعرفـة كوسيلة للقـدرة »[٥] ويكرّس هذه الفكرة أوجست كونت فيما بعد . وأصحـاب هذه الفكـرة يرون أن المعـرفة نـوع من التقدم ولكنه ليس كمالاً داخلياً ، بل امتداداً لسيطرتنا على الأشياء الخارجية ، والميـزة الكبرى لهذه

---

(١) برغسون ، حياته ، فلسفته ، منشورات عويدات .

(٢) أفلاطون ، جمهورية أفلاطون ، تر : الأب أغسطين بربارة ، بيروت ١٩٥٧ . راجع : كارل ياسبـرس ، فلاسفـة إنسانيون ، عويدات ، ص ٢٩ .

(٣) جمهورية أفلاطون ، ص ٤٩ .

(٤) باروخ إسبينوزا ، رسالة الدين والحد له ، منشورات الأونيسكو .

(٥) جان فال ، الفلسفة الفرنسية ، تر : الأب مارون خوري ، ص ٩٤ .

المعرفة أنها لا تتقيد بالفرد ولا تختفي باختفائه ـ كمعجزات الرسل ـ فإن أي اكتشاف لوسيلة ما يمكن إثباته ضمن صيغة لغوية ، بل ويمكن تسجيله في أداة مادية ، ومن الممكن ضم هذه الاكتشافات لبعضها وبذا يصبح التقدم جماعياً وإنسانياً[١] .

فالمعرفة الباحثة عن وجودنا الذاتي تختلف عن تلك التي تعد نمواً مطرداً لقدرتنا على الأشياء ، فالمعرفة الأولى تتصل بأبعاد الإنسان ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، والمعرفة الثانية تنصب على وسائل العمل . فالأولى تتعلق بجوهرنا الذاتي من سببيه ، ومستقبل معاش ، ومصيرنا الشخصي ، ـ الآخرة أو العدم ـ في حين أن الثانية تهتم بالأمور التي يمكننا اكتسابها بصرف النظر عن تحديد الغاية في هذا الاكتساب ـ خارج نطاق المعرفة[٢] ـ وما الحضارة الحديثة التي بدأت بذورها منذ القرن السادس عشر إلّا نتاجاً للنوع الثاني في المعرفة ، فبفضل التقدم العلمي الذي يزيد دائماً في عتادنا العقلي نجد أن وسائل العمل التي في متناول الإنسان تزداد عدداً وقوة ، ويستغني بها عن السببية الماورانية في تصريف أموره[٣] .

لقد جالت في خيال أكبر مفكري القرون الثلاثة الماضية ، فكرة مثالية لمعرفة تخطو إلى الأمام وتكفل للإنسان السيطرة على العالم[٤] المادي وهذا الاندفاع حدد فكرتهم عن الكون فمثلاً: هذا النظام أتاح لديكارت أن يتخيل العمليات العقلية كما لو كانت تندمج في الأشياء الخارجية، وحتى الماورائية (الأفكار الفطرية) وتحوّر ظروف حياة الجسم الإنساني ، وتصل عن طريقه إلى العواصف والأهواء التي ترتبط به . وتبعه فلاسفة القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر بفكرة القانون الطبيعي في محاولة لإسقاطه على الإنسان كظاهرة طبيعية كسائر الموجودات ، فحقيقة الفلسفة هي مجهود جدير بالإعجاب يراد به حفظ التوازن بين هذين النوعين من المعرفة والتأكيد على أن النوع الأول منها هو وحده الذي يعطي النوع الثاني قيمته[٥] ، فالفلسفة هي احتجاج مستمر للعقل ضد الاستغراق في العادات الطقوسية الجامدة والتي تؤدي إلى التخلف بكل أنواعه[٦] . . وقد أعقب فولتير رأيه هذا بقوله : «لن يستقيم أمر هذا العالم قبل أن يشنق آخر ملك بأمعاء آخر رجل دين»[٧] .

ويبقى أن أهم موضوع عالجته الفلسفة يتمحور حول سؤال هام : ما أصل الحقيقة ؟ وما هو منبعها ؟ والجواب دائماً يتأرجح بين نوعين من المعرفة معرفة حسية ومعرفة عقلية ، أي بين معرفة

---

(١) محمد أركون ، مجلة فكر ، العدد ٦٤ ، ١٩٨٥ ، السنة التاسعة .
(٢) جان دي بيران ، فلسفته ، حياته ، ص ٥٢ وما بعد .
(٣) د. محمود قاسم ، الخرافة في العقل العربي ، الفصل الثاني .
(٤) رينيه مونييه ، البحث عن الحقيقة ، وجوهها ، وأشكالها وعلاقتها بالحرية ، منشورات دار الحياة ١٩٦٦ ، بيروت .
(٥) كمال يوسف الحاج ، مدخل إلى فلسفة ديكارت ، الفصل الثاني .
(٦) فولتير ، حياته ، فلسفته ، منشورات عويدات ، المقدمة .
(٧) ول ديورانت ، قصة الفلسفة ، مكتبة المعارف ، ص ٢٥٣ وما بعد .

ذهنية وتصورات ، وهي معرفة طبيعية في إطار المذهب المثالي ، وهي تصوريه ، وبين معرفة حسيّة تجريبية ، والصراع المحترم منذ الأزل بين العقليين والتجريبيين ـ العقليين الذين قالوا بسببية العقل في المعرفة الفطرية ـ إلغاء دور السببية الماورائية ـ والتجريبين الذين يستمدون كل معرفة في التجربة الحسية وحدها ويقصرون الحقيقة على الإحساسات(١) .

والمسألة المعرفية الثانية في الفلسفة بعد يقين الحقيقة وإمكانيتها ورأينا انقسام الفلاسفة إلى اعتقاديين وشاكين ، نتساءل الآن ما هي منابع الحقيقة : منابع مادية أم ماورائية ؟ وما هي طبيعة المعرفة ؟ .

تجيب الفلسفة الحديثة التي بدأت بديكارت ولمدى قرنين من الزمن بقولٍ متشابه ومستقى من أفلاطون وأرسطو ، بقوله إن المعاني والماهيات هي تجريد عقلي . . إذ بعد رفضه الاتحاد بين النفس والجسم أو الصور والمادة كما ذهب أرسطو(٢)والمدرسيين يرى بأن النفس تصدر جوهراً مكتفياً بذاته لا يقبل تأثير الجسم وانطباعاته الحسية بل يجرد منها المعاني والأفكار فذهب إلى فطرية المعاني في النفس . وطرح السببية الأولى بمعنى الله المسبب لهذه الأفكار في الإنسان بينما ينظر مالبرانش تلميذ ديكارت بنفس المنظار ـ منظار أستاذه ديكارت ـ ولكنه لا يقبل الأصل الفطري للأفكار ، كما لا يقبل الأصل التجريبي لها ، فلم يبق أمامه سوى القول « بالرؤية بالله » وأزلية الحقائق وثباتها ضرورة لا تليق إلّا بالعقل الإلهي وحده ولا تقوم إلّا فيه ، والله مرتبط بنفوسنا بنوع من الحضور أو المشاركة في فعل المعرفة (٣)فهو بمثابة المكان بالنسبة لعقولنا ، لذا فالنفس الإنسانية تبحث عن الله في معاني الأشياء وحقائقها ومعقوليتها الخالصة(٤) .

إذن المعرفة كنظرية تتناول الله كمصدر لها خاصة في المعرفة الماورائية وتتخذ منه المعنى الحقيقي لها(٥) ، أما المعرفة الماديّة فلا مصدر لها سوى الحواس وما تولده من انطباعات . ولقد وصف مالبرانش رأي ديكارت هذا « بأن الحقائق متوقفة على الإرادة الإلهية » كالقوانين التي يصدرها ملك ويشبهها بخيال لا أساس له ، لأن الله يملك الحقيقة في عقله اللامتناهي وهذه الحقيقة تصدر بدون إرادة من الله نفسه ، لذا عارضه ليس فقط مالبرانش بل وكلٌّ من لايبنيز

---

(١) إميل برييه ، إتجاهات الفلسفة المعاصرة ، تر : محمود قاسم ، محمد القصاص ، دار منشورات مصر ، ص ٦١ .

(٢) أرسطو السياسيات ، لجنة الأونيسكو ، ١٩٥٧ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٣) Malbranche: la recherche de la verité Goillimard, Paris.

(٤) محمد علي أبو ريّان ، أصول الفلسفة الإشراقية ، دار الطلبة العرب ، بيروت ، ص ٥٨ . . . ص ٨٣ .

(٥) القول الشهير لفردريك نيتشيه، « لو لم يكن الله موجوداً لاخترعناه » . راجع : قصة الفلسفة ، دل ديورانت .

(٦) راجع الأب أوغسطين ، العلم الإلهي ، دار البابي الحلبي ، مصر ، الفصل الثاني .
راجع : ابن سينا ، رسالة في النبوات ، ص ٤١ . . . حتى ٥٣ .

وسبينوزا[1] مبينين أنه لا معرفة إلّا المعرفة الحسيّة النابعة من التجربة فالفكر عنده النزعة دائماً إلى تجوهر ما يفكر ودليلنا التعبير بكلمة « شيء » عن كل ما نفكر به وكأنه جسم قائم خارج الذهن بل وكأنه قانون لا يمكن البعد عنه أو القضاء عليه . . فالجوهر لا وجود له إلّا بقدر ما يقنع الإنسان نفسه بوجوده[2] فالمعرفة لا بد أن تتعرض للوجود[3] والتعريف الذي يتناول الوجود يمر دائماً بالنوع والجنس ، حيث يمكن أن يوجد الموجود كصنف من نوع . . وكل تعريف بالموجود هو تعريف لا جدوى منه لأن فكرة الوجود فكرة بسيطة ومتداولة وهي تعني عكس ما لا وجود له فالموجود عادةً يعرّف باللاعدم . وهو يستعمل كمصدر وكاسم ، إما لتأكيد الذات كعبارة أنا أفكر إذن أنا موجود ، وإما كصفة إذا كانت الرابط بين اسم وصفته « ألف هو جيم » وقد يستعمل الوجود كمعنى مجرد حيث تشير هذه الكلمة إلى فعل الوجود حيث نرمز إلى الله المتمثل في هذا الوجود[4] وإما نستعمل الوجود بإشارتنا إلى الحقيقة الموجودة في الكائنات الحيّة . وكل المعاني السابقة بوجزها موازMoïse بقوله أنا نفسي أنا[5] . .

وإذا كان من السهل أن نعرّف أو لا نعرّف ما هو موجود فإنه من المستحيل أن نعرّف العدم . . فالعدم هو نفي الوجود واستحالة معرفته لا تنفي تنوعه الممتزج بوجوده . فهو حينها يسمى بالوجود العدمي وأنواعه اثنين : العدم النسبي والعدم التام . ونسبيته تظهر بغياب بعض الحقائق عن الموجود والحقيقي[6] . . . والعدم النسبي نوعين أيضاً فعندما تغيب صفة بسيطة عن الشي يكون امتلاكه لها غير طبيعي « كالعمى عند الحجر » . يسمى هذا عدم نسبي وعرض ، وعندما تغيب صفة أساسية من الشيء الجائز عليه طبيعياً « كالعمى عند الإنسان » يسمى أيضاً عدم نسبي .

أما العدم التام فهو الذي يتميّز بغياب كل الحقيقة . والعدم لا تعريف له إلّا بنفي الوجود وهو تعريف سلبي لا يتم إلّا من خلال تأكيد الحقيقة لأن الموجود مُدْرَك بذاته ، أما العدم فغير مدرك إلّا بالموجود ففكرة العدم فكرة دخيلة على العقل ولا وجود لها إلّا فلسفياً وقد أكّدَ برغسون[7] على أن

---

(١) برتراند راسل ، فلسفة العقل والمادة ، وزارة المعارف ، مصر راجع أيضاً : تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم .

(٢) محمد علي أبو ريّان ، هياكل النور ، دار الكتب ، القاهرة ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ محمد إقبال ، تطور الفلسفة عند الفرس : ويرى د. محمد إقبال أن الذرات هنا تقترب من ذرات الأشاعرة بينما نرى السهروردي يهاجم الذرة عند الأشاعرة ويرى أن الجزء الذي لا يتجزأ ما دام لا يتجزأ لا في الوهم ولا فرضاً ولا فعلاً فليس له وجود مادي : م. س. ن. ص .

(٣) فرانك تيللي ، قصة في الفلسفة ، ص ٧٦ . راجع : صيوم ، محاولة في الفهم الإنساني .

(٤) هذا المعنى متضمن في فلسفة الإشراق إذ يظهر بوضوح في كتاباتهم . ابن عربي ، ابن العماد ، ابن حزم . راجع : Corbin, recharches philosophiques, 1933 suharwardi d'alep .

(٥) عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٥٨ ، مادة : الميم .

(٦) كانط ، نقد العقل ، مقدمة الطبعة الثانية .

(٧) Bergson, Evolution Creatrice, Corbin, Paris وكقولنا مثلاً باللامتناهي فهو معنى عدمي لا وجود له إلّا بافتراضات العقل نفسه ليسهل فكرة وجود معنى معين .

هذه الفكرة دخيلة بقوله : إننا عندما نفكر بالعدم نفكر بشيء ما ، وهذا التفكير هو التناقض بحد ذاته كقولنا « الدائرة مربعة » .

وبإقصاء كون العدم كفكرة فكرة حقيقية نجد برغسون يدّعي بطلان الدليل الأساسي والجوهري الذي يعتمده الفلاسفة الكلاسيكيون بموجبه عن وجود الله .

وهذا الوجود الإلهي يتمحور حول ثلاثة إمكانيات للوجود نفسه ، فالوجود الأول هو الوجود الممكن ، وتعريفه يكمن بما يمكن أن يكون ، والممكن ليس له حقيقة واقعة ، أما إذا كانت كل شروط وجوده معطى أو مقدمة فعندها فقط نستطيع القول بأنه سيكون أو سيوجد . أما الغير ممكن فهو ما لا يمكن وجوده مهما توافرت له الشروط(١) .

والإمكانية إما أن تكون ذاتية لا مادية أي ميتافيزيقية وهذه توجد في غياب التناقص : « الله يوجد ذاته ولا يعدم ذاته الوجود » « الله عادل ولا يعدم ذاته العدل »(٢) فيفسّر ظلم الله بالعدل وعدمه بالوجود ، وهذه الإمكانية توجد في غياب التناقض ؛ أما الوجود الآخر فهو الوجود بالإمكانية الخارجية عن الذات وتفترض الإمكانية الذاتية ، وتعني أن مصدر التناقض وجود شروط ضرورية لإخراج الخاصية المفترضة من الإمكان إلى الوجود ، بمعنى آخر هو وجود شروط ضرورية لإثبات موجودات ممكنة ذاتياً أو بالأخص وجود علّة فاعلة ، ولا بد من الملاحظة من أن الإمكانية الذاتية هي أكثر صعوبة في التحديد ـ الله يخلق ذاته ـ وهذا ما أثار الجدل ، حيث أن بعض الفلاسفة يصبغون الإمكانية بنوعيها على الله :

الممكنات ممكنة لأن الله يفكر بها **وكذلك** إن الله يفكر بها لأنها ممكنات .

ومعرفة الحقيقة أو الموجود تتناول خروج هذا الموجود من الممكن إلى الحقيقة(٣) لأن الموجود الحقيقي يتعارض مع الممكن وهذا يتطلب معرفة أنواع هذا الموجود الحقيقي الذي هو صلب المعرفة :

ـ الموجود بذاته أو الفكر .
ـ الموجود الموضوعي المستقل عن الفكر .

فالفكر ليس فقط من الممكنات وإنما قبل كل شيء هو مما هو موجود حقاً وقد دلل ديكارت على ذلك بقوله الكوجيتو المشهور ، أنا أفكر إذن أنا موجود ، هذا الوجود هو وجود كائن مفكر لأننا لا نستطيع أن نعرف وجوداً خارج الفكر . . وهذا تفكير مثالي يبدأ من الفكر وينتهي إليه ، حتى الإرادة فهي فكر فهو حين يقول أفكر إذن أنا موجود يقرّ بأنه يفكر وفي ذهنه فكرة واضحة ومتميزة

---

(١) برجسون ، منبعي الأخلاق والدين ، دار المعارف ، مصر .

(٢) Delbos, la parole de Kant.

(٣) أرمان تيبوذيت ، مذهب برغسون .

وليست فكرة أو فكر بالإطلاق بل هو فكر على نطاق محدود ولهذا كان فكر ديكارت متوحداً بفكرة الله طالما أن هذه الأخيرة فطرية وهي الفكر نفسه ، وهذا الفكر هو المرتبة الأولى للحقيقة(١).

أما الوجود المستقل عن الفكر فهو يتأرجح بين الجوهر والعرض أي المادة الحافلة لما يسمى صفة كما وأن الأعراض لا توجد بدون جواهر بينما الجوهر يوجد بدون عرض أي يوجد في ذاته ، وعند برجسون هي موجودة لذاتها كالإنسان العارف بوجوده وغير راضٍ عن هذا الوجود(٢).

وكل هذه الموجودات في ذاتها تمر من الإمكانية إلى الوجود بفعل موجود آخر سابق يوجد بذاته وتسلسل هذه الإمكانية يجب أن تتوقف عند موجود أول لا سبب آخر لوجوده . لذا لا بد أن نسبغ على هذا الموجود الأول صفتين :

١ ـ ما هو موجود بذاته ويملك كل مقومات الوجود .
٢ ـ الموجود بذاته ضروري (السببية ، الله) .

هذه المميزات التي نطلقها على الموجود الأول تتضمن بداخلها مواصفات مثل اللابداية ، اللانهاية ، المطلق ، الأبدي ، الكامل . . . وكلها تعابير اختلقها الإنسان ولا وجود لها في الحقيقة ، اختلقها فقط ليثبت المعنى الغير معقول للسببية الأولى .

فالمعرفة تتضمن لكل ما نستطيع أن ندركه ونتصوره ضمن منطق الوجود وكأن الوجود هو أول أسباب المعرفة ، والوجود هذا هو المعنى الأهم لا يمكن أن يشرح بغير الاسم (٣)، لأنه مبدأ أول بل أن صورته تقوم في الذهن بدون توسط لأي معنى آخر . وإذا أقرينا بأن هذا الوجود هو أكثر الأمور عمومية وأولها حصولاً في الذهن وأكثرها واقعية في الخارج فليس يخفي أن هناك زوايا مختلفة يمكن أن نتناوله في ضوئها لبسط معناه وتحديده وهذا هو التحليل الميتافيزيقي لهذه الفكرة الذي يبرره قيام الميتافيزيقا كعلم = الأنتولوجيا . وهي تبحث كما يقول الغزالي : لو أحق الوجود لذاته من حيث أنه وجود فقط ككونه جوهراً وعرضاً وكلّياً وجزئياً وواحداً وكثيراً وعلّة ومعلولاً بالقوة وبالفعل وموافقاً ومخالفاً وواجباً وممكناً (٤). . من قول الغزالي هذا يتضح أن الوجود بما هو موجود يتعرض بالتحليل الفلسفي إلى بسط إجمالي والتيقن منه لا بد أن يقع في واحد من هذه المعارف فهو إما جوهر وإما عرض وهو إما بالقوة أو بالفعل .

وهنا تبرز الفلسفة الدينية التي يتمحور موضوعها حول المفهوم العملي للفرد وهو الأخلاق التي

---

(١) راجع : جان فال ، الفلسفة الفرنسية ، (ديكارت) .
راجع : نللينو ، التراث اليوناني ، تر : عبد الرحمن بدوي .
(٢) أندريه كريسون ، برغسون ، منشورات عويدات .
راجع : اللحظة العدمية ، محمد الزايد ، دار عويدات .
(٣) Lalande, Vocabulaire philosophique.
(٤) الغزالي ، مقاصد الفلاسفة .

هي السؤال وهي الدليل في الإجابة عن غاية الوجود . ففكرة الخطيئة الدينية هي أن نشعر بعمق وجودنا الحقيقي ونلتفت إليه ، والخطيئة نفسها تفسر بأنها انجذابنا نحو العدم لا نحو الوجود ، إلّا أن هذا الوعي بالخطيئة هو في الوقت ذاته الطريق إلى حياة أفضل نسميها الحياة الدينية ـ الطقوس ـ حيث يتحقق الوعي بالوجود على نحوٍ فيه تسامٍ وتجاوز ، ينطلق في الفلسفة الدينية إلى الإيمان بنظام كوني يعتقده الفيلسوف الحقيقةَ المطلقة التي يجب على الإنسانية أن تدين به . وهذا النظام يتناول الوجود عامةً في صغائره وكبائره ويصل بالعقل الإنساني إلى ثورة على قدراته والشك بالأساليب التي تفضي إلى الحقيقة ، والثورة على السلطة الفردية لأنه يتجه بحكم طبيعة هذا السلوك إلى حقيقة يمكن عقلنتها ، فالعقل بالأساس هو المطلق وهو المنظم ، والفيلسوف لا ينتهي إلى هذا النظام بعد البحث بل ينطلق في الفكرة نفسها ويعود إليها ، إذ إيمانه بفكرة وجود نظام كوني وعمله الدؤوب على تأكيد هذا النظام بفكره ماورائية غير مادية هذا الإيمان لا يعني أن هناك نظاماً كونياً واحداً قد أجمع عليه المفكرون . بل أن هذا النظام وليد فلسفة فردية تختلف بنظرتها عما سبقها وعما سيلحقها[1] ومن هنا يتناول الفيلسوف كل نواحي المعرفة ويعيدها إلى عنصر واحد منه ينبثق كل شيء وإليه يعود كل شيء فهي كما قال سقراط : بحث عن وجود الحقيقة في حقيقة الوجود[2] .

من هنا خضع تنظيم المجتمعات إلى أنساق فلسفية بدءاً من حكومة أفلاطون المثالية المتعالية على أي زمان ومكان والتي تعتبر نموذجاً للأفعال الإنسانية أو معياراً أو نمطاً لها فحسب إذ لا تحمل في قوانينها أنظمة الواقع ولا في تكوينها فحوى أنتولوجي[3] انتهاءً بالأديان السماوية التي افترضت الإنسان المثالي المعتنق والمطبق بكل ما جاء في الكتب السماوية[4] . وبذا كان التضارب بينها ـ أي جمهورية أفلاطون وبين الدولة المسيحية ـ الفكر المسيحي ـ التي وجدت أن لا صلة بين الواقع والمثال في التأملات اليونانية لأن منطوق الفكر المسيحي هو التماثل والتشابه بين المثال والواقع ـ المسيح والله ـ عبر الانفعال الحسي والمجهود العقلي وذلك بتحول الاعتقاد الديني في عالم غيبي إلى اعتقاد ديني في الخلق والتجسد ، وهذا التحول لم يؤثر فقط على المعتقد بل رافقه بذور قيام دولة له الجذر الأساسي فيها الدين لأنه مصدر الطمأنينة التي لم ينجح أفلاطون من تأمينها وبذا قامت دولة القرون الوسطى الدينية برئاسة البابا[5] يعاونه القساوسة . . والتي لم تستطع مقاومة الاجتياح العقلي الذي ذكره الأب أوغسطين في فقرات من كتابه شيشرون والتي جاء فيها : إن العدالة أساس

---

(١) محمد عبد الرحمن مرحبا ، المسألة الفلسفية ، دار النهضة . بيروت ، ص ١٢٢ .

(٢) هذه العبارة نقشت على مدخل معبد دلفي في اليونان وما زال حتى اليوم دارسو الفلسفة يقدمون لها طقوس الاحترام القريبة من العبادة عند حصولهم عن درجة الدكتوراه في الفلسفة .

(٣) جمهورية أفلاطون ، تر : كورنفورد ، ص ٣١٢ .

(٤) محمد باقر الصدر ، فلسفتنا ، إيران .
راجع : محمد باقر الصدر ، البنك اللاربوي في الإسلام ، دار التعارف للمطبوعات .

(٥) البابا هو ممثل الكرسي الرسولي ، وهو الحاكم المعصوم .

القانون والمجتمع المنظم وبغير العدالة لن توجد حكومة أو فكرة حقه عن الصالح العام[1].

هذا الاندماج لم يلغ الاختلاف بين المعطى الديني والمطلب القانوني العدل فانتهى النزاع لصالح العقل الذي نشره روسو في كتابه النظم السياسية الذي غير وجه التاريخ ووضع أسس دولة جديدة ، فالأنسيكلوبيديون الفرنسيون كانوا لسان حال عصرهم ومنهم كانت المبادرة في التحذير مما سمّوه بالروح المذهبية . . . فالأفكار بعصر سيطر فيه العقل لم تعد مجردة بل أصبحت أسلحة للصراع السياسي والاجتماعي . يقول كانط : لا يمكن أن تُنسى مثل هذه الظاهرة في تاريخ البشرية ، فلقد أثبت احتواء الطبيعة الإنسانية على ميل إلى ما هو أفضل واستعداداً لبلوغه ، وهذا بمقدور أي سياسي أن يتنبأ به ، إذا اعتمد على تذكر الأحداث السالفة »[2] .

إذن انتقل الفكر من مجرد الطرح إلى التطبيق ، وتبلورت فكرة الغاية أكثر في السياسة بانتقالها من الأسطورة السياسية ـ الحكم الإلهي ـ إلى الحل السياسي العادل ، وانتقل الحكم من تحكم مشاعر الأفراد إلى رأي الجماعة ـ من الحكم الفردي البابا ، رجل الدين ـ إلى القانون وظهرت قوى سياسية واجتماعية عقلانية محل التنظيمات الدينية وتجسدت الرغبة الجماعية لما يمكن تحقيقه عند أي شعب متحضر . وبذا تحول الانقياد البدائي بتركيز قوى الإنسانية والقوى الطبيعية وتكثيفها بيد فرد واحد ـ الساحر أو الكاهن أو رجل الدين ـ إلى حكم عقلاني يختار ممثل له لا يعلو على القوانين التي وضعتها الجماعة يقول كارلايل : إننا سنرى العظيم في كل العصور كان منقذاً لا غنى عنه لعصره فهو أشبه بالشرارة وبغيره ما كان الوقود ليتّقِدْ »[3] .

فالإيديولوجية الفكرية الحديثة عملت على تنظيم المسائل القانونية معتمدة على الطرح الفكري للمحافظة على مشاعر الناس وأحكامهم ، ولم يتحقق هذا الطرح إلّا بعد خوضه مشاحنات دينية كانت تبغي السيطرة على أفعال الناس وضمائرهم وأخفقت رغم المحاولات التاريخية التي لم يبق منها إلّا شعوراً متزايداً وحاجةً قوية للحرية .

د. منى حسن دياب

---

(١) أوغسطين ، مدينة الله ، الكتاب الثاني ، الفصل ٢١ ص ٧٧ .

(٢) كانط ، الصراع بين الملكات ، أرنست كاسيرر ، جـ ٧ ، ص ٣٨٧ .

(٣) كارلايل ، الأبطال ، ص ١٣ .

محاضرات ـ مناقشات ـ كتب ـ متفرقات

زار الدكتور سمير أمين لبنان في أوائل شهر أيار ١٩٩٠ ، وأجرى عدة لقاءات ومحاضرات وندوات ، وتسنّى لنا حضور ثلاثة منها :

١ ـ يوم ثقافي في بيت الدين ـ قصر الأمير أمين ـ الأحد ٦ أيار ١٩٩٠ ، جلسة صباحية (القسم الأول : تحدَّث د . أمين حول مستقبل الاشتراكية في ضوء المتغيرات ـ القسم الثاني : أوراق عمل من د . فهمية شرف الدين / د . خضر زكريا / د . سناء أبو شقرا) وجلسة مسائية (نقاش) / أدار الجلسات محمود أبو شقرا (الإدارة المدنية في الجبل) .

٢ ـ ندوة ونقاش حول كتاب « نحو نظرية للثقافة » في نادي خريجي الجامعة الأميركية ـ الاثنين ٧ أيار ١٩٩٠ / أدارت الندوة د . فهمية شرف الدين ، معهد الإنماء العربي .

٣ ـ « لقاء حوار » في معهد العلوم الاجتماعية ـ الثلاثاء ٨ أيار ١٩٩٠ ـ أدار اللقاء د . محمد شيّا (مدير الفرع الأول لمعهد العلوم الاجتماعية) .

I ـ بيت الدين

القسم الثاني من الجلسة الأولى :

□ د . فهمية شرف الدين ـ المسألة القومية في فكر سمير أمين ـ

المسألة الهامة عند سمير أمين أنه يدخل إلى المعترك بما يتيح فهم القضايا ، فالممارسة تسمح بتحويل المعرفة إلى ميدان تطبيق ـ اعتبار القومية تجاوزاً للواقع العربي .

أهمية المسألة تنبع من :

١ ـ التغيرات في أوروبا الشرقية وداخل الاتحاد السوفياتي (بروز المسألة القومية) .

٢ ـ تنشيط النقاش حول مسألة القومية للخروج من التحليلات المبسطة .

فكر سمير أمين مؤسس على المنهج المادي ، على التصرف مع فكر ماركس بحرية (إعادة صياغته في أفق آخر) . لذلك سنتطرق لفكر المؤسسين قبل الوصول إلى فكر سمير أمين في المسألة القومية :

١ ـ المؤسسون : ماركس : رؤية تطورية ـ لم تخرج رؤيته عن تمرحل رأس المال ـ مأزق /

ظواهر جديدة مع بداية القرن العشرين / لينين : أسئلة فعلية حول موقع الأطراف ـ نقاش مع روزا لوكسمبورغ وتروتسكي ـ تجاوز مفهوم التطوّر الحدي ـ عالمية الرأسمالية لا تحقق التجانس (مناطق مستغِلّة ومناطق مستَغَلّة) ـ إضافة البعد السياسي / تجمدت هذه الرؤية بعد لينين لصالح ماركسية مدرسية .

٢ ـ المسألة القومية في فكر سمير أمين :

« الخصوصية » عند سمير أمين هي ارتباط جدلي بين العام والخاص وطرح إمكانية نقل الخاص في العام . وان قبِلَ مفهوم «نمط الإنتاج»، فإنه رأى المراحل بأشكال تعكس حقيقتها الفعلية .

النمو المتكافىء بين المركز والأطراف (قانون التطور اللامتكافىء) .

الانتقال من نمط إلى آخر يتم في إطار : النظر في القوى الاجتماعية وتجاوز مفهوم التجانس القومية مرحلة ضرورية لبناء الدولة .

التنمية تتطلب « فك الارتباط » .

أطراف النظام الرأسمالي بؤرة تجاوز هذا النظام .

ظاهرتان عالميتان معاصرتان :

ـ الحدود التاريخية لأيديولوجية حركات التحرر : إنجاز الاستقلال (هدف سياسي) والعجز عن التحرر الاقتصادي والمراوحة .

ـ الاستقطاب (تعميق الارتباط والتبعية) .

أسئلة تُطرَح على فكر سمير أمين :

ـ ثورات الأطراف : هل هي اشتراكية ؟ هل تستطيع الطبقة العاملة ـ إن وجدت ـ تجاوز النظام الرأسمالي ؟ (التكيفات الحالية منعت تشكل طبقة عاملة كما تطرح اللينينية والماوية) .

ـ ضرورة تكييف النظرية النقدية مع وقائع التاريخ المعاصر .

ـ نلاحظ الانسحاب من العام إلى الخاص .

ـ التحالف الوطني الشعبي : كيف ؟ (عدم انسجام الصراع الطبقي مع « الصراع القومي ») .

□ د . خضر زكريا ـ حول « ما بعد الرأسمالية » .

* اتفق مع سمير أمين مع فكرة أن الماركسية هي أيديولوجية عصرنا على صعيد عالمي ، وإنها تواجه مشاكل عصرنا بإيجابية . والماركسية المقصودة هي المنهج وليست نتائج البحوث ، لأن البحوث لها حدودها التاريخية والمكانية . إن فهم الماركسية فهماً متفتحاً يعطيها طابعاً عالمياً هو شرط أدائها في تغيير العالم . وأذكر دعوة مهدي عامل إلى تمييز فكرنا الماركسي أي استخدام المنهج الكوني في فهم التميّز . أذكر هذا وأنا أرى الزلزال الذي دمّر الكثير من المنظومات حتى أن الكثيرين هللوا لموت الماركسية . لكنني أرى أن أهم ما دمّره الزلزال هو الجليد الذي جمّد

الماركسية ؛ وإنه طرح مهمة مكافحة جميع أنواع التكوين السلفي المجمّد للماركسية .

* فك الارتباط : تُطرَح على الأطراف مهمة تجاوز حدود الرأسمالية في فك الارتباط مع النظام الرأسمالي العالمي أو الذوبان فيه / فشل البرجوازية في التحرر من التبعية / ضرورة تحديد الطبقات على صعيد نظام كلي ، لا على الصعيد المحلي .

* « طريق التطور اللارأسمالي » أو « التوجه الاشتراكي » : ما جرى هو فعلاً رأسمالية الدولة التابعة (أو الطرفية) ـ تحوُّل البرجوازية الحاكمة إلى كمبرادورية ـ لا فرق بين نظام يهيمن فيه قطاع الدولة أو القطاع الخاص ما دامت التبعية للنظام العالمي .

لماذا يعترض د . أمين على مصطلح « التبعية » ؟ (مهدي عامل يستخدم أيضاً « نمط الإنتاج الكولونيالي » ويقصد « التبعية » ؟) .

ماذا يمكن قوله في « الطبقات الوسطى » ؟

* حول العلاقة بين الاشتراكية والديمقراطية : الاشتراكية ليست فقط التعريفات السلبية (مثل إلغاء الملكية الخاصة) بل أيضاً الجوانب الإيجابية (كفاءة الإنتاج ـ الديمقراطية الحقيقية . .) . أرى ضرورة إغناء هذه المسألة : ما هو الشكل الملموس للديمقراطية المطلوبة ؟ كيف نضمن عدم طغيان فئات جديدة باسم الديمقراطية أو عدم الوصول إلى الفوضى ؟ ما هي خصائص المسألة الديمقراطية في بلدان العالم الثالث ؟ ـ فتح باب النقاش في طبيعة المجتمعات « الاشتراكية » أو ما نسميه « الاشتراكية المزعومة ») .

* حول « التجربة الصينية » (فك الارتباط بطريقة ناجحة) . الدكتور أمين يكاد يمتدح الثورة الشعبية الصينية . لكن وإن فعلَت هذه الثورة حسناً بفك الارتباط مع الثقافة الأوروبية ، لكنها أحيت كتب التراث الصيني وفكت الارتباط مع مختلف الثقافات العالمية .

* ملاحظة أساسية على الكتاب : يرى د . أمين أن الخروج من الرأسمالية يبدأ من أطراف المجتمع لا من داخله . وتحققه قوى المجتمع الداخلية فالاعتماد على الخارج لا يعوّل عليه / الأطروحة اللينينية إمكانية الانتقال إلى الاشتراكية من أحد أطراف الرأسمالية ، إنما بمساعدة الطبقة العاملة / لماذا لم يرَ د . أمين الطابع العالمي للدور التاريخي للطبقة العاملة ؟ يجيب د . أمين بأن الطبقة العاملة في المراكز تستفيد من الإمبريالية ، وإن هيمنة الدولة في الشرق « الاشتراكي » تمنع الشعب من التحكم بمصائره . والتعويل على مساعدة هذه البلدان لا طائل منه .

وبالتالي يُطرَح السؤال حول مَنْ الذي يحقق فك الارتباط ؟

ولا أعتقد أن جواب د . أمين هو جواب د . فهمية شرف الدين القائل إن الذي يحقق فك الارتباط هو القومية والأفكار الثورية . وأعتقد أن مسألة تجاوز الرأسمالية هي مسألة عالمية إذ ليس

للحديث عن إعادة تشكيل للقوى في العالم :

ـ طرف يضمّ المجمّع الصناعي الحربي في الدول الرأسمالية وأنصاره والبرجوازيات الكبيرة والبيروقراطية في دول العالم الثالث وقوى العرقلة في البلدان « الاشتراكية » .

ـ طرف يضمّ شعوب البلدان المستعمرة وقوى الديمقراطية في الغرب (الطبقة العاملية والحركات النسائية والشبابية والديمقراطية) وقوى التغيير الثوري والإصلاح في « العمل

أما الدعوة إلى فك الارتباط بدءاً من أطراف النظام وإهمال العالمية . فهذا أمر لن يحقق شيئاً وهي دعوة أقرب إلى الطوباوية . / أهمية وقف التسلح في تغيير شكل العالم واستراتيجياته / .

□ د . سناء أبو شقرا ـ حول مفهوم « فك الارتباط » وتجاوز الرأسمالية :

يقدم سمير أمين استنتاجات يمكن أن تشكّل مشروعاً سياسياً ثقافياً اجتماعياً سنحاول استعراض بعض النقاط ، رغم أن تفكيك فكر ما إلى أجزاء فيه تعسّف يدفعنا إلى بحث مفهوم فك الارتباط :

ـ ضرورة حل أزمة النظام الرأسمالي لصالح الشعوب .
ـ الأزمة المتفاقمة لبلدان العالم الثالث .
ـ أزمة الحركة الثورية وعجزها .

ماذا يعني فك الارتباط ؟

ـ كي تستطيع بلدان العالم الثالث أن تتحكم بمصيرها ، ينبغي أن تمارس تنميتها بالتمحور حول الذات (الاستفادة من الخارج لرفد الداخل) / الاشتراكية هدف اجتماعي ولبست نموذجاً محققاً / .

ـ فك الارتباط مورس في الاتحاد السوفياتي والصين نتيجة ثورات شعبية جذرية التوجه ، استناداً إلى مفاهيم لينينية .

(يقوم الدكتور أمين بقراءة معاصرة حية لرؤيا لينين المبكّرة لمفهوم التطور اللامتكافىء) يرى د . أمين في أن مركز الثقل في الثورة المعاصرة انتقل من المركز إلى الأطراف / الطبقات الثورية في المركز تخلّت عن معاداتها للنظام ؟!/ تفسير خاص للمادية التاريخية (التحولات تتم من الأطراف) .

فك الارتباط والتحالف الشعبي الديمقراطي لا يلغيان صراع الطبقات ليستبدلانه بمفهوم الأمة ـ الطبقة ، إنما يضعان الصراع في المجرى المعاصر .

أوافق على استحالة الخروج من الأزمة في بلدان العالم الثالث إلاّ في الخُروج من النظام نفسه ، إنما النقاش هو حول آليات الخروج :

ـ « فك الارتباط » هو تطوير ملموس لمهمات حركات التحرّر ، / وهو مرهون بالتوازنات المحلية والعالمية / .

ـ استند المفهوم إلى التوازن النووي وطاقة الدول الاشتراكية . إنما الآن ، رغم استبعاد أن تصبح الأمبريالية طليقة اليدين ، فإن حركتها تصبح أكبر . ولا يمنع هذا من القول بتعدد الاستقطابات في المركز الامبريالي ، رغم أنها تظل محكومة بسقف الاحتكارات الكبرى .

ـ دور العلم والتكنولوجيا في حصار الأطراف .

ـ ضرورة قيام تقارب تدريجي بين بلدان أنجزت قسماً من المهمات (قيام تجمعات قومية وإقليمية) / التجمعات العربية ، رغم السلبيات ، قد تتخذ منحى مغايراً تقدمياً / .

ـ نلاحظ وجود أزمات في المركز وبنيات مأزومة في الأطراف ، ورغم ذلك تستمر المراوحة ، فهل أن الأسباب ذاتية ؟ / « عدم الشفافية » تتفاقم في الأطراف ـ قوى التغيير لم تطرح البديل الواقعي ـ ضرورة فهم أكثر واقعية للتضامن الأممي (المصالح المشتركة مع السوفيات ـ العلاقة مع المعادين للرأسمالية في المراكز) / .

ثم : ما هي قوى التحالف الشعبي الديمقراطي وما هي برامجه ؟ ما هو دور الانتليجنسيا ؟ ما هي شروط نهضة فكرية جديدة ؟

توجد أرض خصبة لإنماء فكر اشتراكي جذري ، ولإغناء المادية ، ويسهم فكر سمير أمين في بلورة هذا الاتجاه .

II ـ نادي خريجي الجامعة الأميركية في بيروت

□ مداخلة د . سمير أمين (أهم النقاط)

عنوان كتابي « نحو نظرية للثقافة » ، بمعنى أن أفكاري لم تتخذ صياغتها النهائية . الفكر الاجتماعي أنتج معرفة في ميادين معينة ، وتخلّف في ميادين أخرى . فهناك مثلاً فهم شبه علمي للميكانيزيات الخاصة بالرأسمالية محلياً وعالمياً ، رغم الاختلافات .

الاستلاب الخاص بالرأسمالية هو اقتصادي (الظواهر الاقتصادية تظهر طبيعية) . بينما يلعب بُعد السلطة في النظم السابقة دوراً آخراً (بالنظرة إلى السلطة نعترض النظر أكثر إلى السلطات السابقة) .

الأيديولوجيا في المجتمعات السابقة على الرأسمالية كانت تلعب دوراً أساسياً ، رغم أن البنية التحتية « تحكم في نهاية الأمر » ، لكن يجب النظر إلى قصور قوى الإنتاج بما يعطي هذا الدور للأيديولوجيا . فليس البناء الفوقي « انعكاساً » لاحتياجات البناء التحتي (هذا بديهي لا ينتج نتائج خاصة) .

ـ فرضية وجود أصول مشتركة للحضارات .

رغم احترام نظرة إدوارد سعيد للاستشراق ، لكن هذا لا يكفي .

هناك شبه عميق بين المسيحية والإسلام وبين دور المسيحية في المجتمع الأوروبي ودور الإسلام في المجتمعات السابقة على الرأسمالية .

الدين لعب دوراً أيديولوجياً ميتافيزيقة ، ذات جذور في الهللينية وليس في اليودسية . فالهللينية وحدت الشرق القديم .

هناك شبه بين ما حدث في منطقتنا العربية الإسلامية وبين ما حدث في الصين . إن ما حدث عندنا تتابع تاريخي بين الميتافيزيقيا والدين . أما في الصين ، فلقد حدث تعايش (التعبير غير الديني عند النخب الحاكمة ـ التعبير الديني عند العامة) .

تحرر الفكر الاجتماعي (وليس الإنساني) من الميتافيزيقيا عبر العلمانية (الرأسمالية الأوروبية) الدور التاريخي للماركسية هو التحول من أيديولوجية محدودة بحدود تاريخية إلى أيديولوجيا معاصرة عالمية .

□ نقاش :

* د . خضر زكريا : كيف تحوّلت المراكز السابقة إلى أطراف والأطراف السابقة إلى مراكز ؟

* د . صادر يونس : في الكتاب تساؤلات . وهو لم يُجب على تساؤلات أخرى ـ المجتمع الرأسمالي صار نموذجاً عالمياً ، ليس إرادياً ، بل تلقائياً . بينما يُطلَب بناء شيء آخر بشكل إرادي . ولقد تبيَّن فشل المحاولات الإرادية في التاريخ . المجتمع الرأسمالي غير إرادي . المجتمع الاشتراكي إرادي .

كيف تتكوّن ثقافة « للأطراف » ، ووسائل الإعلام تنقل النموذج الحياتي الأميركي ، كنموذج ثقافي ، وفي ظل انهيار الأنظمة الاشتراكية .

ماكس فيبرلم يقل بانعكاس البروتستانتية في الرأسمالية . الأصولية البروتستانتية تعايشت مع عملية التطوير الرأسمالي . بينما نجد أن الأصولية في مجتمعات أخرى كانت تلعب دوراً آخر .

* د . سناء أبو شقرا .

يربط د . أمين ربطاً مباشراً (أكثر من اللازم) بين الفكر والحقيقة الاجتماعية ، خاصة في المجتمعات الخراجية .

الميتافيزيقيا جدلية من ناحية دورها ، فهي صيغة تكريس لواقع وصيغة احتجاج شاملة . كيف نفسّر ظاهرات دينية كبرى كالإسلام الذي نشأ في منطقة لم تكن متفتحة فيها علاقات الإنتاج (إذا

أخذنا الوحدة الإقليمية بالاعتبار) ؟ كيف نفسّر ميتافيزيقيا هيغل ؟ ما هي خصوصيات الوعي الديني في المجتمع الإنساني ؟

* د . جـاك قبانجي .

١ ـ نظام التشابهات (المسيحية ـ الإسلام) يخفي سيرورات اجتماعية مختلفة . فالمسيحية انقسمت منذ نشأتها إلى كنائس وطنية أولى ، والسيرورة الأساسية انقسـام الكنيسة إلى اثنتين (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) ، وقد آلت الانقسامات إلى الدولة ـ الأمة . أما الإسلام فقد تعرّض إلى انقسامات (فُـرَق) ، وبقي موحداً مركزياً ، كما إنه أنشأ نظاماً مجتمعياً متكاملاً .

٢ ـ ينتج عن عرض د . أمين أن الدول المحيطية التابعة تجد نفسها أمام مأزق مستمر ، فجوة مستمـرة ، ومع ذلـك ينبئنا أنـه لا بدّ من عمليـة تغييـر . نتمنى ذلـك (!) ، لكن في ظـل انهيـار الاشتراكية الواقعية وإعادة تلميع صورة الرأسمالية والسيـطرة الامبريـالية على المـواد والتكنولـوجيا والاختراع و . . ، كأنني استنتجت كأن التغيير يأتي من العالم الرأسمالي وليس من الأطراف .

* د . صفوان حيدر : اليابـان ؟

* د . محمد شيّا : الأولى بالمداخلات أن لا تمتدح . أهميـة « نحو نـظرية للثقـافة » أنـه يختزل كل جهد الستينات والسبعينات والثمانينات بمنهج واحد . ومكمن النقد الذي يمكن أن يوجه إلى العمـل أنه يكمن في هذه المسافة . هل يمكن تطبيق منهج واحد على كافة المراحل ؟ فإذا قبلنا المنهج وشروطه المنطقية ، لا نختلف في ما كتبه . أما الانطلاق من وجهة نظر أخرى ومناهج أخرى وأدوات مفهومية أخرى ، فإنه يوصل إلى نتائج أخرى .

إنما ضمن المنهج توجد ملاحظات :

ـ نمتدح التفريق بين المرحلة اليونانية والمرحلة الهيللينية ، وبذلك يصبح الإعجاز اليـوناني عادياً ، وليس إعجازاً ، بل استمرار ممتاز للحضارات السابقة على الإغريقية . ونرى أنـه بالنسبـة للحضارة الإغريقية لم تنل آلياتها الخاصة اهتماماً . .

ـ ضرورة كشف أوراق أخرى من الحضارة الفرعونية .
ـ الربط بين البروتستانتية والرأسمالية .
ـ مسألة لم يركّز عليها د . أمين : العالم الإسلامي .
ـ تعميم أكثر مما يجب في ربط المتشابهات (ربط قـوانين العالم الإسـلامي بقوانين العـالم الغربي) واعتقد بوجود تطورين مختلفين في البنية (الإسلام : شفافية ـ الغرب : لا شفافية) .

ـ كيف تسنى لألمانيا ـ التي كانت في نهايات المرحلة الإقطاعية في بداية القرن ـ أن تتوصل

في أقل من نصف قرن إلى الانتماء إلى المنظومة الغربية ، ولم تتمكن حضارات كبرى من ذلك في فترة أطول ؟

* د . سعيد الصبّاح

ـ هل هناك إمكانية لشعوبنا لإنتاج شيء جديد ؟

ـ الكتاب الأخضر ؟

ـ ما الفرق بين نمط الإنتاج الخراجي ونمط الإنتاج الآسيوي ؟

ـ ماكسيم رودنسون يرى أن الرأسمالية انطلقت من جزر معينة على أطراف العالم الإسلامي .

ـ يقول البعض : انتصر كاوتسكي على لينين والمناشفة على البلاشفة . هل هذا صحيح ؟

□ ردود الدكتور سمير أمين .

أبدأ من سؤال الدكتور شيّا ، فأنا حاولت أن « أطبّق » المنهج الماركسي في النظر في تطورات تاريخية (رغم عدم ميلي لاستعمال كلمة أطبّق) . وهناك تساؤلات مثل هل من الممكن استخدام منهج واحد على كافة مراحل تاريخ الإنسانية . من حيث المبدأ ، هي محاولة لتطبيق منهج على ظروف معينة ، وإلّا سنركّز بلا نهاية على خصوصيات ، دون الخروج بنتيجة لتغيير الأوضاع الاجتماعية ؛ فالكتاب ليس موسوعة ، وهو محاولة أولى تحمل نقاط ضعف كثيرة .

يمكن التمييز بين نقد الكتاب من الخارج أو من الداخل ؛ لكن أرى أن التساؤلات تحمل همومي (من الداخل) .

كيف حدث تحوّل المناطق الهامشية إلى مراكز ؟

أنا فعلاً انطلقت من هذا التساؤل . لماذا انطلقت الثورات المعادية الرأسمالية من أطراف النظام الرأسمالي (روسيا ـ الصين) ؟

أهمية دور الاستقطاب في التوسع الرأسمالي على صعيد عالمي : نقل التناقضات من التناقض الجوهري بين العمل ورأس المال إلى تناقض بين الفئات الاجتماعية في أطراف النظام وبين رأس المال في المركز .

رأيت تشابهاً غريباً في التاريخ ، فالرأسمالية نشأت أيضاً في مناطق متخلفة (أنا مع رودنسون) . أيضاً فإنه في اليابان المتخلف بالنسبة للصين (طرف للصين) ، نجحت الرأسمالية في فترة قصيرة . . إذاً وجدت شيئاً مثل قانون عام هو أن النمط الأكثر تقدماً يبدأ في الظهور (ولا أقول يتكوّن) في الأطراف ، بينما يصطدم بعقبات في المركز . النمط الجديد يأخذ شكله النهائي في جدل المركز والأطراف . (تناولت الموضوع في كتاب « الطبقة والأمة في التاريخ ») .

عرض كونت شبيه بعرض هيغل (عرض مثالي للتاريخ) ، وهو لا يربط تطور الفكر بتطور

نمط الإنتاج وقوى الإنتاج . أنا حاولت الربط ، بمنهج خصب ، رغم أن البعض يعتبره عيب الماركسية .

هل هناك إمكانية بناء أيديولوجيا بشكل إرادي ؟ المجتمعات السابقة خضعت للتاريخ دون وعي ، وأنتجت نظم أيديولوجية دون وعي . نحن نحاول (على الأقل الفكر الاشتراكي منذ ولادة الفكر الماركسي) إنتاج فكر بمعنى إدراكي واعي (ليس إرادي بالمعنى السلبي) . وأعتقد أنها قطيعة . الاشتراكية بدأت كفكر شبه ديني تلقائي تطوّر إلى تبلور الماركية . من الممكن إدراك علمي للربط بين مضمون الأيديولوجيا واحتياجات إعادة تكوين الوعي .

البعض يعتقد أن أمل البشرية بالسيطرة على تاريخها هو كطموح الأديان ، وهنا يكمن الفرق بين « الفكر الاجتماعي » (وليس « العلم الاجتماعي ») والعلوم الطبيعية .

نحن بحاجة إلى بناء ايديولوجية بالمعنى التقدمي وإلاّ فإن الإنسانية مهددة بالهمجية (وهذا غير مستبعد) .

أعتقد أن الاشتراكية ما زالت في مرحلتها الأولى . ونحن بحاجة لتطوير الفكر الاشتراكي . التاريخ لا ينتهي . لا يمكن أن تموت الاشتراكية طالما أن مشكلات الرأسمالية ما زالت موجودة .

العلاقة بين البروتستانتية وظهور الرأسمالية : رغم نباهة فيبر ، فإنه لم يخرج عن المثالية في نهاية الأمر . الفهم الماركسي هو العكس ، فاحتياجات الرأسمالية أدت إلى النقض في مجال الدين وإلى ظهور البروتستانتية / البروتستانتية ادعت أنها عادت إلى الأصول / ظهور الإسلام في المنطقة الخراجية ليس معجزة . الجزيرة لم تكن في المركز ، إنما كانت في علاقة معه ، على هامشه . ليس بالمعجزة أن يظهر الفكر الأكثر تقدماً في الأطراف القريبة (روسيا بالنسبة للرأسمالية) / صحيح ما قاله د . جاك حول ارتباط البروتستانتية بتبلور الدولة ـ الأمة .

III ـ معهد العلوم الاجتماعية

* د . محمّد شيّا :

مسألتان : ـ التعرف من قرب إلى تجربة سمير أمين في ثلاثين عاماً (نقاطها ـ محاورها ـ نتائجها ـ التقييم الشخصي للنتائج في ضوء المتغيرات) .

ـ ما هي فرص التنمية أو « فك الارتباط » في عالمنا ؟

□ مداخلة د . سمير أمين .

يسرني ، بصفة خاصة ، أن أتحدّث في هذه القاعة المتواضعة ، فنواة التغيير اجتمعت أولاً في أماكن متواضعة . والجامعة اللبنانية بكل مشاكلها تمثل للمواطنين العرب مكاناً خاصاً . إن نصيب المتفقين اللبنانيين في الوطن العربي يتجاوز حدود لبنان .

حول أزمة الاشتراكية : انهارت أنظمة حكم وربما تنهار أخرى . ربما اعتبر العديد أن هذا هو انهيار للفكر الاشتراكي وأنه يحتفل بجنازة الشيوعية . أعتقد أن هذا الرأي غير سليم . أود أن أتناول مضمون المشكلة، مضمون الانهيار .

الفكر الاشتراكي ، بما فيه الفكر الماركسي ، لم يعطِ لظاهرة معينة وهامة هي التوسع الرأسمالي أهميتها الحقيقية . إن التوسع الرأسمالي لم يؤدِ إلى نوع من التجانس عالمياً .

الفكر الاشتراكي في القرن التاسع عشر (وبما فيه الماركسي) كان متفائلاً من هذه الناحية ، وتوقّع أن يؤدي التجانس إلى خلق ظروف ثورة عالمية تتجاوز الرأسمالية ، بما يسمح بقيام عدالة اجتماعية عالمية . أثبت التاريخ أن هذا التفاؤل لم يحدث . وبالتالي هناك مشكلة : ماذا نفعل أمام عدم التجانس الناتج عن التوسع الرأسمالي نفسه .

ثورة ١٩١٧ في روسيا بدأت تواجه هذا التحدي . قال لينين : إنَّه من الممكن مواجهة النظام الرأسمالي في « حلقاته الأضعف » ، وذلك تمهيداً لتغييرات سريعة لاحقة . إلاَّ أن التجربة التاريخية لم تؤدِ لمثل ذلك . بعد سنوات ، قال بروتسكي : إنَّه لا بد من تحقيق التنمية الرأسمالية قبل أن تنضج ظروف الثورة الاشتراكية . الروس قالوا هل ننتظر أن يسبقنا الألمان أو غيرهم أم نواجه الواقع . وكان مقدراً لتقييم تروتسكي أن يفشل (مثلاً : لا يمكن أن نطلب من شعوبنا العربية أن تنتظر الأميركيين ليحلوا المشاكل العالمية ولترى ماذا تفعل بعدها !) .

ما هي أسلحة مواجهة التحدي الموجودة لدى الشعب الروسي ؟ الماركسية ؟ الحزب ؟

النظرية كانت تقول إنه من الممكن مواجهة الوضع بحل وسط بين الرأسمالية والميول البعيدة إلى حين نضج الظروف . هل أن لينين مسؤول عمَّا حدث ؟ أعتقد أن لينين كان يتساءل حول حل الموضوع : لنفترض أنه لم يحدث ثورة في الغرب . فماذا نفعل ؟ (في هذه المرحلة) .

أظن أن لينين ، من باب الحدس ، أحسَّ بوجود المشكلة ، واعتقد أن الثورة الروسية فتحت مرحلة لم تكن في اللحظة . ولذلك يجب النظر إليها كمرحلة طويلة .

وبعد انتهاء آمال قيام ثورة في أوروبا (في ألمانيا) ، ابتدأت سياسة تقوم على ٣ مبادىء :

١ ـ التوفيق بين آليات السوق وبين وضع الحدود على حركة هذه الأبيات وسياسة للدولة تضمن عدم وصولها إلى ما هو مرفوض شعبياً (تفاوت التوزيع ـ تهميش الجماهير) .

٢ ـ نوع من الديمقراطية : بخلاف الكتابات السوفياتية الرسمية اللاحقة الزاعمة ان الثورة قامت بالحزب البولشيفي ، فإن الصورة قامت على جناحين (الجناح البولشيفي وهو الجناح الأكثر جذرية من حزب أوسع والحزب الاشتراكي الثوري الذي يمثل تيار ثوري بين أغلبية الفلاحين في روسيا والمثقفون الثوريون المرتبطون به) . هذا التحالف أغفله التاريخ الرسمي . برنامج لينين

حول توزيع الأرض أخِذَ من برنامج الحزب الاشتراكي الثوري . هذا التحالف هو تحالف في الظروف الاستثنائية لروسيا في تلك الأيام . (وأعتقد أن ما نحتاج إليه عربياً هو تحالف ديمقراطي شعبي بين الطبقات المعادية للرأسمالية) نتج عن هذا التحالف نوع من النظرة لما يمكن أن يُفعل في ظروف روسيا آنذاك ، وإنهاء الأوهام المنتشرة . (إنهاء الملكية الكبرى ـ تأميم كلي أو جزئي لمؤسسات واسعة ـ تحالف بين العمال والفلاحين وعُنصر خارجي يعطي للتحالف بعداً أوسع (الحزب والانتلليجنسيا الثورية) . ولقد حصل في الثورات أن أعطيت الأولوية لاحتياجات حل المشاكل الاجتماعية الموضوعية .

٣ ـ التوفيق بين الانفتاح جزئياً على العالم الخارجي (ثقافة وتكنولوجيا) وبين سيطرة على ذلك لكي لا « نكون » رهناً لذلك . . التاريخ السوفياتي عبر عشر سنوات (في العشرينات) يعيش على هذا النموذج (لا أعتقد أنه توجد نهاية للتاريخ إنما يمكن إنهاء جزء منه يعطي شرعية للتفاوت بين الطبقات والشعوب والأفراد) . ابتداءً منذ أوائل الثلاثينات ، ومنذ أواخر العشرينات ، بدأت مرحلة ما بعد الرأسمالية وقبل الشيوعية ، وهي مرحلة قد تطول حتى مئات السنين ، فنحن نحتاج لنضوج على صعيد عالمي .

اعتقدَ « الرفيق ستالين » أنه لا يمكن السماح بالاستمرار طويلاً في هذه المرحلة ، وأنه لا بد من مواجهة الرأسمالية ، بتعبئة القوى لمواجهة العدو الخارجي والإسراع في الصناعات الثقيلة وصناعات الأسلحة .

ما هي القوى المؤهلة لذلك في ظروف المجتمع الروسي ؟ إنهم الفلاحون . ولا بدّ من السماح للدولة بأن تضعهم في ظروف تسمح لها بابتزاز الفائض لتمويل الاحتياجات . (تقليد الفكر الغربي : الثورة الرأسمالية أنتجت نمواً وتصنيعاً طبقياً في الريف) . . وبالتالي فإن الفلاحين وصغار الملاكين والكولاك أصبحوا حلفاء للبرجوازية ضد الطبقة العاملة . (نوع من تقليد الغرب (الأمسية الثانية) في ظروف روسيا) . نتج عن ذلك إنهاء التحالف الشعبي بين العمال والفلاحين في روسيا وبينها وبين الانتلليجنسيا الروسية (الحزب البولشيفي) .

كذلك بدأت الثورة الصينية بجزء من الانتلليجينسيا الثورية التي تحوّلت إلى الشيوعية بعدما أدركت عدم الأمل في إنعاش الامبراطورية القديمة أو العمل على تقليد الغرب كاليابانيين . قالوا : نحن نحتاج إلى نظرية كونية ، لكنها على علاقة بتاريخ الشعب الصيني . وجدوا تناقضاً بين العمل ورأس المال في الصناعة وتناقضاً مع الاستعمار وتناقضاً بين الفلاحين وما أسموه « الإقطاع » (الطبقة الحاكمة) . لذلك أوجدوا نوعاً من التحالف بين مختلف الطبقات الشعبية في مواجهة العدو . والحزب الصيني لم يكن فعلاً حزب الطبقة العاملة ، بل هو تجمّع للانتلليجينسيا استطاع أن يفهم ضرورة التحالف في مواجهة الرأسمالية . ولم يرتكب أخطاء الثورة الروسية في التصنيع واستغلال الفائض من الفلاحين من خلال التعاونية الإنتاجية .

دخلت النظم ـ الآن ـ في أزمة حقيقية ، تأخذ مستوى أيديولوجي .

هذه الطلائع بدل أن تنظر إلى دورها التاريخي الطويل الهام ولكن المتواضع . هام لتجميع الطبقات لتحقيق بديل كوني ، لكن ينبغي فهم التناقضات الحقيقية بدل تصوّر تمثيل الطبقة العاملة بشكل مباشر .

نتيجة لما سبق ، هناك مأزق ، وانهيار حالياً . وهو انهيار ، بدرجة أولى ، للنظم التي لا يمكن اعتبارها اشتراكية . انهيار مرحلة من مسيرة طويلة بين المجتمع الطبقي والمجتمع اللاطبقي .

الاشتراكية لا يمكن أن تكون إلّا عالمية (؟) .

هل من الممكن أن نساهم كشعوب عالم ثالث وكشعب عربي بشكل خاص في هذا الاتجاه نحو مجتمع لاطبقي ؟

□ نقاش ومداخلات :

* د . حسن الضيقة : هناك نقاط تتعلّق بالخلفية المنهجية للباحث ، لن نثيرها . . لكن انطلاقاً من النقطة المتعلّقة برؤية الماركسية للنظام الرأسمالي الوليد ، أشار د . أمين إلى أن الماركسية كانت محكومة بنظرة تفاؤلية لمآل الرأسمالية (مجتمع متجانس) . أرى أن تعبير متفائل يحيل موضوع Fondamental إلى موضوع Dérivée ، لا يتعلّق بمسألة الرأسمالية ، بل بمسارها (الذي بدأ قبل ٣ قرون) . كيف غاب عن ماركس « صلب » النظام الرأسمالي . فهذا النظام منذ نشأته ، هو نافٍ للخارج . هرب لينين من المسألة . وتبناها سمير أمين . كوارث الرأسمالية ليست نتاج مرحلة لاحقة إنما هي تمت في فترة سابقة . المسألة تتجاوز الحدود المعرفية إلى مسألة الانتماء . فالماركسية (التطورية) تعتبر الرأسمالية وريثة ما قبلها ، لذلك تتصالح معها وتدخل في نقاش معها على قاعدة هذا التصالح .

هناك نقاط أخرى :

ـ اجتهادات سمير أمين أطاحت بالجزء الأعظم من الأسس النظرية للماركسية ، وأخاف أن تتحوّل الماركسية إلى مسألة عقائدية (بتحويل موقف سمير أمين النقدي إلى اتجاه عقائدي ، خاصة أن وجهة نظر أمين كانت وجهة نظر مغلوبة من قبل اليسار الرسمي) .

ـ ملاحظات حول دور الانتلليجنسيا : من نكبات العالم العربي إن الانتلليجنسيا أخذت دور « التغيير » (!) .

ـ لينين قام بثورة على أرض امبراطورية متصالحة مع الامبريالية . والشعوب الإسلامية لعبت دوراً أساسياً في إسقاط القيصرية تحت شعار « حق الشعوب في تقرير مصيرها » ، لكن دورها صودِرَ لاحقاً .

* د . مصطفى سليمان : نستنتج من قراءة أمين في جانبين نظري وميداني ، أن :

ـ التجربة الثورية والحزبية في بناء الماركسية في الاتحاد السوفياتي والصين لم تكن ماركسية سوى في العنوان . الحزب لم يقرأ دوره . ولم يقم بالقيادة العملية .

ـ تجربة الثورة التي استطاعت الوقوف في وجه الامبريالية لم تكن لتتم لولا أساسها المادي الجغرافي الواسع (الامبراطورية) ، سواء في الاتحاد السوفياتي أو الصين .

كيفية بناء حزب ؟ إذاً أمكن بناء حزب سابق أو لاحق للطبقة العاملة ، فإنه كان حزباً للانتلليجنسيا أو البيروقراطية . وهذا ما يطرح السؤال حول ماهية البناء الحزبي هنا ؟

* د . أحمد بعلبكي : الرأسمالية عالمية الأبعاد ، وهي النظام الأول في كونيته وشموليته . عملية نقد الرأسمالية لا يمكن أن تكون إلّا في حقل يطابق عالميتها . وهذه الشعوب التي تواكبت على بناء الرأسمالية ، كانت تدخل في زمن عالمي الأبعاد ، سواء في مركزتها أو في تطريفها ، لذلك لا يمكن نقد الرأسمالية إلّا في حقل عالمي . والمشكلة ليست في جواهر تتصالح ، بل في ما عطّلَ نقد الرأسمالية . نحن عانينا تبعية للمركز الاشتراكي في بيروقراطيته ، مع استثناء فترة القلق اللينيني . ووقعنا في عملية تطريف للمركز الرأسمالي وللمركز الاشتراكي أيضاً . والجهاد الأكبر هو الخروج من التطريف ، هو التمييز ، والتواصل مع تاريخنا وروح العصر ، وليس الوصول إلى جواهر متعارضة تؤدي إلى التقاتل .

* علي ضاهر : كيف لنا كشعوب « عالم ثالث » في بنية كولونيالية تابعة أن نزيل المجتمع الطبقي ؟ ضرورة دراسة البنية الاجتماعية العربية ـ دور مهدي عامل .

* د . نبيل سليمان :

ـ هل يمكن للوطن العربي المؤلّف من قبائل وبدو أن يطرح على نفسه إنشاء مجتمع لاطبقي ؟

ـ بعد الذي حدث في الدول الاشتراكية . هل المشكلة في التنظيم أم في الفكر . وهي مشكلة تراود مفكرين غير اقتصاديين . الفكر الكلاسيكي يرى أن سمات الماركسي هي نقد الرأسمالية . لكن يبدو أن أزمة النظم الاشتراكية تكمن في أن الرأسمالية الحالية ليست الرأسمالية التي تصدى لها الفكر الماركسي الاشتراكي حتى أواخر الثلاثينات . فالامبريالية ليست مجرّد مرحلة من الرأسمالية ، ليست أعلى مراحل الرأسمالية ، بل هي شيء نوعي مغاير .

* د . كميل داغر : كان بودنا لو نستمع للدكتور أمين كمدافع صريح وحاسم عن قضية الاشتراكية وعن دور الماركسية في إنضاج ومجيء العالم الاشتراكي فالشيوعي . وشعرنا بوجود أشياء أخرى لم تُقَل . . إذ أنه تُطرَح أسئلة من الناس المحيطين حول تجربة أسمت نفسها « اشتراكية » لكنها في الواقع كانت أبعد عن تمثيل تجربة اشتراكية حقيقية .

الحزب الشيوعي : هل هو حزب الطبقة العاملة أم حزب الانتلليجنسيا فقط ؟

تجاوزت المحاضرة أن الحزب فقد جزءاً أساسياً من قوامه في الحرب الوطنية ، ثم جرت تصفية الحزب على يد ستالين والبيروقراطية في مدة ١٠ ـ ١٥ سنة . المحاضرة لم تركّز على حقيقة البيروقراطية التي نشأت في الاتحاد السوفياتي والدول التي سميت تجاوزاً « اشتراكية » . فالأزمة هي أزمة النظم المنحطة بيروقراطياً وليست أزمة الماركسية .

ما هي احتمالات الانفجار ـ الانهيار ؟ يُطْرَحُ عند البعض احتمال واحد : العودة إلى الرأسمالية . إنما هناك احتمالات أخرى ، في البلدان « الاشتراكية » ، وخاصة في الاتحاد السوفياتي . فالبيروقراطية اضطرت للسماح بالحريات وهذا سيؤدي إلى حركة وعي في الطبقة العاملة السوفياتية . الحريات المنتزعة تطرح احتمالات عدة ، منها احتمال ما أسماه تروتسكي ثورة سياسية (ثورة جديدة للطبقة العاملة) .

* د . حسان حمدان : لسنا في نمط إنتاج رأسمالي ، ونرفض النمط الرأسمالي التابع . فهل تنتمي الإجابة على سؤال المحاضِر الأخير إلى الفكر المادي الجدلي أم لا ؟

* د . نظير جاهل : لم تتم الإجابة ، أو تمت بشكل سريع حول : لما تُمدّ الماركسية كنظرية وكواقع في أزمة حادة ؟ تُرِك السؤال ، وانطلق المحاضِر من المنهج ، نفسه (الماركسي) . انطلقَ من أصل الماركسية كأصل ثابت وصحيح وبنى عليه تحليل معين ، وصاغ من خلاله التاريخ الماركسي . لكن التحليل الماركسي يحيل التاريخ إلى نوع من الأيديولوجيا ويطرد الزمن ، رغم أنه يتحدّث عن الزمن .

ـ أزمة الماركسية انعكست في النظرية (نظرية المحاضر) .
ـ لا يمكن تفسير الأزمة من ناحية القيادة (العجيب أن جميع القيادات هي في أزمة) .

□ ردود د . سمير أمين :

(أنا أحترم الزملاء كمناضلين وملتزمين مهما كانت آراؤهم . هل ننظر إلى أزمة الماركسية من خلال المنهج الماركسي أو من خارجه ؟ حاولت أن أنظر إليها من نفس الزاوية . إنما الماركسية ليست كالدين (المتدينون يمتدحون الدين ، ويقولون إن تطبيقه خاطىء) . جرى تطبيق الماركسية في اتجاه معين . توجد أسباب موضوعية يجب رؤيتها . مثلاً : هل أن الثورات (في الغرب . ألمانيا) لم تحدث لأسباب موضوعية ، أم لأسباب ذاتية (أخطاء ثانوية ـ قيادات) ، أرى أنها لأسباب موضوعية .

نجد نوع من الإجماع بين الطبقات في البلدان المتقدمة ، مما يدفع البعض للاستنتاج بأن التاريخ ليس صراع الطبقات في البلدان المتقدمة ، مما يدفع البعض للاستنتاج بأن التاريخ ليس صراع الطبقات ، بل صراع الأمم والقوميات . لكن هل أن هذه الصراعات هي خارج الإطار الطبقي ؟ الحروب بين الأمم والشعوب حلّت محلاً لا يقل أهمية عن المعارك الدموية وغير الدموية

بين الطبقات . كيف نفسِّر صراعات الأمم ؟ هل هي من طبيعة البشر ؟ أم أنه توجد « مصالح موضوعية » ؟

تتفوّق الماركسية على النظريات الأخرى بأنها تتجاوز الظاهر . الصعوبة في العلم هي تجاوز الظاهر أو البديهي . والعلم هو تجاوز البديهيات . فالبديهيات ليست علم . ينبغي رؤية المحرِّك الموضوعي .

ما هو المضمون الحقيقي لأزمة الاشتراكية ؟ ليس صحيحاً أنني أحاول الهروب من المشكلة ، إنما أحاول أن أرى الطابع الحقيقي لهذه المجتمعات ، وما هي حقيقة أزمتها ، ليس من الزاوية الايديولوجية بالمعنى السيء (كالقول إن الماركسية جيدة ، لكن التطبيق سيء) ، لكن برؤية العلاقة بين الواقع والمشاكل الحقيقية .

هذه المجتمعات لم تتصدَّ لمشكلة التناقض الرأسمالي (التناقض الرئيسي بين العمل ورأس المال) ، إنما تصدَّت لظاهرة ناتجة عن توسّع رأس المال على الصعيد العالمي (التوسّع اللامتكافيء) . هذا ليس تهرب من المشكلة ، فالتهرب هو السير نحو التجريد (مثلاً كالحديث عن التناقض بين العمل ورأس المال ، وهو تناقض مستمر طويلاً) .

لينين لم يهرب من المشكلة . أنا أحترم لينين وكل الناس الذين عملوا أشياء عظيمة في التاريخ . لينين كان يحترم السابقين . احتراماً لماركس ، قال توجد « حلقة ضعيفة » ، وقال إن إسقاط هذه الحلقة سيؤدي بسرعة إلى سلسلة تغييرات . هذا لم يحدث . هل هذا ناجم عن أخطاء معينة ؟ لا أعتقد .

من حقنا أن نقول : إن ذلك لم يكن ممكناً ، رغم أن لينين قال العكس ، فلينين « أخطأ » (إنما بحدوده التاريخية) .

/ هل يستخدم الماركسيون أقوال الكلاسيكيين في تفسير العالم ؟ هل يؤدي تفسير العالم إلى ميتافيزيقيا ؟ / من الابتذال القول إن العلم لوحده ينقذ البشرية ويؤمن احتياجاتها / .

ماركس كان متفائلاً في القرن XIX ، رأى أن النظام الرأسمالي بكل عيوبه سيؤدي إلى عالم متجانس ، وبالتالي إلى أن يحتل التناقض الحقيقي الأساسي مكان الصدارة ، مما يفتح المجال أمام حل المشاكل ولأسباب معقدة (تاريخية ـ ثقافية . . .) لم يستطع رؤية تطوّر الأمور .

لينين حاول الاصلاح في حدود ضيقة . بكل احترام « للأب » (ماركس) ، تحدَّث عن « اللاتكافؤ » كظاهرة جديدة / أنا أقول إن اللاتكافؤ ظاهرة قديمة قدم الرأسمالية / كلام لينين ساعد ، بخطوات قليلة جديدة ، في كشف حقيقة الرأسمالية .

(أنا كتبت في الرسالة الآسيوية الأفريقية للماركسية) / المسيحيون : شكل العائلة المقدسة

عند الأوروبيين يأخذ ملامح أوروبية ، رغم أنها بملامحنا نحن / .

الماركسية نشأت أوروبياً . قد أقول ، لأنني « قصير النظر » ، إن الماركسية لن تنتهي حتى تُحَلّ المشاكل . لا بدّ للماركسية أن تتخذ شكل عالمي الصعيد . لا بدّ أن تجيب على مشاكل أفريقيا وآسيا ، وذلك متوقّف علينا . (دوركم كشباب ودور الأجيال القادمة) .

ما هي الشروط لكي تكون الإجابات القديمة متمشية مع المشاكل الجديدة ؟

القيم هي هي ، قيم المساواة والعدالة بين الشعوب . وهي قديمة ، قبل ماركس ولينين وماو . . هناك سؤال غريب يتهمني « بمصرنة » التراث ، أو تلوينه بالمصرية . . ربما المصريون اكتشفوا بعض القيم قبل **الأديان** . ولكن الإنسان هو الإنسان (أهمية التفاعل بين التجارب الإنسانية) .

التجربة الاشتراكية ، بشكلها الأساسي ، إيجابية . لن نساعد إخواننا في المجتمعات « الاشتراكية » إلاّ بالقول إنها خطوة أولى ، لكن بعد هذه الخطوة ، نحن نحاول نقل الخطوة الأولى إلى خطوات أخرى .

لا أرى ما رآه د . بعلبكي إننا نواجه تطريفين (غربي رأسمالي وتطريف للمركز الآخر فليس من مركز آخر) . المركز الآخر أن نكون كعرب في مركزنا . الناس الذين نشتمهم الآن (لأنهم « خانوا » الماركسية حققوا الخطوة الأولى . لنشاركهم في الخطوات الأخرى . ولنرَ بعد ذلك إن كانت الماركسية توفيت أم لا .

* * *

نشاطات أكاديمية وثقافية في
« منتدى العلوم الاجتماعية »

إذا كانت الجامعة اللبنانية هي السياج الثقافي للوطن ، فإن ما يترجم تلك الدلالة ما يرتسم من أعمال تجسد ثم تؤكد هذه الأطروحة هذا ما تداعى إليه القيمون على إدارة معهد العلوم الاجتماعية ـ الفرع الأول في الجامعة اللبنانية ، بمبادرة إنشاء « منتدى العلوم الاجتماعية » . الذي كان له جملة نشاطات علمية ثقافية أهمها :

١ ـ في إطار افتتاح المنتدى المذكور **أقيمت ندوة اقتصادية للعميد الدكتور هاشم حيدر في** ٨ نيسان ١٩٩٠ تحت عنوان حرب الدولار وأزمة سعر صرف الليرة اللبنانية . حيث تناول المحاضر البنية الاقتصادية قبل وبعد الحرب اللبنانية بشكل عام ، وقدم العوامل والمتغيرات التي ساهمت في تدني سعر صرف الليرة اللبنانية حتى تاريخ المحاضرة . إلى جانب طرحه لبعض الحلول التي تساهم إلى حدٍ كبير في إيقاف التدهور الملحوظ لسعر الليرة اللبنانية .

لقاء حوار مفتوح بتاريخ ٨ أيار ١٩٩٠ مع الدكتور سمير أمين ، حول الاشتراكية العالمية . أدار هذا اللقاء مدير المعهد الدكتور محمد شيّا . بحضور حشد كبير من الأدباء والمفكرين . قدَّم د . محمد شيا لمحة تاريخية موجزة عن مشاكل دول العالم الثالث السياسية . ثم تناول المحاضر الدكتور سمير أمين هذا الموضوع بإسهاب وطرح بشكل مفصلي ومركز مسألة الاشتراكية تاريخياً وما آلت إليه هذه الأخيرة بعد التراجع السوفياتي الحاصل على المستوى العالمي . وأغنى هذا اللقاء مداخلات وأسئلة لمجموعة من الأساتذة المشاركين . (في هذا العدد تسجيل كامل لوقائع الندوة وغيرها) .

٣ ـ ندوة عامة تحت عنوان المؤتمر الثاني للكتّاب اللبنانيين إسهامه في تعزيز الثقافة والإبداع ٥ ـ ١٩٩٠/١١/٢٣ .

شارك فيها : د . وضاح شرارة ، د . انطون سيف ، الأستاذ محمد علي شمس الدين .

أدار الندوة : مدير المعهد الدكتور محمد شيا .

تناول المشاركون في هذه الندوة مسألة المؤتمر الثاني للكتّاب اللبنانيين ونتائجه الإيجابية في تعزيز المعرفة والثقافة في لبنان وآثارها على مستوى الجامعة بالذات .

٤ ـ ندوة حول الجامعة اللبنانية : واقعها وآفاق تطويرها ـ بتاريخ ١٣ آذار ١٩٩١ .

شارك فيها : د . صادر يونس (عضو رابطة الأساتذة المتفرغين في الجامعة اللبنانية) ، د . محمد شيا مدير معهد العلوم الاجتماعية ـ الفرع الأول ، أستاذ : محمد بلوط رئيس مجلس فرع طلاب المعهد .

تمحورت هذه الندوة حول وضع الجامعة اللبنانية تاريخياً والمعاناة المزمنة لأساتذتها وموظفيها وطلابها . والتحركات القائمة من قبل الأساتذة الهادفة لإعادة الحياة الديمقراطية لهذه الجامعة عن طريق إحياء المجالس التمثيلية فيها ، وتحسين الأوضاع الحياتية للأساتذة .

٥ ـ ناقشت السيدة هدى رزق القش أطروحة الدكتوراه اللبنانية في معهد العلوم الاجتماعية ـ الفرع الأول بتاريخ ١٩٩١/٢/٢٣ وبموضوع :

La défaite de l'insurrection Syrienne 1925-1927 et l'affermissement de l'Etat Libanais.

وتألفت لجنة المناقشة من الأساتذة السادة :

ـ الدكتور منير إسماعيل : الأستاذ المشرف .
ـ الدكتور إبراهيم قبيسي : عضو .
ـ الدكتور إبراهيم مارون : عضو .
ـ الدكتور شوقي الدويهي : عضو .
ـ الدكتور غسان بدر الدين : عضو .

وقد منحت لجنة المناقشة السيدة هدى رزق القش شهادة الدكتوراه اللبنانية في العلوم الاجتماعية بتقدير جيد جداً .

يذكر أن هذه هي أطروحة الدكتوراه الأولى التي يمنحها المعهد (الفرع الأول) .

الهوية النسائية الجديدة
دراسة ميدانية في تجاوز التنميط الجنسي لدى فئة من الشابات اللبنانيات

عزة شرارة بيضون

توطئة :

تستجيب الدراسات حول المرأة في بلادنا ، كما في البلدان النامية ، لحاجات التنمية ، فتنضوي تحت لواء أهدافها الرئيسية . ويبدو الاهتمام بالموضوعات النفسانية النسائية ترفاً يستطيع الانتظار . لذلك ، فإن الدراسات النفسانية النسائية ، الميدانية منها خاصة ، مبعثرة وقليلة ، ولا تشكّل ، تالياً ، متناً يصلح قاعدة لوصف الشخصية النسائية في جانبها السيكولوجي ، مما يجعل هذا الجانب ، عند النظر في المسألة النسائية ، إما مهملاً أو خاضعاً للبداهة والموروث . وهو أمر يُفقد البحث في مجمل القضية النسائية معطى أساسياً لا بدّ وأن تنعكس آثار غيابه على رجاحة الاستنتاجات النظرية والمترتبات العملية لذلك البحث .

تطمح هذه الدراسة الميدانية في الهوية النسائية لأن تنضم إلى مثيلاتها ، الدراسات النسائية السيكولوجية في بلادنا ، لتساهم معها في إرساء خلفية ـ وإن متنافرة في الشكل والمضمون ـ تصلح منطلقاً لدراسات أوسع ، وتكوّن في مجموعها مركزاً مرجعياً تجري مكاملته (أو دحضه ، لا فرق) في الأبحاث المماثلة اللاحقة في المسألة النسائية .

والسؤال المركزي الذي شغل هذه الدراسة هو التالي : ما مدى انتشار ظاهرة خرق التنميط الجنسي التقليدي عند مجموع شاباتنا وما هي أشكاله ؟ بماذا تتصف الفئات التي تتركز فيها ظاهرة الخرق هذه ؟

والأسئلة الفرعية هي : بماذا تتصف المرأة اللبنانية التي تتجاوز في تصورها لذاتها الأنموذج الأنثوي التقليدي ؟ هل يترافق هذا التجاوز مع قلق وتأزم ؟ أم أنه على العكس من ذلك هو مصدر توافق نفساني ؟

هل ينعكس هذا التجاوز للأنموذج النسائي وعياً نسوياً ؟ أي ، هل أن المرأة التي لا تتماهى بالأنثى التقليدية هي بالضرورة ذات مواقف داعمة لقضايا المرأة ؟

لا يخفى أن هذه الأسئلة هي في صلب الاهتمامات النسوية ، وهي قد عولجت ، في هذه الدراسة ، بمقاربة نسوية ، وبتأثير مباشر بنظرية التيار السيكولوجي النسوي ، الأميركي خاصة ، في الهوية ـ النوع (Gender Identity) وبالاستعانة بوسائل بحثه . وهذه نظرية تنطلق من بديهيات معدودة تخالف فيها النظريات السائدة في علم النفس التي تعتمد الاعتقاد الشائع في أن الذكورة تتناقض مع الأنوثة ، وأن الأنوثة هي الأخرى متناقضة مع الذكورة ، أو أن الاثنين يؤلفان قطبين متضادين على بعد واحد ، وأن السلوك والأدوار المحددة والمرغوبة اجتماعياً للرجل تتلازم سلباً مع أمثالها للمرأة . **فالمرتكز** الرئيسي للنظرية الجديدة (Bem, 1974) هي ثنائية العامل الجنسي أو النوعي في الشخصية حيث يفترض أن الأنوثة والذكورة هما بعدان متعامدان في الشخصية الواحدة. أما **المسألة الرئيسية** التي تمحورت حولها الدراسات الميدانية عند الباحثين المتأثرين بهذا التيار فكانت إعادة البحث في نظرية التماثل في الصحة النفسية التي تدّعي أن التماثل بين الجنس البيولوجي والهوية الجنسية ، أي التنميط الجنسي ، هو شرط بديهي الارتباط بمؤشرات نفسانية إيجابية لجهة توافق الفرد وسوائه النفسيين . أي ، أن المرأة « الأنثوية » ـ تلك التي تتماهى بالطيف الأنثوي المرغوب اجتماعياً ـ هي أكثر سواء في ميزان الصحة النفسية من الفئات النسائية الأخرى (الحال الشبيه ينطبق على الرجل « الذكري ») . وبدا أن المعطيات التجريبية التي نتجت عنها الدراسات الميدانية الكثيرة والتي نفذت في إطار النظرية الجديدة تتجمع لتدعم فرضية في الصحة النفسية قوامها أن بعض أشكال خرق التنميط الجنسي عند النساء ، خاصة ، هو شرط متلازم مع الصحة والتوافق النفسيين .

أولاً ـ التقديم النظري

واجه دعاة حركة تحرر المرأة والباحثون المتأثرون بها نظرية التحليل النفسي في الأنوثة . فالتحليل ما فتىء يؤكد ، في مختلف مدارسه ، فكرة متشائمة مفادها أن الأنثى السوية ظاهرة نادرة (Safouan, 1982) وأن ما يجعل الأمر كذلك « ذكورة » كامنة فيها مصدرها تشريح مزدوج الجنسية . وإن هذه الذكورة تجد تعبيراتها في مظاهر « حسد القضيب » الذائع الصيت . وهي ، أي ذكورة المرأة ، تعمل بنظر التحليل النفسي ، عكس أنوثتها لأنها تقف عائقاً في استكمال تشكل هويتها النسائية (Frend, 1925) .

(Scherfy, 66, Galen, 79, Needles, 82, Goldstein 84)

إلاَّ أن باحثي التحليل النفسي الجدد لم يخف عليهم أن قصور المرأة في بلوغ المثال المرتجى لهويتها لا يكمن في ذكورة المرأة فقط ، بل في المثال نفسه . فهو ، أي المثال ، ذكري المرجع : ويستمد إطلاقية مرجعيته من سيطرة الرجل في ميزان العلاقة بين الجنسين . ويكرّس

المثال الأنثوي الذكري المرجع هـذا التغريب في « الأنـا الأعلى » النسائي ، مهـد اجتياف قـواعد الرجل وقوانينه ، حيث يرسخ تصور للمرأة لذاتها هـو على قياس رغبـة الرجـل بالـدرجة الأولى . والتحليل النفسي يسجل في الحالات العيادية النسائية مُعاش المرأة المأزمي في إخفاقها للتوصل إلى تحقيق هوية نسائية ، ذكرية المـرجع . وهـو ـ أي التحليل النفسي ـ الـذي استمع (إلى النسـاء) وأوّل ، كان يسجّل هذا المُعاش ويحكم على مظاهره مرضاً أو انحرافاً قياسـاً على مثال أنثوي **صاف لا يعكر صفاء أنوثته ذكورة** تذكر . ولا يقتصر نعت الـذكورة على السلوك الجنسي بـل يتعداه إلى تعبيراتها المتسامية والتعويضية . ولا يسلم من هذه الأخيرة سوى الرغبة بالطفل (تعويضاً على الرغبة بالقضيب) .

هذا ، وبينما يقوم باحثو التحليل النفسي بإبراز **سطوة اللاوعي** في تحديد مسار تشكل الهوية النسائية صوب المثال المرتجى ، يقوم الباحثون (Friedan 63) المتأثرون بحركة تحرر المرأة بإبراز **سلطة الرجل** المباشرة والشاملة على هذا المسار ، وبتفسير المظاهر المرافقة لهذا المسار ونتاجاته الجانبية انطلاقاً من هذه السيطرة . وقد أبرز هؤلاء لقاء تلك السطوة وهذه السيطرة في الغبن اللاحق بالمرأة في صميم مُعاشها الوجودي وعلى كـافة الأصعـدة : إذ يتم تقييـم سلوكها بمعـايـير ذكـرية المرجع بعد أن تُسجن في مكانات تكبح تعبيـراتها الـراشدة وتختـزل مُعاشهـا إلى مستوى طفـولي (يسمى أنثوياً) . وتعبر المرأة عن رفضها لسجنها هذا بأشكال من التمرد الخفي أو الظاهر يوازي المرض أو الانحراف وتخضع بنتيجتها للعلاج النفسي أو النبذ على أشكاله .

وتدعو حركة تحرر المرأة من موقعها السياسي (Friedan, 1963, Koedt, 1971) لرفض المثال الأنثوي التقليدي لأنه أخفق في تبرير وجوده . ويقدم هؤلاء أنموذجاً نسائياً مغايراً للنماذج النسـائية التقليدية ، نقصد الممتثلة أو المتمردة أو العصـابية . وهـو مثال هجين ، يتجـاوز التنميط الجنسي البدائي ما تزال ملامحه غير نهائية ولكنها تتبلور مع التطور الحضاري الذي يشهده عالمنا المعاصر .

وفي ميـدان علم نفس النوع ، الـذي يجعل من الـذكورة والأنـوثـة ومن عـلاقتيهمـا ببعض وبارتباطهما بالمتغيرات النفسانية المختلفة موضوعاً له ، بدا أن مفهومي الذكورة والأنوثة الحدسيين بحـاجة إلى إعـادة نظر (Constantinople, 1974) في ضـوء تضارب نتـائج الأبحـاث الميدانيـة مع حيثياتها النظرية والمنطقية بالنسبة للنساء خاصة . وتبين أن مفهوم ذكورة ـ أنوثـة (M-F) يُخفق في استيعاب مظاهر سلوكية ونفسانية عند النساء ، الأمر الذي يجعل القياسات النفسانية التي تعتمد هذا المفهوم أساساً في إنشائها ، تعجز عن استيعاب أنماط جنسية أو نوعيـة هجينة . والهـوية النسـائية الجديدة هي واحدة من هذه الأنماط التي أخفقت الدراسات الميدانيـة في علم النفس ـ النوع في وصفها وفي إعطاء حكم نفساني عليها .

انطلاقاً من هنا ، وبتأثير مباشر بحركة تحرر المرأة أنشأت ساندرا بيم (Bem, 1974) البـاحثة السيكولوجية استبانة الأدوار الجنسية (Bem Sex Role Inventory) الذي يناقض مفهوم ذكورة ـ أنوثة (M-F) السالف الذكر ، ويعتمد آخر بديلاً للذكورة والأنوثة يفترض فيه أن مؤشراتهما تتجمعان على

بعدين متعامدين : أي أن ذكورة الفرد مستقلة عن أنوثته ويمكن لمؤشرات الواحد منهما أن تتواجد جنباً إلى جنب مع مؤشرات الآخر وبالشدة ذاتها . وأنشيء في وقت موازٍ رائز شبيه (Spenceetal, 1975) هو « استمارة السمات الشخصية » (Personal Attribute Questionnaire) وعلى أسس شبيهة . ويستتبع المفهوم الجديد في الذكورة والأنوثة إحصاء أربعة أنماط نوعية (أو جنسية) هي :

أولاً : الأفراد المنمّطون وهم الرجال الذكريون والنساء الأنثويات ،
ثانياً : الأفراد العبرجنسيين (Cross-Sexed) وهم الرجال الأنثويون والنساء الذكريات .

(وهذان نمطان تتشارك الاستبانات التقليدية في فرزهما مع الاستبانتين اللذين ذكرناهما) .

ثالثاً : الأفراد الأندروجينيون (Androgynous) وهم الأفراد من الجنسين الذين يتمتعون بذكورة عالية وأنوثة عالية في الوقت نفسه .

رابعاً : الأفراد اللامتمايزون (Undifferentialed) .

وهم الأفراد من الجنسين ذوي أنوثة وذكورة منخفضتين في الوقت نفسه .

وتبين الأبحاث (Bem, 1974-1978, Spencectal 1979, Hoffmannetal, 1979) التي درست المتغيرات السيكولوجية المختلفة بعلاقتها بهذه الأنماط نتيجة شبه ثابتة : إن النساء الأندروجينيات هنّ الفئة الأكثر سواء وتوافقاً على الصعيد النفسي . أي أن الفئة النسائية التي تعدّت في تصورها لذاتها النموذج النسائي التقليدي المتماثل مع مفهوم الأنوثة السائد ، تتمتع ، وبعكس الاعتقاد البديهي ، بصحة وتوافق نفسيين ، أكثر من المرأة التي تتماهى مع الأنموذج النسائي المرغوب اجتماعياً . إضافة إلى ذلك ، فإن هذه الفئة ليست هامشة في المجموع النسائي ، بل إن نسبتها ، توازي في العينات المدروسة ، نسبة الفئة الأنثوية من النساء . وهي تنتمي ، بناء على معايير مختارة إلى فئة اجتماعية وثقافية « مستقبلية » مما يسمح بنعتها **بالهوية النسائية الجديدة** .

وينعكس المنحى العام لهموم الطليعة النسائية العربية (واللبنانية تخصيصاً) على موضوع الدراسات النسائية . فهذه لم تتلوّن ، كما في الغرب ، بالثورة الجنسية بسبب التحريمات الصارمة التي تلف التعبير عن هذا الموضوع ، بل هي تناولت الموضوع النسائي من وجهة نظر سياسية واجتماعية وأحياناً قليلة نفس ـ اجتماعية أو نفسانية . فجاء التركيز على دراسة وضع المرأة وإظهار المعوقات الخارجية والنفسية في وجه تحقيق الهوية النسائية الجديدة التي تستطيع أن تحمل عبء النهوض بالمجتمع مع الرجل . وندرت الدراسات النفسانية النسائية : وكأن هذه الناحية من المعالجة للفرد العربي وللمرأة العربية تخصيصاً هو ترف قياساً على هواجس الباحثين الحالية . يسري ذلك على دراسة مسار تشكل الهوية النسائية (والرجالية كذلك) « فالسياق العملي الذي يكسب الأفراد هويتهم الجنسية هو مجال مهمل دراسياً في المنطقة العربية » (رسّام ، ١٩٨٤ صفحة ٢٣٥) والأبحاث العربية لم تحاول أن تجيب بعد على السؤال : كيف يصبح الفرد أنثى أو ذكر .

هذا لا ينفي ، بالطبع ، إن بعض الدراسات المتفرقة تناولت وصف وتحليل بعض وجوه تشكل الهوية النسائية ، وخاصة ، فيما يتصل بمكانتها الاجتماعية وأدوارها المترتبة عن هذه المكانة ، وبحثت أيضاً ، في الأيديولوجيات ، الدينية خاصة ، المنسوجة حول هذه المكانة ، والمساندة لها ، وفي تأثير كل ذلك على البنية النفسية النسائية من حيث أساليب توافقها مع مكانتها وأدوارها ومن حيث خصائص مواجهتها الدفاعية لها .

تسجل الأدبيات النسوية العربية انكفاء المرأة ـ الفرد لصالح المرأة ـ الدور ومغالبة المرأة لذلك بالأساليب المختلفة . فهي إضافة إلى ركائز أدوارها المرسومة من قبل المجتمع : الموضوع الجنسي والأم وربة المنزل « تتمتع » المرأة عندنا بكونها موطن شرف الرجل وتناط مهمة الحفاظ على الشرف هذا بالبنت ، أساساً . وفي بعض البقاع العربية (السودان وصعيد مصر مثلاً) حيث لا تؤتمن فيها البنت على ذلك فتتعرض لعملية ختان متفاوت الدرجات في محاولة لإخماد مناطق اللذة كما هي محدّدة من قبل ممثلي السلطة المعنيين بذلك (السعداوي ، ١٩٧٤ ، صفحة ١٥) ويستعاض عن الختان الفج في البقاع الأخرى (منها لبنان) بضبط أكثر تعقيداً للنوازع الجنسية عند الفتاة . . . (حطب ومكي ، ١٩٨٠) ويصف الباحثون العرب أنماط مداورة لقوانين السلطة الرجالية وتحدّيها يتراوح بين الغش الفاضح (المرنيسي ، ١٩٨٢ صفحة ٦٧) والخداع (شرارة ، ١٩٧٥) ، والرياء والكذب والاحتيال (منس ، ١٩٨١ ص ٦٠) مروراً بالشعوذة والسحر (الخماش ، ٩٨١ صفحة ٢٤) والتنجيم (عبد القادر ، ١٩٨٤) وانتهاء بتحريك الشأن الجنسي بلعبة متجاذبة تضع المرأة بنتيجتها امتحان فحولة الرجل في يدها (منسى ، ١٩٨١ صفحة ٦٠) . . . وتتم مداورة القوانين المانعة أيضاً بالهروب كما يتجلى برغبة غائمة عند شبابنا بالسفر (Melikian, 1964) أو بتعبيرات رمزية انفجارية انحرافية إما بالخفاء أو بالرمز تتمثل بالعصاب وفي حالات قصوى بالذهان (مكي ، ١٩٧٤) . . . ويبقى الدفاع الأعمق في مواجهة سلطة الرجل هو ما يأخذ شكل التماهي بالمعتدي : أي باجتياف القوانين المانعة إياها وتبنيها تبنياً كاملاً (Myhyi, 1959) « فالإناث إجمالاً حولن السلطة الأبوية إلى سلطة ذاتية أكثر من الذكور . . . إنهن ملكيات أكثر من الملك » (حطب ومكي ، ١٩٨٠ صفحة ٢٢٤) .

على صعيد آخر يجد بعض الباحثين نسبة عالية من الطالبات الجامعيات اللبنانيات (قياساً على الطالبات الأميركيات) تفضل الدور الذكري على الدور الأنثوي . وهو تفضيل لا يقتصر على الرغبة الواعية التي أبدتها هذه الفئة من الطالبات في أن يكنّ رجالاً (Tarazi 1972, Muhyi 1959) بل يتعداه إلى رغبات دفينة بالذكورة بضغط من مشاعر « حسد القضيب » : (الزين ، ١٩٧٩) . هذا ويدعو محي (Muhyi, 1959) إلى التروي في اعتبار هذه الرغبات ناجمة ، بالضرورة ، عن اتجاه عُصابي عند الأكثرية من شاباتنا ، وإلى النظر في الواقع الذي تعيش المرأة عندنا والذي يتصف ، أساساً بأنه عالم رجالي . ولأنه كذلك ، فإن المرأة تفترض أن الرجل أكثر توافقاً (وسعادة) مما يجعلها تتمنى أن تكون رجلاً ، وإذن سعيدة .

غير أن هذا الميل العام الذي تُبديه هذه القطاعات النسائية لتفضيل الدور الذكري لا يتم على حساب الدور الأنثوي . فالمرأة اللبنانية غير مستعدة للتخلي عن أدوارها التقليدية (Jubran, 1981, Tarazi, 1972) ولكنها تستبعد اعتبار هذه الأدوار قدراً نهائياً وخياراً وحيداً لها (غريب ، ١٩٨٥) وتتم مكاملة الدورين ، والتناوب بينهما ، في الحالات الفردية ، مصحوبة بمآزم منشأها الحيرة في التعامل معها واستبعاد القطيعة مع الأدوار التقليدية ، حلاً ، لتلك المآزم ، (Merhi, 1982) .

وترتسم ملامح الهوية النسائية الجديدة في الدراسات التي أشرنا إلى بعضها وكأنها خيار **ثالث** ينم عن توافق مع السلطة الذكرية وعن مواجهة لها على نحو جديد . فتبدو هذه الهوية وكأنها تخطت الامتثال الظاهري المقرون بالدفاعات الطفولية (السحر والشعوذة والمرض على درجات حدته ، وهو **الخيار الأول**) والانحراف أو الهروب والتمرد (الغش والاحتيال والرغبة الغائمة في السفر وهو **الخيار الثاني**) وأخذت بدلاً من هذا وذلك وجهة تعبر عن تساميات للرغبات والحاجات الليبيدية بتوظيف طاقاتها في مجالات تتسم بالمرغوبية الاجتماعية ، بدل تلك التبددية والتدميرية للذات والآخرين . ولما كانت أكثر هذه المجالات رجالية (بفعل الاستبداد العتيق للسلطة الذكرية) استدعى ذلك دخول عالم الرجال والانكفاء عن العالم الأنثوي المعزول (الذي غدا ممكناً بفضل تهميش المجتمع الحديث لوظائف المرأة التقليدية واقتطاعه لقسم منها) . لذلك فإن التعبير العملي عن الرغبة الواعية واللاواعية في أن تكون المرأة رجلاً أخذ عند نسائنا شكل تبوأ مكانات والقيام بأدوار تصنف في الايديولوجيا السائدة لثقافتنا الاجتماعية بـ « ذكريه » .

ولا يختلف **واقع** هؤلاء النساء كما ترسمهم الدراسات الميدانية عن **التصور** الذي تحمله ارهاصات حركة تحرر المرأة عندنا للهوية النسائية الجديدة . ففي ثنايا وصف هؤلاء وتحليلهم لوضع المرأة نتلمس طيفاً لهوية مخضرمة نفسياً تحمل سمات تعتبر في ثقافتنا الاجتماعية **أنوثة** صرفة أو **ذكرية** صرفة في الوقت ذاته . وتلتحق بصورة هذه المرأة صفات إيجابية محورها « بلوغ سن الرشد » بعد طفولية واتكالية وسلبية كانت أعمدة شخصيتها حتى وقت قريب .

ويلتقي النموذج الطليعي للهوية النسائية عندنا والمثال الأندروجيني الذي جرى وصفه في الدراسات النفسانية التي أشرنا إليها يطول إلى ناحيتين أساسيتين :

الأولى : إن نسبة مضطردة من النساء ، عندنا ، قد عبرت مجال الأدوار النسائية التقليدية إلى ثانية رجالية على نحو صيغة تسوية ما بين مجموعتي الأدوار ، وهو ، ما يؤثر تأثيراً غير سطحي على هويتها وتالياً ، على تصورها لذاتها .

الثانية : إن تجاوز الدائرة الأنثوية إلى الدائرة الذكرية المثمّنة في ثقافتنا الاجتماعية ينعكس إيجاباً على تقدير هذه المرأة لذاتها وعلى توافقها النفساني .

بناءً عليه حاولنا في هذه الدراسة أن نتحقق من صحة فرضية رئيسة مفادها :

« إن نسبة عالية من النساء تتجه لأن تتجاوز النموذج المرغوب اجتماعياً للمرأة بدل التشبه به .

وإن هذا التجاوز يتم باتجاه تبنّي سمات ذكرية مرغوبة اجتماعياً للرجل ويتركز (أي التجاوز) في الفئات الاجتماعية المتحركة » .

وفرضيتين فرعيتين هما :

الأولى : إن الفئة النسائية التي تتعدى في تصورها لذاتها النموذج الأنثوي هي الأقل قلقاً من الفئات النسائية الأخرى .

الثانية : إن الفئة النسائية التي ترفض دورها الجنسي هي الأكثر تطرفاً في دعمها لقضايا المرأة .

ثانياً ـ الدراسة الميدانية

اعتمدنا في دراستنا هذه المنهج الوصفي الكمي لأنه يتلاءم مع أهداف هذه الدراسة في رصد ظاهرة تجاوز التنميط الجنسي عند شاباتنا ، وفي النظر في تلازم أشكال هذا التجاوز مع التوافق النفساني أو مع المواقف الداعمة لقضايا المرأة . وقد استخدمنا في إطار هذا المنهج وسيلة تستوعب الظاهرة هي « استبانة بيم للأدوار الجنسية » «BSRI» (Bem, 1974) (بعد « لَبْنَنَة » فقراتها في دراسة تمهيدية) ، وتسمح بمقارنة نتائجنا بنتائج العينات الأميركية الشبيهة . واستخدمنا كذلك سلّمين واحداً للقلق وثان للمواقف من النساء بعد ترجمة فقراتهما وتنقيحها بإشراف أساتذة حكّام من قسم علم النفس من كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ـ الفرع الأول .

وشكلت الاستبانة المعدّلة مع السلمين المذكورين أداة البحث للدراسة الأساسية . وسنصف فيما يلي أقسام هذه الأداة الثلاثة :

I ـ وصف أداة البحث :

١ ـ الاستبانة المُلَبْنَنَة للأدوار الجنسية : تتألف هذه الاستبانة من سلالم ثلاثة : واحد للذكورة (M) وثانٍ للأنوثة (F) وثالث حيادي (N) . والسلّم عبارة عن مجموعة من السمات المرغوبة اجتماعياً للرجل ، للمرأة والاثنين معاً على التوالي . واقتضى البحث في هذه السمات كما هي مجتافة في أذهان المجتمع قيد الدراسة ، دراسة ميدانية تمهيدية يتحدد بموجبها طيفين : واحد للذكورة وثانٍ للأنوثة بالطريقة عينها التي تمَّ فيها رسم هذين الطيفين في الاستبانة الأميركية المستعارة .

وتمَّ اختيار المجموعة الأولية من السمات من سلالم الذكورة والأنوثة في الرائزين الأميركيين (Bem, 1974, Spencectal, 1975) وأضيف إلى هذه المجموعة سمات استمزجت من دراستين لبنانيتين عن صورة الجنسين في كتب القراءة اللبنانية وعن صورة المرأة في الصحافة النسائية (شرارة ١٩٧٥ ، كلاب ١٩٨٣) . واختيرت سمات السلالم الثلاثة في الاستبانة المعدّلة بناء على حكم أربع عينات مستقلة :

اثنتان منهما طلاب وطالبات اختارتا السمات المرغوبة اجتماعياً للمرأة ، ومثلهما اختارتا السمات المرغوبة اجتماعياً للرجل .

واعتبرت السمة ذكرية وصنفت في سلم الذكورة (M) إذ ما اعتبرتها العينات الأربع المذكورة مرغوبة للمرأة وللرجل في الوقت نفسه ، ولكنها ، مرغوبة للرجل أكثر مما هي مرغوبة للمرأة ، وذلك ، اعتماداً على محك (t) للمجموعات غير المترابطة . والأمر عينه بالنسبة للسمة الأنثوية .

وتمكنا بنتيجة الدراسة التمهيدية رصد ست عشرة سمة أنثوية (F) وأربع عشرة سمة ذكرية (M) وثماني سمات حيادية (N) استعملت للتعبئة (Filler items) هي التالية :

ـ السمات الذكرية :

شجاعة ، فصاحة ، ميل إلى تحليل الأمور ، طموح ، قوة ، إبداع ، ذكاء ، استعداد للنجدة ، تحدّي المشقات ، إنتاجية ، قدرة على المواجهة ، ثقة بالنفس ، تحمل المسؤولية ، تنظيم في التفكير .

السمات الأنثوية :

هدوء ، تضحية ، تسامح ، أناة ، حنان ، محبة الأطفال ، قناعة ، تفهم ، إخلاص ، عاطفية ، محافظة على التقاليد ، لطف ، ترتيب ، جاذبية ، تهذيب وتواضع .

السمات الحيادية :

اجتماعية ، تحسس لحاجات الآخرين ، استعداد للمساعدة ، واقعية ، كرم ، قدرة على الاحتمال ، دفاع عن المعتقدات ، نشاط .

وشكّلت هذه السمات مجتمعة السلالم الثلاث في الاستبانة المعدّلة ، سلم الذكورة (M) ، الأنوثة (F) والحيادية (N) وقد طلب إلى المستجوب أن يعيّن على كل سمة تتراوح بين واحد وخمسة تعيّن الدرجة التي تقوم كل واحدة من هذه السمات بوصف شخصيته .

٢ ـ سلّم القلق : استخدمنا « سلم ساراسون للقلق العام » (Sarason, 1972) مؤشراً سلبياً للتوافق النفساني . وذلك اعتماداً على تحديد سبيلبرغر (Speilberger, 72) سمة القلق (Anxiety Trait A-trait) . وهي أي سمة القلق ، تصف فروقات فردية في الميل العام إلى إدراك جملة واسعة من الوضعيات المميزة على أنها خطرة ومهددة للذات ، وفي الميل للاستجابة لهذه التهديدات بردود فعل قلقية . فالقلق يفعل بناء على هذا التحديد فعلاً في « الأنا » شبيهاً بالعصاب لأنه يعمل على إضعاف تنظيمه ويؤثر في فعالية تأثيره بالواقع وانفعاله معه وبه . وهو إذن مؤشر سلبي للتوافق والسواء النفسيين .

٣ ـ سلم « المواقف من النساء » :

تشير الدراسات (Oskamp, 1977, p223) في ميدان « الاتجاهات والآراء » في علم النفس الاجتماعي إلى توثق الصلة بين الآراء المعلنة وبين البنية الشخصية للفرد الحامل لهذه الآراء . ووجدت هذه الدراسات أن الشخصية المتصلبة (Rigid) هي أيضاً الشخصية التي تظهر تعصباً وعنصرية تجاه الأقليات الأثنية أو الأجناس المغايرة . وقد أضيف ، بتأثير حركة تحرر المرأة ، مفهوم التعصب الجنسي (Sexism) إلى العنصرية واللاسامية وغيرها من المتغيرات التي جرت دراستها . . . . والليبرالية تجاه المرأة وقضاياها تعكس سلباً التعصب الجنسي . وقد اعتمدنا بيّنة لذلك « سلم الموقف من المرأة الأميركي Attitudes Towards Women Scale » (Spencectal, 1973) و « سلم الموقف من النسوية » المصري (Tarazi, 1972) وقد اخترنا فقرات من الاثنين (بناء على رأي أستاذين حكمين في علم النفس من الجامعة اللبنانية) تتناسب وهجانة ثقافتنا الاجتماعية في لبنان .

ب ـ صدق الاستمارة ـ أداة البحث :

يتطلب تحقيق الصدق لأداة بحث مستعارة من ثقافة اجتماعية ثانية دراسة مستقلة . ونحن اكتفينا في دراستنا هذه بتحقيق « الصدق الثقافي » ، إذا صحّ التعبير . فسعينا للبحث ، في اختبار تمهيدي ، عن مجموعة السمات المرغوبة اجتماعياً للمرأة والأخرى المرغوبة اجتماعياً للرجل لتشكل الأولى سلم الأنوثة (F) والثانية سلم الذكورة (M) . وذلك لأن مقارنة صورة الذات للمستجوبين بنماذج تمّ رسمها في ثقافة اجتماعية أخرى يُجانب الظاهرة التي نبغي رصدها . وهو ما حدث فعلاً في دراستين عبر ـ ثقافتين (Cross cultural) : لبنان (Spencectal, 1975, p 53) وإسرائيل (Tzuriel, 1984) .

وقد تمّ اختيار السمات في المجموع الأولى من سلالم مصنفة سلفياً ذكرية ، أنثوية أو حيادية ، كما ذكرنا ، وتمت ترجمتها وتنقيحها تحت إشراف أستاذين خبيرين من أساتذة علم النفس (الجامعة اللبنانية ، كلية الآداب ، الفرع الأول) على ضوء اختبار أولي خضع له عشرون طالباً وطالبة من فئة العمر المدروسة بهدف تحقيق التماثل بين المعنى المقصود للسمة المستعملة ووقعها في أذن المستجوب (أو المستجوبة) . وقد جاء ذلك أحياناً على حساب الدقة (استبدلت مثلاً ، سمة « منهجية » بـ « تنظيم في التفكير ») والاقتصاد في التعبير (استبدلت مثلاً ، سمة « التكيف » بـ « انسجام مع متطلبات المجتمع » !) . إلخ .

على صعيد آخر ، تعترض حدّة المفهوم المستعمل هنا للذكورة أو الأنوثة تحقيق صدق الاستبانة بالوسائل المعروفة . إن مفهومي الذكورة والأنوثة المتعامدين يختلفان منطقياً وتجريبياً عن مفهوم ذكورة ـ أنوثة (M-F) التقليدي والمعتمد في معظم القياسات المعروفة التي تعني بقياس البعد النوعي (أو الجنسي) من الشخصية . فيتضمن اللجوء إلى أحد هذه القياسات كمحك لصدق الاستبانة المستعملة هنا تناقضاً منطقياً . وينطبق هذا الكلام على اختبار « مينسوتا لتعدد أوجه

الشخصية » (MMPI) ، مثلاً كما ينطبق على « راتز تبصّر المتون » .T.A.T الإسقاطي .

وقد وجدت بيم (Bem, 1974) أن سلالم استبانتها غير متلازمة إطلاقاً مع سلم « ذكورة ـ أنوثة » في رائز « غيلفورد ـ زمرمان » وأن مُعامل الارتباط بين هذه السلالم وسلم ذكورة وأنوثة في « استبانة كاليفورنيا النفسانية » هو ضئيل جداً مما جعلها تستنتج أن ما تقيسه « استبانة بيم للأدوار الجنسية » هو ناحية من الأدوار الجنسية لا يستجيب لها سلما القياسين المذكورين بشكل مباشر .

أما بالنسبة ، لسلمي « القلق » و « الموقف من المرأة » فقد اكتفينا بـ « الصدق الظاهري » ، واعتمدنا لذلك ، الحكم المستقل لأربع أساتذة خبراء في علم النفس (الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب ـ الفرع الأول) الذين أشرفوا (اثنان لكل سلم) على الترجمة والتنقيح استناداً على اختبار أولي أجري على عشرين طالباً وطالبة من فئة العمر المدروسة . ولما كان الهدف من الدراسة مقارنة أداء المجموعات إزاء متغيرتي « القلق » و « الموقف من المرأة » دون الحكم المطلق عليها اعتبرنا أن ذلك يفي بالغرض .

II ـ المجتمع والعينة

اخترنا مجتمع هذه الدراسة طلاب السنة الجامعية الأولى من سن ١٨ إلى ٢١ سنة . وشكلت العينة من ١٧٨ فرداً للدراسة التمهيدية و ٣٢٠ فرداً للدراسة الأساسية من جامعتي بيروت اللبنانية والأميركية مناصفة . والعينة ليست عشوائية ولا تمثل المجتمع من حيث المتغيرات السوسيولوجية في المجتمع اللبناني ، إذ جاءت في معظمها من الطائفتين : السنية والشيعية ومن الفئة الاجتماعية الوسطى ويسكن أفرادها بيروت أو ضاحيتها الجنوبية . وأجريت الدراسة التمهيدية أواسط سنة ١٩٨٤ والدراسة الأساسية أواسط سنة ١٩٨٧ .

وتوزعت العينة في كل واحد من الاختبارين بحسب الجنس هكذا :

١ ـ عينة الاختبار التمهيدي :

نوع الاستمارة / الجنس	سمات الذكورة	سمات الأنوثة
عدد الطلاب	٤٧	٤٤
عدد الطالبات	٤٠	٤٧

٢ ـ عينة الدراسة الرئيسية :

الجنس	العدد
طلاب	١٦٠
طالبات	١٦٠

ثالثاً ـ النتائج ونقاشها

I ـ النتائج الأولى :

يحصل كل مستجوب في العينة على علامات خمس هي التالية :

١ ـ علامة على سلم الذكورة (M) :

هي المجموع البسيط للعلامات التي وضعها المستجوب على مجمل السمات المصنفة « ذكرية » وعلامته تتراوح إذن بين أربع عشرة وسبعين .

٢ ـ علامة على سلم الأنوثة (F) :

هي المجموع الحسابي البسيط للعلامات التي وضعها المستجوب على مجمل السمات المصنفة « أنثوية » . والعلامة في هذا السلم تتراوح بين ست عشرة وثمانين .

٣ ـ علامة على السلم الحيادي (N) :

هي المجموع الحسابي البسيط للعلامات التي وضعها المستجوب على مجمل السمات المصنفة حيادية وتتراوح العلامة على هذا السلم بين ثماني علامات وأربعين . والسلالم الثلاثة المذكورة تؤلف استبانة الأدوار الجنسيّة المعدّل .

٤ ـ علامة على سلّم القلق (ANX) :

وهي المجموع البسيط للعلامات التي وضعها المستجوب على الفقرات التي صيغت على نحو قلقي ، أي كل الفقرات ما عدا الفقرتين ذات الرقمين ٩ (أنا هادىء ولا أثار بسهولة) ، و ١٦ (أركّز بسهولة على الأعمال التي يجب أن أنجزها) . فقد حسبت العلامة في هاتين الفقرتين بشكل عكسي .

٥ ـ علامة على « سلّم الموقف من النساء » (AWS) :

هنا ، أيضاً ، تتألف هذه العلامة من المجموع الحسابي البسيط للعلامات التي وضعها المستجوب على فقرات السلم كلها ما عدا تلك التي صيغت بشكل غير مساواتي ، واستبدلت علامة الفقرة من مجموعة الفقرات المذكورة بعلامة عكسها .

II ـ نتائج استبانة الأدوار الجنسية المعدّلة

جاء حساب الوسيط (Median) لمجموعة علامات سلّم الذكورة في العينة الاجمالية من الذكور والإناث ولسلم الأنوثة هكذا .

السلم	ذكورة (M)	أنوثة (F)
الوسيط	٥٤,٢٩	٦٣,١٣

وصنّف أفراد العينة جميعهم ذكوراً وإناثاً ، استناداً إلى حساب الوسيط ، إلى فئات أربع على الشكل التالي :

١ ـ فئة « الأندروجينيين » (Andro) :

صنف في هذه الفئة كل طالب (أو طالبة) حصل (أو حصلت) على علامة ٥٥ أو أكثر (أي على علامة أعلى من وسيط علامات أفراد العينة على سلّم « الذكورة ») على سلّم « الذكورة » (M) وعلى علامة ٦٤ أو أكثر (أي على علامة أعلى من وسيط علامات العينة على سلم « الأنوثة ») على سلم « الأنوثة » (F) في الوقت ذاته .

٢ ـ فئة « الأنثويين » (Fem) :

صنّف في هذه الفئة كل طالب (أو طالبة) حصل على علامة ٥٤ أو أقل على سلّم « الذكورة » (M) وحصل في الوقت ذاته على علامة ٦٤ أو أكثر على سلّم « الأنوثة » (F) .

٣ ـ فئة « الذكريين » : (Masc) :

صنّف في هذه الفئة كل طالب (أو طالبة) حصل على علامة ٥٥ أو أكثر على سلم « الذكورة » (M) وحصل في الوقت ذاته على علامة ٦٣ أو أقل على سلم « الأنوثة » (F) .

٤ ـ فئة « اللامتمايزين » (Undiff) :

صنّف في هذه الفئة كل طالب (أو طالبة) حصل على علامة ٥٤ أو أقل على سلّم « الذكورة » (M) وحصل في الوقت ذاته على علامة ٦٣ أو أقل على سلم « الأنوثة » (F) .

وتوزعت العينة بأفرادها الـ ٣٢٠ بحسب والجنس ونمط النوع هكذا :

النمط ـ النوع / جنس	Andro		Fem		Masc		Undiff	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
ذكـــور	٤١	٢٥,٦٢	١٥	٩,٣٧	٤١	٢٥,٦٢	٦٣	٣٩,٣٧
إنـــاث	٦٢	٣٨,٦٥	٤٦	٢٨,٧٥	١٩	١١,٨٧	٣٣	٢٠,٦٢
مجمـــوع	١٠٣	٣٢,٢	٦١	١٩,١	٦٠	١٨,٧٥	٩٦	٣٠

جـــدول (١) : تـوزّع النمط ـ النوع بحسب الجنس

III ـ نقاش نتائج الاستبانة المعدلة للأدوار الجنسية

١ ـ بحسب الجنس :

يفيد النظر في الجدول (١) إلى أن الجنسين يتساويان في ظاهـرة تجاوز التنميط الجنسي . فنسبة الأفراد غير المنمطين هي ذاتها في فئتي الطلاب والطالبات كما هو مبين في الجدول التالي :

	العـــدد	النسـبـة
الطلاب (غير الذكريـين)	١١٩	٪٧٤
الطالبات (غير الأنثويـات)	١١٤	٪٧١

هذا وتبقى ظاهرة العبر ـ جنسية هامشية جداً عند الجنسين . (نسبة الطالبات الذكريات هي حوالي ١٢٪ ونسبة الـطلاب الأنثويـين هي حـوالي ١٠٪) . إلاّ أن ما يميـز بين الجنسين في هذا المجال هو وجهة التجاوز : فهي عند الطالبات باتجاه **التعدّي** بينما هي عند الطلاب باتجاه **الرفض** . إذ أن ٣٩٪ من الطالبات يحملن صورة ذات أندروجينيـة ، **فتتعدى** هـذه الفئة في تصـورها لـذاتها الأنموذج الأنثوي إلى الأنموذج الذكري ، مقابل حوالي ٢١٪ من الـطالبات الـلامتمايـزات اللواتي يرفضن في تصورهن لذواتهن التشبه بأي واحد من النموذجين . وتنعكس النسبتان عند الطلاب إذ يرفض حوالي ٤٠٪ من الطلاب النموذجين معاً (اللامتمايزين) بينما يتماهى حوالي ٢٦٪ بالاثنين معاً .

يمكننا أن نستنتج بناء على ما سبق ، أن ظاهرة الأندروجينية هي ظاهرة نسائية ، أكثر مما هي رجالية ، في عينتنا .

وفي نظرة اتقانية للجدول نجد أن نسبة الطالبات « الأندروجينيات » من مجموع طالبات العينة تتعدى بفارق ١٠٪ نسبة الفتيات « الأنثويات » . والترتيب بين هاتين النسبتين هو إما عكسي أو إنهما متساويتان في عينات أميركية مماثلة (طالبات جامعة) .

مثلاً : في عينة من دراسة لـ بيم (Bem, 77) وأخرى لسبينس (Spence, 79) جاءت النتائج هكذا :

Fem	Andro	
٪٣٤	٪٢٩	دراسة بيم
٪٣٢	٪٣٢	دراسة سبنس
٪٢٨,٧٥	٪٣٨,٧٥	الدراسة الحالية

ويمكن تعليل الفرق في النسب بين العينات الأميركية ، وعينة هذه الدراسة بفحص أدق لطبيعة هذه الأخيرة على ضوء متغيّرتي الطائفة والفئة الاجتماعية .

ب ـ بحسب الفئة الاجتماعية :

تشير الدراسات الأميركية التي اهتمت بضبط المتغيرات السوسيولوجية إلى أن تجاوز التنميط الجنسي يترافق مع مظاهر اجتماعية إيجابية . وقد وجدت برادويك (Bradwick, 1972) أن التنميط الجنسي يسير في الطبقة الأميركية الوسطى إلى الاضمحلال ويترافق مع مستوى ثقافي منخفض . كذلك رأى بليك (Pleck, 1975) أن التنميط الجنسي يسود الطبقة الدنيا من المجتمع ولكنه يتلاشى في الطبقة الوسطى فيستنتج أن تجاوز التنميط الجنسي هو ظاهرة مستقبلية . ويجد هوفمان وزملاؤه (Hoffman et al, 1979) أن الأنماط النوعية غير المنمطة تتركز في الطبقة السوسيو ـ اقتصادية العليا والوسطى ويتمتع أفرادها بمستوى تعليمي عال . ووجد تزوريل أخيراً (Tzuriel, 1984) أن الفئات الاثنية المسيطرة ثقافياً هي الأكثر تجاوزاً للأدوار الجنسية المنمطة .

وتندرج نتائج عينة هذه الدراسة في سياق مواز . والنظر إلى جدول (٢) وجدول (٣) .

فئة اجتماعية / ٪	Andro	Fem	Masc	Undiff
عليا	١٩,٤	١٦,٧	٣٣,٣	٣٠,٥
وسطى	٣٦,٨	٢١,٢	١٣,٤	٢٨,٥
دُنيا	٢٩,٨	١٤,٩	٢١,٢	٣٤,٨

جدول (٢) : توزّع النمط ـ النوع بحسب الفئة الاجتماعية للعينة الإجمالية

	فئة اجتماعية / النمط ـ النوع	عليا		وسطى		دنيا		
		عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	غير محدَد(*) (الأب متوفي أو غير واضح)
إناث	Andro	١١	٢٦,٨	٣٧	٣٨,٩	١١	٦١,١	٣
	Fem.	١٠	٢٤,٤	٣١	٣٢,٦	٤	٢٢,٢	١
	Masc.	٩	٢١,٩	٩	٩,٤	١	٥,٦	صفر
	Undiff.	١١	٢٦,٨	١٨	١٨,٩	٢	١١,١	٢
	المجموع	٤١		٩٥		١٨		٦

جدول (٣): وتوزع النمط ـ النوع بحسب الفئة الاجتماعية للنساء

نجد أن النمط الأندروجيني هو النمط السائد في الفئة الاجتماعية الوسطى ، الذكري في الطبقة العليا واللاامتمايز في الطبقة الدنيا . غير أن النمط الأندروجيني من النساء هو النمط السائد في

(*) اعتمدنا في الحكم على انتماء المستجوب للفئة الاجتماعية المحدّدة : عليا ، وسطى أم دنيا مهنة الأب أساساً ومهنة الأم أحياناً .

الفئتين الاجتماعيتين الوسطى والدنيا . والنتائج في الفئة الدنيا غير نهائية لأن العينة من هـذه الفئة ضئيلة العدد (١٨ طالبة) . ولعلّ المستوى التعليمي الذي تتمتع به الـطالبة الجـامعية يجعلهـا غير ممثلة للفئة الاجتماعية الدنيا بحسب المؤشر الذي اعتمدنا . (مهنة الأب أسـاساً والأم أحيـاناً) . خاصة وأن التعلّم كان واحداً من سبـل الارتقاء الاجتمـاعي في مجتمعنا حتى زمن قـريب (عشية التدهور المالي المروّع) لذا فإن متغيـرة المستوى التعليمي للطالبـة قد تكـون طمست إثر متغيـرة المستوى الاجتماعي في مجموعة الطالبات في عينتنا . وهو أمر يجب التأكد من تكرار حـدوثه في عينة أكثر تمثيلاً للفئة الاجتماعية الدنيا .

ج ـ بحسب الطائفة : والنظر في توزع النمط ـ النوع للطالبات على الطوائف في الجدول (٤) :

الطائفة / النمط ـ النوع	المسيحية		الشيعية		السنية		الدرزية		مسلم (غير محدد)	مجموع
	عدد	٪		٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	مجموع
Andro	٦	٣٥,٣	٢٨	٤١,٢	١٦	٣٠,٢	١١	٦٥	١	٦٢
Fem.	٣	١٧,٦	١٥	٢٢,١	٢٣	٤٣,٤	٣	١٧,٦	٢	٤٦
Masc.	صفر	صفر	١٣	١٩,١	٦	١١,٣	صفر	صفر	صفر	١٩
	٨	٤٧	١٢	١٧,٦	٨	١٥,١	٣	١٧,٦	٢	٣٣
المجموع	١٧		٦٨		٥٣		١٧		٥	١٦٠

جدول (٤): توزع النمط ـ النوع للطالبات على الطوائف

نجـد أن نسبة الـطالبة الأنـدروجينية للطالبـة المنمـطة هي (٢٢/٤١) في الـطائفـة الشيعيـة و(٤٣/٣٠) عند الطالبة السنية . وبينما تقترب نتيجة الطالبة السنية من نتائج الطالبة الأميـركية في عينات مماثلة فإن نتيجة الطالبة الشيعية ملفتة في تطرفها .

ويمكن أن تؤول الفروقات في النتائج كما يلي :

إن الطالبة الشيعية المدينية : مادة عينة هذه الدراسة تنتمي إلى تقـاطع هـذه الفئات الثـلاث

وتتسم بصفاتها : فالطائفة الشيعية اللبنانية تعيش منذ فترة حالة تحرك سياسي ـ اجتماعي ـ ديموغرافي ينعكس بالضرورة على الشخصية الشيعية المدينية التي هجرت أصولها الريفية قسراً (الاحتلال الإسرائيلي لقسم من الجنوب والاعتداءات المتكررة على أجزائه الباقية) ، أو طوعاً (بهدف الكسب المعيشي) . فتتميز هذه الفئة بصفات أبرزها بعض التفكك في السلطة العائلية وتراضي الإصرار عن الصفة المطلقة للقيم الموروثة . وهذا يفسح في المجال أمام قيم ومُثُل جديدة ، تمسّ أساساً ، مكانة المرأة وأدوارها . والطالبة الشيعية المدينية هي الأكثر انعتاقاً من الأدوار التقليدية لأنها تحضر ذاتها ، مبدئياً على الأقل ، لمهنة تتعدى المهنة النسائية التقليدية .

ويدعم هذا التأويل النظر في نتائج الطالبات الدرزيات حيث نسبة الفئة الأندروجينية هي ٦٥٪ ومع أن ارتفاع هذه النسبة مؤشر يجب التأكد من حصوله في عينة أكبر (عدد الطالبات الدرزيات هو ١٧ طالبة فقط) إلاَّ أنه ليس بدون دلالة . فالطالبة الدرزية تنتمي هي الأخرى ، لطائفة ذات أصول غير مدينية تعرضت بفعل الحرب الأهلية لتغييرات غير سطحية في موقعها السياسي ضمن التركيبة العامة وهي إذن طائفة كوسموبوليتية متحركة .

بالمقارنة ، تقترب نسبة الأندروجينيات في مجموعة الطالبات السنيات من نسبة النمط ـ النوع ذاته والعينات الأميركية المماثلة . ولكن نسبة الطالبة المنمطة (الأنثوية) في الطائفة السنية هي أكثر بكثير من الطالبة غير المنمطة (Andro + Masc + Undiff) وذلك قياساً على العينات الأميركية وأيضاً على الطالبة الشيعية أو الدرزية عندنا . والنتيجة هذه ، هي في الاتجاه المتوقع : فالطالبة السنية ذات الأصول والسكن المدينيين والتي بقيت حتى وقت قريب على هامش الحرب الأهلية فلم تتعرض ، قياساً لما تعرضت له الطوائف الأخرى ، لخضات سياسية أو تغيرات ديموغرافية لافتة فهي إذن ، أكثر تقليدية لا تملك المكونات ذاتها التي تدفع بالطالبة الشيعية أو الدرزية ، مثيلتها نحو تجاوز التنميط الجنسي السائد بالدرجة ذاتها .

كذلك فإن نتائج الطالبات المسيحيات في العينة ليست نهائية : إذ تعدت نسبة اللامتمايزات بينهن الـ ٤٧٪ وهذه نسبة عالية جداً بالمقارنة مع الفئات الأخرى ، وقياساً على نتائج العينات الأميركية المماثلة . والانتماء إلى الفئة اللامتمايزة (Undiff) يعكس أيضاً سمات اجتماعية سلبية . وهذا ما تؤكد الدراسات الأميركية (Hoffman et al, 1979) المشابهة التي تصنف فئة « اللامتمايزين » في أسفل السلم السوسيو ـ اقتصادي . ولعلّ ارتفاع نسبة المسيحيات اللامتمايزات ناجم عن ظروف سكن هذه الفئة من الطالبات في المنطقة الغربية من بيروت (حيث الأكثرية هي مسلمة) في زمن الحرب الطائفية حيث يغلب الانتماء الطائفي ما عداه من الانتماءات . ويعزز أرجحية هذا الافتراض أن نسبة الطلاب المسيحيين اللامتمايزين في العينة هو ٥٢٪ ! من هنا ، فإن متغيرة الانتماء إلى أقلية طائفية في زمننا هي متغيرة لا يمكن تجاهلها في البحث في ظاهرة تجاوز التنميط الجنسي . ويمكن إضافتها إلى المتغيرات والتي تفعل سلباً في تجاوز التنميط الجنسي .

نستنتج مما سبق أن ظاهرة خرق التنميط الجنسي ليست هامشية بين طالباتنا الشابات بـل ، على العكس من ذلك : فنسبة الطالبات غير المنمطة للطالبة المنمطة هي ٣ : ١ . وتضاهي بذلك النسب في العينات الأميركية المشابهة (Spencectal 1979, Bem, 1977) ويمكن تلمسها عبر الفئات الاجتماعية الثلاث ، وخاصة الوسطى ، ولما كان شيوعهـا طاغيـاً في الطائفتين الشيعيـة والدرزيـة اللتين يمكن وصفهمـا بصفتي الكوسمـوبوليتيـة والمتحركـة ، فـإنـه يمكن نعتهـا (أي الـظاهـرة) بالمستقبلية . أي أنه يمكن الافتراض أن النمط الأندروجيني تحديداً ، سوف يتوسع مستقبلاً على حساب الأنماط النسائية الأخرى . وهو ما يسمح بنعت هوية الطالبة الأندروجينية **بالهويـة النسائيـة الجديدة** .

IV ـ ١ ـ نتائج سلم القلق

نستعرض فيما يلي نتائج « سلم ساراسون للقلق » المعدّل بعلاقتها مع المتغيرات الأخرى :

	القلق / الجنس	$\bar{X}_{Anx}$	σ_{Anx}
ج أميركية	إنـاث	٤٠,٢٩	٨,٥٠
	ذكـور	٤٠,٢٤	١٠,٦٥
ج أميركية	إنـاث	٤٣,١٤	٩,٩٣
	ذكـور	٣٩,٧٤	٨,٠٢

جـدول (٥) : توزع متوسط علامات القلق والانحراف المعياري بحسب الجنس في عينتي الجامعة اللبنانية والجامعة الأميركية .

وبعد ضم العينتين في واحدة :

القلق / الجنس	$\bar{X}_{Anx}$	σ_{Anx}
إنـاث	٤١,٧١	٩,٣٠
ذكـور	٣٩,٩١	٩,٥٠

جدول (٦) : توزع متوسط علامات القلق والانحراف المعياري بحسب الجنس

ويحسب النمط ـ النوع للإنـاث :

	النمط ـ النوع / قلق	x̄ Anx	σ Anx
إناث	Andro	٤٠,٠٨	٩,٦٥
	Fem.	٤٣,٥٦	٧,٠٨
	Masc.	٣٨,٣٢	١٠,١١
	Undiff	٤٤,٠٣	١٠,١٧

جدول (٧) : توزّع متوسط علامـات القلق والانحراف المعيـاري لهذه العـلامات بحسب النمط ـ النوع للإناث .

٢ ـ نقاش نتائج « سلم القلق »

أ ـ بحسب الجنس :

تبيّن الدراسات الميدانية التي تبحث في علاقة القلق بمتغيرات نفسانية أخرى نمطاً شبه ثابت في نتائجها : النساء أكثر قلقاً من الرجال (Biaggio, 1976) . وتذهب الدراسات التي تميـز الأفراد بناء إلى ذكورتهم ، وأنوثتهم النفسانية (وليس البيولوجية فحسب) إلى أبعد من ذلك ، لأنها تبحث في علاقة بعدي الذكورة والأنوثة بالقلق . والنتـائج هنا ليست نهائية ، ولكنها تشيـر إلى أن الأفراد « الأنثويـين » من الجنسين يبدون قلقاً أكثر من « الذكريـين » (Webb, 1963) .

وفي عينة الجامعة اللبنانية جاء متوسط علامات الطالبات أعلى من متوسط علامات الـطلاب على سلم القلق ، والفرق بين المتوسطين دال ($t = 2.36, p < 0.05$) . ولم نحصل على النتيجة ذاتها في عينة الجامعة الأميركية حيث جاء الفرق بين متوسطي عامات القلق للجنسين قريباً من الصفر (جدول ٥) .

وفي العينة الإجمالية جاء الفرق بين متوسط علامات القلق للإناث ومتـوسط علامـات القلق للذكور بدون دلالة إحصائية ($t = 1.71$) . (جدول ٦) .

أخيراً ، جاء الفرق بين متوسط علامات طالبات الجامعة اللبنانية ومتوسط علامـات طالبـات الجامعة الأميركية ذا دلالة إحصائية ($t = 1.96, p < 0.05$) أي أن الفروقات في الجنس الواحد ، (الإناث) قد تكون أكبر من الفروقات عبر ـ الجنسية . (جدول ٥) .

وتشير هذه النتائج مجتمعة إلى أن الجنس ليس بالضرورة عاملاً مميزاً بين المجموعات بالنسبة لمتغيرة القلق .

وفي حساب قيمة F للحكم على واقعة انتماء الأنماط النسائية الأربع إلى مجتمع واحد أم لا .

وجدنا قيمة نسبة F = ٦,٨٨ . وهي أكبر من ٤,٤٩٧ التي تساوي = 0.99 F 3.156 . أي أن (F) هي ذات دلالة إحصائية حتى عتبة ٠,٠١ فما دون .

فنستنتج أن التباين بين الفئات النسائية الأربع (أندروجينية ، ذكرية ، أنثوية ، ولامتمايزة) هو أكبر بفرق دال ، بين التباين داخل أفراد كل مجموعة . أي أن الانماط ـ النوع الأربعة النسائية لا تنتمي لنفس المجموع بالنسبة لمتغيرة القلق مما يسمح باستعمال محك (t) لقياس دلالة الفرق بين متوسطي كل زوج (pair) على حدة من الأنماط الأربعة .

ويبين جدول (٧) أن النمط « الذكري » (Masc) النسائي هو الأقل قلقاً من الأنماط الأخرى . وقد جاء الترتيب في متوسط علامات الطالبات الإناث على « سلّم القلق » هكذا :

فئة النمط ـ النوع « الذكري » : (Masc) نالت متوسط علامات أقل من فئة النمط ـ النوع « الأندروجيني » : (Andro) التي نالت متوسط علامات أقل من فئة النمط ـ النوع « الأنثوي » : (Fem) التي نالت متوسط علامات أقل من فئة النمط ـ النوع « اللامتمايز » : (Undiff) .

ويبين الجدول التالي الفرق بين المتوسطات للفئات النسائية الأربع زوجاً زوجاً :

فرق بين متوسطات القلق / أزواج النمط ـ النوع النسائية	t	النتيجة
Andro - Undiff	٢,٠٧	دال(*)
Andro - Fem	٣,٤٤	دال(*)
Andro - Masc	٠,٦٧	غير دال
Fem - Masc	٢,١٠	دال(*)
Fem - Undiff	٠,١٨	غير دال
Masc - Undiff	٥,٠٣	دال(*)

جدول (٨) : الفرق بين المتوسطات للأزواج الستة .

(*) عتبة الدلالة المعتمدة ٥ ٪ فما دون .

يفيد النظر في جدول (٨) لحساب الفروقات بين متوسط علامات القلق لأنماط ـ النوع الاستنتاج التالي :

إنَّ فئة الطالبات ذات الذكورة العالية ، أي تلك التي تنتمي إلى واحدة من الفئتين : « الذكرية » (Masc) أو « الأندروجينية » (Andro) هي أقل قلقاً من فئة الطالبات ذات الذكورة المنخفضة : أي ، تلك التي تنتمي إلى واحد من الفئتين « الأنثوية » (Fem) أو « اللامتمايزة » (Undiff) .

فالفرق بين متوسطات العلامات على « سلم القلق » الظاهرة في جدول (٨) هو ذو دلالة (حتى عتبة ٥٪ فما دون) في كل حالات الأزواج (Couples) الأربعة :

« أندروجينية » - « أنثوية » .
« أندروجينية » - « اللامتمايزة » .
« ذكرية » - « اللامتمايزة » .
« ذكرية » - « أنثوية » .

أي كل الأزواج التي تشكل الفئة ذات الذكورة العالية أحد قطبيها والفئة ذات الذكورة المنخفضة قطبها الآخر .

ويدعم هذه النتيجة أن التلازم بين الذكورة والقلق الذي قيس بحساب مُعامل الارتباط بين علامات القلق التي نالتها الطالبات في العينة وعلاماتهن على سلم الذكورة (M) كان سلبياً :

$$r_{Anx - M} = -٠,٣١٤$$

وهو ليس قريباً من الصفر (العدد ١٦٠)
أي أنه هو ذو دلالة إحصائية .

من جهة أخرى جاء معامل الارتباط بين علامات الطالبات على سلم الأنوثة (F) وسلم القلق (Anx) قريباً من الصفر :

$$r_{Anx - F} = ٠,١٣$$

أي أنه بدون دلالة إحصائية . (العدد ١٦٠)

فنستنتج أن انخفاض حدة القلق ، بالمعنى المحدد هنا هو في ٩٪ ($r^2Anx - M = 0.09$) من أسبابه تعود إلى الارتفاع النسبي لذكورة هذه الفئة من الطالبات . فتساهم معرفة مدى تشبع صورة الذات النسائية بالذكورة بالحكم على هذه الفئة من النساء إزاء متغبرة القلق بنسبة ٩ ٪ .

وعلى العكس من ذلك فإن ١٪ (r^2Anx – F = 0.01) من أسباب ارتفاع حدة القلق تعود إلى الأنوثة . أي أننا يمكننا أن نتجاهل متغيرة الأنوثة عند البحث في المتغيرات التي تتضافر لتساهم في فهم مسببات القلق عند هذه الفئة من النساء .

تتكامل هذه المعطيات لترسم النتيجة التالية :

إنَّ الطالبات من الفئة « الأنثوية » (Fem) ، أي هؤلاء اللواتي يحملن صورة ذات متشبّعة بالسمات الأنثوية أكثر مما هي متشبعة بالسمات الذكرية ، لمن الفئة الأكثر توافقاً على الصعيد النفسي ، برغم انسجام صورة ذاتها مع النموذج المرغوب اجتماعياً للمرأة .

إلَّا أن ترتيبها ، الذي جاء ثالثاً بين الفئات الأربع ، بالنسبة للقلق ، ليس تابعاً **لأنوثتها العالية** بالمقارنة مع الفئات الأخرى ، (بدليل عدم تلازم القلق والأنوثة) . بل هو تابع **لذكورتها المنخفضة** (بدليل التلازم السلبي الدال بين القلق والذكورة) . وبدليل ، أن فئة « الأندروجينية » (Andro) ذات الأنوثة العالية (إضافة إلى الذكورة العالية) هي أقل قلقاً من الفئة الأنثوية (Fem) بفرق دال .

وجاء ترتيب متوسط العلامات للفئة « الأندروجينية » الثاني (بعد الفئة « الذكرية ») ولكن الفرق بين متوسط علامات القلق بين هاتين الفئتين هو غير دال . مما يجعل قيمة الفرق بينهما ناجماً عن الصدفة وحدها ، ويضع إذن ، فئتي « الأندروجينية » (Andro) و « الذكرية » (Masc) في موقع واحد بالنسبة لمتغيرة القلق بالمقارنة مع فئة « الأنوثة » (Fem) و « اللامتمايزة » (Undiff) .

وعلى نحو مشابه ، فإن الفرق بين متوسطي علامات القلق للفئتين « الأنثوية » (Fem) و « اللامتمايزة » (Undiff) عند النساء هو بدون دلالة إحصائية (t = 0.18) مما يجعل هاتين الفئتين متجانستين تجاه متغيرة القلق . ويمكن بناء على ذلك دمج فئتي « الذكرية » (Masc) و « الأندروجينية » (Andro) في فئة واحدة تجمعهما « الذكورة » العالية ، ودمج كذلك ، فئتي « الأنثوية » (Fem) و « اللامتمايزة » (Undiff) تجمعهما « الذكورة » المنخفضة كما في الجدول التالي :

	$\bar{X}$Anx	σAnx	العدد
ذكورة عالية (Andro and Masc)	٣٩,٦٦	٩,٧٣	٨١
ذكورة منخفضة (Fem and Undiff)	٤٣,٨٨	٨,٥٤	٧٩

وفي حساب (t) للمتوسطات في العينات المستقلة ، نجد أنها تساوي ٢,٩٢ (دالة حتى عتبة

٥٪ فما دون) . مما يبرر التصنيف المقترح للأنماط الأربعة بالنسبة لمتغيرة القلق .

تتوافق هذه النتائج ، إجمالاً ، مع نتائج الباحثين الأميركيين في المترتبات النفسية للمثال الأنتروجيني (Flaherty etal, 1980, Thomas etal, 1984, Hoffman etal, 1979) وهذه النتائج كانت تضع أحياناً الفئة « الأندروجينية » من النساء في مقدمة الترتيب الذي تفرزه الروائز المعتمدة لقياس مختلف مكوّنات الصحة النفسية : تقدير الذات ، التوافق النفساني ، التكيف . . . إلخ . . وفي أحيان أخرى كانت تتساوى إزاء هذه المتغيرات فئتا « الأندروجينية » و « الذكرية » ـ كما في هذه الدراسة . كذلك فإنّ « اللامتحايزة » كانت باستمرار في أسفل الترتيب الذي ذكرنا وإن كانت تتساوى أحياناً مع الفئة الأنثوية كما في هذه الدراسة .

ولا ننسى أن عينة النساء في هذه الدراسة تتألف من طالبات جامعيات يتطلب دورهن درجة عالية من الفعالية والأداتيّة (Instrumentality) والهجوميّة . وهي أبعاد شخصية ذكرية تمتلكها الطالبة الأندروجينية لا تمتلكها الطالبة « الأنثوية » (Fem) بدرجة كافية تسمح لها بتحمّل المهام المترتبة على دورها .

والنظر في فقرات سلم القلق الظاهر المعتمد في هذه الدراسة (أو غيره) يلقي الضوء على النتيجة : فهذه تصف ردود فعل قلقية على وضعيات هي ، في أكثرها ، وضعيات ذكرية ، تنافسية ، أداتية ومواجهة عامة ، إلخ . . . وقلّما نجد فقرة في أي رائز قلق تصف ردود فعل على وضعيات أنثوية : حضنية nurturitive (كالاعتناء بطفل مثلاً) ، أو تعاطفية (تتطلب حميمية مع فرد آخر) إلخ . . . إذ أن القلق الظاهر يصاغ في سلالمه وروائزه من وضعيات ذكرية وردود فعل على هذه الوضعيات تتناسب مع توقعات سلوكية ذكرية . « فالعالم » هو ذكري ، ومعارفه وعلومه هي بالضرورة كذلك . والتوافق مع هذا العالم يتطلب شخصية (تنعكس صورة ذات) تتمتع بالسمات الذكرية .

V ـ نتائج « سلم الموقف من النساء » (AWS)

في الجدول ٩ ، ١٠ ، ١١ نستعرض نتائج « سلم الموقف من النساء » بعلاقتها بالمتغيرات قيد الدرس .

الموقف من النساء (AWS) / جنس		S_{Aws}	$\bar{Aws}$
ج أميركية	إناث	٤١,٧٣	٥,٣٠
	ذكور	٣٧,٠١	٩,٢٦
ج لبنانية	إناث	٣٩,٦٩	٥,٣٢
	ذكور	٣٥,٧٩	٥,٩٢

جدول (٩): توزّع متوسط علامات سلّم « الموقف من النساء » (AWS) والانحراف المعياري بحسب الجنس في العينتين .

الموقف من النساء (AWS) / جنس	x_{Aws}	$\bar{V}_{Aws}$
إناث	٤٠,٧٨	٥,٣٧
ذكور	٣٦,٤٣	٧,٨٥

جدول (١٠): توزّع متوسط علامات «سلّم الموقف من النساء» (AWS) والانحراف المعياري بحسب الجنس في العينة المضمومة .

النمط ـ النوع / الموقف من النساء (AWS)		x_{Aws}	$\bar{V}_{Aws}$
إناث	Andro	٣٩,٩٨	٥,١٣
	Fem	٣٩,٧٤	٤,٧٩
	Masc	٤٢,٩٥	٦,٠١
	Undiff	٤٢,٤٢	٥,٦٤
ذكور	Andro	٣٧,١٥	٦,٦٢
	Fem	٣٦,٠٦	٦,٧٠
	Masc	٣٧,٦١	٧,٥٠
	Undiff	٣٤,٤٨	٦,٥٧

جدول (١١): توزّع متوسط علامات «سلم الموقف من النساء» والانحراف المعياري بحسب نمط ـ النوع والجنس في العينة الإجمالية .

ـ نقاش نتائج « سلّم الموقف من النساء » :

١ ـ بحسب الجنس :

يبيّن الجدولان (٩) و (١٠) أن متوسط علامات الطالبات الإناث على سلم « الموقف من النساء » هو أعلى من متوسط علامات الطلاب الذكور على السلّم نفسه ، وأن الفرق بين المتوسطين هو ذو دلالة ($t = 5.7, p < 0.01$) كما هو متوقّع . وهذه نتيجة ثابتة عبر العينتين : أي أن **طالبات** الجامعة الأميركية هن أكثر ليبرالية في موقفهن من النساء من **طلاب** الجامعة نفسها ($t = 4.01, p < 0.01$) وكذلك ، عند مقارنة طالبات وطلاب الجامعة اللبنانية ($t = 5.02, p < 0.01$) .

وتتوافق هذه النتائج مع نتائج الدراسات الأميركية (Hoffman etal, 1975) وتتوافق أيضاً مع نتائج الدراسات اللبنانية (Spence etal, 1979) التي استخدمت روائز شبيهة لقياس المواقف من المرأة في مجتمعنا (Tarazi, 1972) ويشكل ثبات هذه النتيجة عبر الدراسات واحداً من بيّنات صدق هذه السلالم .

٢ ـ بحسب النمط ـ النوع :

تشير النتائج المدرجة في جدول (١٠) إلى الترتيب التالي في من الموقف من النساء عند الطالبات :

فئة الطالبات « الذكريات » (Masc) نالت على « سلّم الموقف من النساء » متوسط علامات مساوٍ لمتوسط علامات الطالبات « اللامتمايزة » (Undiff) (t = 0.57) وجاء متوسط علامات فئة الطالبات « الأندروجينيات » (Andro) مساوٍ لمتوسط علامات الفئة « الأنثوية » (Fem) (t = 0.25) من الطالبات .

ويمكن إذن ، إعادة تصنيف الفئات الأربع ، « الذكرية » و « اللامتمايزة » و « الأندروجينية » و « الأنثوية » إلى فئتين اثنتين إزاء متغيرة « الموقف من النساء » هكذا :

الأولى : الفئة ذات **الأنوثة المنخفضة** والتي تنتمي بحكم ذلك إلى فئتي « الذكرية » (Masc) أو « اللامتمايزة » (Undiff) .

الثانية : الفئة ذات **الأنوثة المرتفعة** والتي تنتمي بحكم ذلك إلى فئتي « الأندروجينية » (Andro) أو « الأنثوية » (Fem) .

ونبين في الجدول التالي متوسطات علامات الفئتين الجديدتين على « سلّم الموقف من النساء » والانحراف المعياري لتلك العلامات هكذا :

الفئة / سلّم (AWS)	متوسط علامات $\bar{x}_{Aws}$	انحراف معياري σ_{AWS}	العدد
أنوثة منخفضة Masc + Undiff	٤٢,٦٣	٥,٧٥	٥٢
أنوثة مرتفعة Fem + Andro	٣٩,٨٨	٤,٩٤	١٠٨

وفي حساب (t) للفرق بين المتوسطات للعينات المستقلة نجد أن الفرق بين هذين المتوسطين هو ذو دلالة ($t = 2.06, p < 0.05$) .

ويمكن تلخيص النتائج هكذا :

الطالبة ذات الأنوثة المنخفضة (والتي تنتمي بحكم ذلك إلى واحدة من الفئتين : « الذكرية » أو « اللامتمايزة ») هي أكثر انفتاحاً تجاه قضايا المرأة من الطالبة ذات الأنوثة المرتفعة (والتي تنتمي بحكم ذلك إلى واحدة من الفئتين « الأندروجينية » أو « الأنثوية ») . وهي نتائج متوقعة : فالطالبة ذات الأنوثة المنخفضة هي طالبة غير منمّطة جنسياً في تصورها لـذاتها إلى حـدّ استبعاد السمـات الأنثوية عنها في وصفها لذاتها . وإن علامة مرتفعة نسبياً على « سلّم الموقف من النسـاء » تعكس موقفاً داعماً لقضايا المرأة (بالمقارنة مع علامة منخفضة) لأنها تعكس رفضاً لأفكار تقليدية متوارثة حول مكانة المرأة وأدوارها ، وتعكس ، أيضاً تبنّ لمواقف داعمة لتغيـير هذه المكانة وتلك الأدوار . وعلى العكس من ذلك فإن الطالبة ذات الأنوثة المرتفعة تقترب من المثال الأنثوي في تصورها لذاتها أكثر من زميلتها ذات الأنوثة المنخفضة . ويتضمن ذلك القبول بهذا المثال القبول (النسبي بالطبع) بالقيم الملحقة بمكانة المرأة وبحدود أدوارها المرسومة في مجتمعنا .

VI ـ مكاملة نتائج الروائز الثلاثة

١ ـ مترتبات الأنوثة المنخفضة :

وفي تفحص لجدول تفصيلي وانتقائي يبيّن توزّع متوسط عـلامات القلق ومتـوسط علامـات الموقف من النساء في فئتي الطالبات ذات الأنوثة المنخفضة .

	x_{Anx}	x_{Aws}
الفئة الذكرية Masc.	٣٨,٣٢	٤٢,٩٥
الفئة اللامتمايزة Undiff	٤٤,٠٣	٤٢,٤٣

نجـد أن ما يميـز بين الفئتين المتجانستين في مـوقفهما من النسـاء ($t = 0.31$) إضـافـة إلى تجانسهما في الأنوثة المنخفضة ، هو « الحالة » النفسية المرافقة لهذا المـوقف ، وما تتضمنـه من رفض للدور الجنسي التقليدي للمرأة . فالفئة « الذكرية » (Masc) **ترفض** الدور الأنثوي التقليدي إن في تصورها لذاتها أو في آرائها المعلنة **بمعاناة أقل** (قلق أقل بفرق دال ($t = 5.03, p < 0.01$)) من الفئة اللامتمايزة (Undiff) .

ولعلّ ذلك ناجم عن أن الفئة « الذكرية » (Masc) من الطالبات تجد في مكوّنات البعد الذكري وتسامياته في شخصيتها سنداً تعويضياً في مواجهة مترتّبات خروجها على النموذج الأنثوي التقليدي المرغوب اجتماعياً . بينما تفتقد الفئة « اللامتمايزة » (Undiff) من الطالبات ذلك بالمقارنة ، بالطبع ، مع الطالبات من الفئة « الذكرية » .

٢ ـ مترتبات الأنوثة المرتفعة :

ولننظر في جدول تفصيلي ، انتقائي مماثل لفئتي الطالبات ذات الأنوثة المرتفعة (« أندروجينية » أو « أنثوية ») .

	x_{Anx}	x_{Aws}
الفئة الأندروجينية	٤٠,٠٨	٣٩,٩٨
الفئة الأنثوية	٤٣,٦٥	٣٩,٧٤

هنا أيضاً ، تتميز الفئتان المتجانستان بموقفهما من النساء (t = ٠,٢٥) ، إضافة إلى تجانسهما في الأنوثة المرتفعة ، « بالحالة النفسية » المرافقة لهذا الموقف . **فالقبول** بالنموذج الأنثوي السائد الذي يجمع هاتين الفئتين (Andro + Fem) ، إن في تصور الذات ، أو في الآراء المعلنة حول المرأة ، هو قبول لا يخلو من **التنازع** (Conflict) في حالة الطالبة « الأنثوية » بالمقارنة مع الطالبة « الأندروجينية » كما يبيّن الفرق بين متوسطي علامات القلق للفئتين ($t = 3.44, p < 0.01$) .

ويمكن تأويل هذا الفرق بالنظر إلى طبيعة عامل الذكورة العالية في الفئة الأندروجينية قياساً على الفئة الأنثوية . إذ لعلّ مكاملة السمات الذكرية في صورة الذات للطالبة « الأندروجينية » تساهم « إضافة إلى الإعلاء من تقدير ذاتها (Self esteem) في الحفاظ على البعد الأنثوي من شخصيتها وفي دعمه في مواجهة التبخيس الذي قد يطاله في مجتمع يغالي في تثمين الذكورة على حساب الأنوثة . بينما تفتقد الطالبة الأنثوية ، قياساً على الأندروجينية ، ذلك الدعم لصورة ذاتها ، ولآرائها التقليديين (نسبياً) .

رابعاً ـ الخلاصة

I ـ نقاش الأسس المنطقية لمفهومي الذكورة والأنوثة على ضوء النتائج

هكذا وجدنا أن الأنماط النسائية الأربعة التي حددت تبعاً لمتغيرتي الذكورة والأنوثة قد تميّزت

فيما بينها في مجالي القلق والموقف تجاه المرأة. وقد ميزت متغيرة القلق بين الطالبات ذوات الذكورة العالية وبين الطالبات ذوات الذكورة المنخفضة . بينما ميزت متغيرة « الموقف من المرأة وقضاياها » بين الطالبات ذوات الأنوثة المرتفعة ، والطالبات ذوات الأنوثة المنخفضة .

أي ، إن الأنوثة والذكورة تفعلان في متغيرة القلق من جهة ، والموقف من المرأة ، من جهة ثانية ، على نحو يستقل الواحد منهما عن الآخر ولا يمكن التنبؤ بفعل الواحد إذا ما حدد فعل الثاني .

للتوضيح : لو كنا استعملنا سلّماً يضع الذكورة والأنوثة على بعد واحد . . . وتبين لنا أن الذكورة تتناسب عكساً مع القلق لكان باستطاعتنا الاستنتاج أن الأنوثة (التي هي عكس الذكورة على هكذا سلّم) هي بالضرورة متناسبة طرداً مع القلق . . . وهو استنتاج لا تقره نتائج هذه الدراسة : بدليل أن المرأة الأندروجينية ، ذات الأنوثة المرتفعة ، تنتمي إلى الفئة النسائية الأقل قلقاً ، والحجة ذاتها يمكن ترددها بالنسبة لمتغيرة « الموقف من المرأة » .

ويدعم هذه الحجة حساب معامل الارتباط (r_{M-F}) بين مجموعتي علامة الذكورة (M) والأنوثة (F) لعينتي الطلاب والطالبات المستقلتين :

	طلاب	طالبات
معامل الارتباط (r_{M-F})	+ ٠,٢١	+ ٠,١٥

إذ جاء هذان الرقمان إيجابيين وبدون دلالة . مما يوكد أن الذكورة والأنوثة هما (عند الجنسين) مفهومان مستقلان عن بعضهما بعضا . ولأن الأرقام ليست سلبية يمكننا الاستنتاج ، إضافة إلى ما سبق ، أن الذكورة ليست عكس الأنوثة ، وأن الأنوثة هي أيضاً ليست عكس الذكورة ، وذلك خلافاً للاستبانات المعروفة التي تحوي بين سلالهما واحداً للذكورة والأنوثة على مثال (M – F) والتي تعتمد ، إذن ، المفهومين بمعناهما الحدسي والبدائي وليس العلمي الواقعي .

تتناغم نتائج هذه الدراسة ، إجمالاً ، مع فرضياتها ، ولا تختلف كثيراً عن نتائج الدراسات الأميركية المشابهة على عينات طلاب وطالبات جامعيين . إلاّ أن نتائج الطالبات عندنا تستدعي بعض التدقيق لما في ذلك من أثر في تقييم صدق الأداة المستعملة في تصنيف الأنماط الأربعة :

فالنظر في جدول (١٢) :

σN	xN	σF	xF	σM	xM	
٣,٤٣	٣٢,٠٦	٦,٦٩	٦٥,٥٣	٥,٤٢	٥٣,٧٧	إنـــاث
٣,٨٩	٣١,٠٨	٧,٧٤	٥٩,٧٤	٦,٤٠	٥٣,٦٨	ذكـــور

جدول (١٢) : توزع متوسطات علامات السلالم الثلاثة والانحراف المعياري بحسب الجنس

نجد أنه : بينما ميّز سلّم الأنوثة (F) بين الذكور والإناث في الاتجاه المتوقع : فنالت الطالبات متوسط علامات على سلّم الأنوثـة (F) أكبر من متـوسط علامـات الطلاب على السلّم ذاتـه وبفرق دال : ($t = 6.67, p < 0.001$) ، لم يميّـز سلم الذكـورة (M) بينهما : إذ جـاء الفرق بين متـوسط العلامات التي نالها الطلاب والطالبات على هذا السلم بدون دلالة ($t = 0.14$) . والارتفاع النسبي لعـلامات الـطالبات على السلمين المـذكورين يؤثـر ، بالـطبع ، على حسـاب الوسيط (Median) للعلامات التي نالتها المجموعة ككل على كل من سلّمي الـذكورة والأنـوثة ويسـاهم ، إذن ، في تصنيف نسبة كبيرة من الإناث في الفئة الأندروجينية (عال ـ عال) ، ونسبة كبيرة من الذكور في الفئة اللامتمايزة (منخفض ـ منخفض) .

وتحتمل هذه الظاهرة التأويل التالي :

بما أن السمات التي تتألف منها « الاستبانة المعدّلة لـلأدوار الجنسية » هي جميعـاً مرغـوبة للجنسين معاً ، أي أنها جميعاً سمات إيجابية ، فإن علامـات عاليـة على السلمين تعكس تقديـراً إيجابياً عالياً للذات . ويمكن الافتراض ، إذن ، أن الطالبات في عينة هذه الدراسة يتمتعن بتقدير ذات عال بالمقارنة مع زملائهن الـطلاب . ولعلّ ذلـك ناجم عن ميـزة هذه العينـة . فالإنـاث في مجتمعنا تتعرض لاصطفاء مدرسي أكثر حدّة من الذكور في المراحل الدراسية كافية . لذلك ، فإن فئة الإناث التي تصل إلى المرحلة الجامعية هي من النخبة الطلابية ككل (ذكور وإناث لأن الاثنين يخضعان للمنهج التربوي ذاته في المرحلة ما قبل الجامعية) . وبما أن النجاح الأكاديمي يرتبط في ثقافتنا الاجتماعية بسمات ذهنية مثمّنة فإن تلازم هذا النجاح مع تقدير ذات عال هو أمر متوقع .

ولا تقتصر ظاهرة الذكورة العالية التي تصف طالبات جامعاتنا على دراستنا هذه ، فقـد بينت الدراسات الميدانية النسائية في لبنان أن نسبة عالية من هذه الفئة النسائية تبدي ذكورة عالية (الزين ١٩٧٩ Spence etal, 1979, p 53) وأن ذلك يتجلى في نتائج دراسات تتباين في مناهجها وفي وسائل بحثها . هذا ، وقد بينت نتائج دراسات أخرى أن الفئة عينها من النساء لا ترفض دورها الجنسي . وتبدو هذه النتائج متضـاربة من زاويـة المفهوم التقليـدي والحدسي للذكـورة والأنوثـة ـ أي مفهوم

(M-F) ، ولكنها ليست كذلك إذا ما عولجت من منظار مفهومي الذكورة والأنوثة المتعامدين . فهذه المعالجة تستوعب الظاهرة وتساهم في فهم مترتباتها النفسانية والمظاهر المتلازمة معها بشكل أدق .

ولعلّ العلامات العالية التي أعطتها الطالبة الجامعية لذاتها على فقرات الاستبانة قياساً على علامات زميلها الطالب لا تتعدى كونها مظراً نُفاجياً استثارتها هذه الفقرات عند الإناث أكثر من الذكور في العينة المدروسة . وهذا يطرح التحفظ الذي يواجه عادة اعتماد رائز ـ كالذي اعتمدنا ـ يعتمد التقرير الذاتي (Self Report) في الاستجابة : كيف نطلق صفة الأمانة على هذه الاستجابة ؟ إلى أي حد تفعل متغيرة المرغوبية الاجتماعية (Social Desirability) في التشويش على صدق الوسيلة المستعملة ؟ هل تفعل هذه المتغيرة في مجموع النساء أكثر من الرجال عندنا ؟ أي ، هل ترى المرأة ذاتها في المرآة الاجتماعية وتثمنها استناداً على ذلك أكثر مما يفعل الرجل ؟

تستدعي الإجابة على هذه التساؤلات التحقق المنهجي الدقيق من صدق الاستبانة المعدّلة للأدوار الجنسية وذلك بما يطول إلى مستويين على الأقل :

الأول : التحقق من أن الاستجابة لبنودها ليست مدفوعة بالميل العام للاستجابة على نحوٍ مرغوبٍ اجتماعياً .

الثاني : التحقق من أن « صورة الذات » المرسومة بناء على الاستجابة لهذه البنود متناسبة مع السلوك الفعلي . أي إن الانتماء إلى واحد من الأنماط الأربع لا يتعارض مع المظاهر السلوكية المترتبة ، نظرياً ، عن هذا الانتماء . فيستجيب الفرد الأندروجيني ، مثلاً ، لوضعية ذكرية على نحو ذكري وثانية أنثوية على نحو أنثوي (بعد التحديد الإجرائي للسلوك) متخطياً بذلك جنسه البيولوجي ، بينما يستنكف الفرد المنمّط من الاستجابة الملائمة لوضعية عبر ـ جنسية ويبقى أسير جنسه من جهة ، وأسير صفة الوضعية ، من جهة ثانية .

ونحن أردنا في هذه ادراسة **الإشارة** إلى ظاهرة خرق التنميط الجنسي عند الفئة الطليعية من شاباتنا في محاولة لوضع موضع المراجعة ثبات الصورة التقليدية التي ما تزال التعبيرات الثقافية عندنا تكررها ببلادة في وسائلها المختلفة (كلاب ١٩٨٣ Makki 1983 ، كلاب ١٩٨٨) ، على أن يتم **تأكيد** ذلك في دراسات أشمل ، وأكثر دقة ، من هذه الدراسة .

II ـ تساؤلات في المترتبات التطبيقية لخرق التنميط الجنسي

تجيب هذه الدراسة على أسئلة قليلة وتثير أسئلة كثيرة منها :

ـ ما مدى انتشار ظاهرة تجاوز التنميط الجنسي في المجموع النسائي اللبناني ؟ هل هي ناتج مكانة الفئة التي درست ، أم أنها ظاهرة عامة ؟ ما هو أثر المتغيرات السوسيولوجية المختلفة على انتشارها ؟ كيف ترتبط بأساليب التربية ، وبالتنشئة الاجتماعية التي تخضع لها الفتيات ؟ ما هي علاقتها بالمتغيرات العقلية (الذكاء مثلاً) ؟ كيف تتأثر العلاقة بين المرأة والرجل بهذا الخرق ؟

ـ ما هي علاقة تجاوز صورة الذات النسائية للطيف الأنثوي التقليدي بالسلوك الجنسي ؟ بصورة الجسد ؟ كيف ينعكس هذا التجاوز على مؤشرات الصحة النفسية ؟

ـ هل تتأثر لغة اللاوعي بهذا الخرق ؟ كيف يمكن تحليل التعبيرات الاشتقاقية للاوعي في تقدير مدى تصالح الهوية النسائية الجديدة مع الأرختيب الأنثوي الأثري ؟

ـ كيف نستطيع أن نصف أمبريقيا ، صلة الهوية النسائية الجديدة بالأصول التشريحية للمرأة والتي اعتبرت في التحليل النفسي في أصول جنسيتها الثنائية ؟ هل تعتبر المرأة الأندروجينية التعبير النفساني المرغوب اجتماعياً عن قبول المرأة لجسدها الأنثوي بطبيعته الثنائية بدل مغالبة هذه الطبيعة ؟ أم أن الشكل الهجين الأندروجيني هو صورة خارجية لداخل داكن ما تزال الأنثى المتململة قابعة ثابتة في داخله تعبر عن ذاتها بلغة أولية علينا تأويلها وفك رموزها ؟

هذه مجموعة أسئلة ، لعلّها ليست الوحيدة ، تبدأ في علم الاجتماع وتنتهي في التحليل النفسي ، وتخدم الإجابة عليها المعالجة الموضوعية لبحث الجوانب النظرية والتطبيقية لعلم نفس المرأة في بلادنا .

منشورات شركة المطبوعات اللبنانية ـ دار الفارابي

اسم الكتاب	اسم المؤلف
ـ دفاعاً عن المادية والتاريخ	د. صادق جلال العظم
ـ بعض قضايا للمستقبل	د. سمير أمين
ـ تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء ١٩١٨ ـ ١٩٤٦	د. علي شعيب
ـ الامبريالية الفرنسية والولايات العربية	د. مسعود ضاهر
ـ المفاهيم الاقتصادية ـ لدى المفكرين الإسلامي ـ كتاب الخراج لأبي يوسف ـ	أحمد صادق سعد
ـ المفاهيم الاقتصادية / الفكر المعاصر	أحمد صادق سعد
ـ عهود الامبراطورية العثمانية	أحمد صادق سعد
ـ دراسات في الاشتراكية المصرية	أحمد صادق سعد
ـ مقاربات فصول نقدية في الاشتراكية	أديب نعمة
ـ محاورات سياسية	د. خضر زكريا
ـ حوار مع نجيب محفوظ	د. غالي شكري
ـ حوار مع توفيق الحكيم	د. غالي شكري
ـ مناقشات وأحاديث	مهدي عامل

المراجع العربية

- حطب ، زهير ومكي ، عباس : **السلطة الأبوية والشباب : دراسة ميدانية اجتماعية نفسية حول طبيعة السلطة وتمثلها** . بيروت ـ معهد الإنماء العربي ١٩٨٠ .
- الخماش ، سلوى : **المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف** . بيروت ـ دار المقيقة (الطبعة الثانية) ١٩٨١ .
- رسّام ، أمل : « نحو إطار نظري لدراسة المرأة في العالم العربي » في **الدراسات الاجتماعية عن المرأة في العالم العربي** . بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر (يونيسكو) ١٩٨٤ .
- الزين ، رائف : **الإشكالات الجنسية عند المراهقين في المدرسة اللبنانية** . بيروت ـ الجامعة اللبنانية (رسالة للماجستير لم تنشر) ١٩٧٩ .
- السعداوي ، نوال : **المرأة والجنس** . بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٠ .
- شرارة ، يولا : « من صورة المرأة في الصحافة النسائية » . دراسات عربية (١٩٧٥ : ١١ (٧)) ، ص ٨٠ ـ ١٠١ .
- عبد القادر ، سهى : « دراسة للاتجاهات في أبحاث العلوم الاجتماعية حول المرأة » في **الدراسات الاجتماعية عن المرأة في العالم العربي** . بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر (يونيسكو) ١٩٨٤ .
- غريّب ، روز : « حركة نسائية حديثة ومتوالية » . بيروت ـ جريدة النهار (١٩٨٥ (١/٢٦)) .
- كلاّب ، إلهام : **هي تطبخ ، هو يقرأ** . بيروت ـ كلية بيروت الجامعية : معهد الدراسات النسائية في العالم العربي ١٩٨٣ .
- كلاّب ، إلهام : المرأة اللبنانية في الإعلام . ندوة عقدت في باريس تحت عنوان « المرأة اللبنانية شاهد على الحرب » . مكتب جامعة الدول العربية ـ نوفمبر ١٩٨٧ .
- مكّي ، عباس : « الجسم : محرماته وتشريعاته » . بيروت ـ دراسات نفسانية (١٩٧٤ : ١) ، ص ١١٣ ـ ١٢٥ .
- المرنيسي ، فاطمة : **السلوك الجنسي في مجتمع إسلامي رأسمالي تبعي** . ترجمة ارزويل فاطمة الزهراء ـ بيروت ـ دار الحداثة ١٩٨٢ .

- منسى ، جوليت : المرأة في العالم العربي . ترجمة إلياس مرقص ، بيروت - دار الحقيقة . ١٩٨١

المراجع الأجنبية

Bem, Sandra L. «The Measurement of Psychological Androgyny». Jour of Consult and Clinical Psychology. (1974: 42 (2)), 155 - 162.

———————— . «Sex Role Adaptability: One Consequence of Psychological Androgyny». Jour, of Pzrsonal. and Social Psychology. (1975: 31 (41), 634-643.

———————— . «On the Utiliti of Alternative Proceders for Assessing Psychological Androgyny». Jour of Consult and Clinical Psychology. (1977: 45(2)), 196-205.

Bem, S.L. and Lenney, E., «Sex Typing and the Avoidance of Cross-Sex Behavior». Jour of Personality and Social Psychology. (1976: 33), 48-54.

Biaggio, M.K. and Nielson, E.C., «Anxiety Correlates of Sex. Role Anxiety». Jour of Clinical Psychology (1976: 132 (3)), 620-623.

Bradwick, Judith. **The Psychology of Women: A Study of Biocultural Conflits.** USA (N.Y): Harper and Bow, 1971.

Constantinople, Anne. «Masculinity and Feminenity. An Exeption to a Famous Dictum». Psychological Bulletin. (1973: 80 (5), 289-407.

Flaherty, J.F. and Dusek, J.B. «An Investigation od the Relationship between Psychological Androgyny and Components of Self Concept». Jour of Personality and Social Psychology. (1980: 38(6)), 984-992.

Freidan, Betty. **The Feminine Mystique.** USA (N.Y.) Dell Publishing Co., 1963.

Freud, Sigmund. «Some Psychical Consequenses of the Anatomical Distinction between the Sexes» (1925) in:

The Standard Edition (SE) of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud. Trans. by Strachey, James. London: The Hogorth Press and the Institute of Psycho-Analysis. 1974:241-261.

Galen, Amy. «Rethinking Freud on Female Sexuality: A Look at the New Orthodox Defense». Psycho-Analytic Review (1979: 66(2)), 173-186.

Gold stein, R. Z. «The Dark Continent and its Enigmas». Int. Jour. of Psycho-Analysis (1984:5), 179-189.

Hoffman, D.M. and Fidell, L.S. «Characteristics of Androgynous, Umaiff., Masc. and Fem. Middle Class Women», Sex Roles (1979:5(6)) 765-781.

Jubran, May. **La Situation Conflictuelle de la Femme Libanaise.** Paris VII. Unpublished Doctoral Dissertation, 1981.

Koedt, Anne. «Myths about Women» in Tanner, L.B. (ed). **Voices From Women Liberation.** USA: Mentor Books, 1971.

Makki, Raja. **Le Rapport entre les sexes dans les Bandes Dessinées Libanaise.** Paris VII. Unpublished Doctoral Dissertation, 1983.

Melikian Levon, «The Use of selected T.A.T. Cards Among Arab University Students: A cross-cultural study». The Journal of Social Psychology, (1964:62) 3-19.

Merhi, Anciée, A. **La Nouvelle Femme Chiite.** Paris VII. Unpub lished Doctoral Dissertation, 1982.

Muhyi, Ibrahim A. «Women in the Arab Middle East». Jour of Social Issue (1959: 15), 45-57.

Needles, William: «Reflections on the Sexual Dilemma of the Phallic Female: Biological Construction». Psycho-Analytic Review (1989-83: 69(2)), 491-513.

Oskamp., S. **Attitudes and Opinious.** USA (N.J.): Prentice Hall Inc., 1977.

Pleck, Joseph H. «Masculinity - Feminenity: Current and Alternative Paradigms». Sex Roles (1975: 1 (2)), 161-178.

Prothro, E.T. and Diab, L. N., **Changing Family Pattern in the Arab Middle East.** Beirut: AUB, 1974.

Safouan, Mustafa. «Feminine Sexuality in Psycho-Analytic Doctrine» in Mitchell, J. and Rose, J. (ed)., **Feminine Sexuality.** London: Macmillan Press Ltd., 1982.

Sarason, I.G. «Experimental Approach to Test Anxiety». In Speilberger C.D. (ed). **Anxiety: Current Trends in Theory and Research.** N. Y.: Academic Press, 1972.

Scherfy, Mary Jane. «The Evolution and Nature of Female Sexuality in Relation to Psycho-Analytic Theory». Jour of American Psycho-Analytic Theory». Jour of American Psycho-Analytic Association (1966: 14), 28-128.

Speilberger, C.D. (ed): **Anxiety: Current Trends in Theory, Research.** N.Y.: Academic Press, 1972.

Spence, J.T., Helmreich, R., Stapp, J. «A short Version of the Attitudes Towards Women Scole (AWS)». Bulletin of «sychonomic Society.

Spence, Janet, T. and Helmreich, Robert L. **Masculinity and Feminenity.** Austin and London: University of Texan Press, 1979.

Spence, J. T. and Helmreich, R. and Stapp, J. «Rating od Self and Peers on Sex-Role Attitudes and their Relations to Self Esteem and Conceptions of Masc. and Fem». Jour of Person and Social Psychol. (1975:32, (1)) 29-39.

Tarazi, Maha. **Attitude Towards Feminenism. Among Arab Women in Relation to their Need for Achievement.** Beirut: AUB. Unpublished M.A. Thesis, 1972.

Thomas, D.A. and Reznikoff, M. «Sex Role Orientation, Personality Structure and Adjustment in Women». Jour of Personality Assessment (1984: 48(1)), 28-36.

Tzuriel, David. «Sex Role Typing and Ego Identity in Israeli, Oriental and Western Adolescents». Jour of Person. and Social Psychology (1984: 64 (2)), 440-457.

Webb, A.P., «Sex Role Preferences and Adjustments in Early Adolescents». Child Development (1963:34) 609-618.

صدر حديثا عن معهد الانماء العربي...

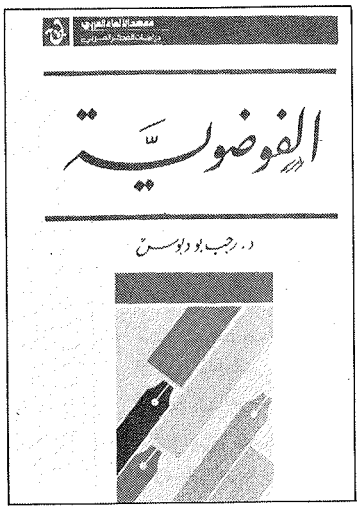

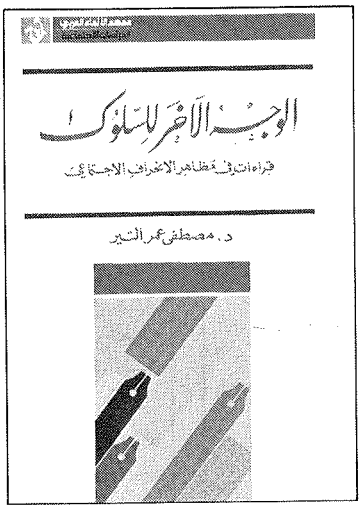

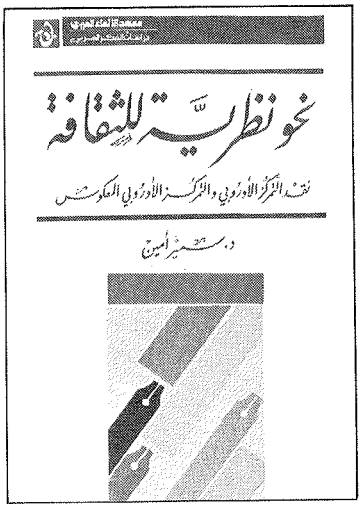

... والاعداد الجديدة من مجلات:

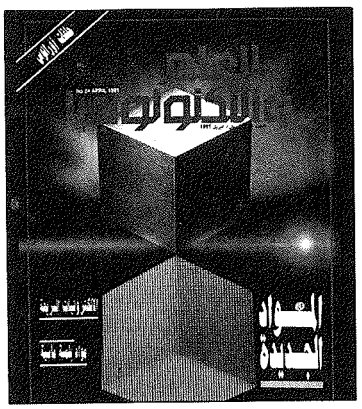

ويصدر قريباً...

ـ الحركات الجماهيرية، تأليف مجموعة من الباحثين، اشراف د. فهيمة شرف الدين
ـ الجزء الرابع من الموسوعة الفلسفية، (الأعلام)

سلسلة دراسات اجتماعية حول وحدة المجال العربي أُعِدت باشراف د. زهير حطب:
1ـ المسألة السكانية وبنية المجال العربي، د. عبد الله ابراهيم.
2ـ النقط وبنية المجال العربي، د. نجيب عيسى.
3ـ الفرد والجماعة في المجال العربي، د. صادر يونس، د. عباس مكي.
4ـ الكيانات الدستورية في المجال العربي، د. سهيل بوجي.
بالإضافة إلى بحوث ندوة: حوادث السير على الطرقات التي نُظِمت في طرابلس، ج.ع.ل.ش.إ.ع، عام ١٩٨٩

معهد الانماء العربي ـ الرملة البيضاء، ص.ب 5300/14، بيروت، لبنان

الطبعة الحادية عشرة بالألوان

من

أحدث معجم فرنسي - عربي

المنهل

تأليف :

الدكتور سهيل ادريس

* خبرة سنوات طويلة في الدراسات اللغوية والتعليم الثانوي والجامعي وفي ترجمة كثير من الآثار الفرنسية الشهيرة إلى العربية.
* عمل ثماني سنوات متواصلة في الكشف عن متون الفرنسية والعربية والتحقيق في أمهات الترجمات بين هاتين اللغتين.
* مفردات عربية مقابلة للألفاظ الفرنسية في شتى الفنون والعلوم وأبواب المعرفة.
* تعريفات موجزة دقيقة تتناول المدارس الفلسفية والمذاهب الأدبية والفنية والنباتات والحيوانات والمواعين والرياش وسائر مظاهر الحضارة.
* ثمانون ألف مادة، مع استعمال معظمها في جمل مفيدة تعلم الفرنسية وترجمتها العربية.
* هذا هو «المنهل» الذي تضعه دار الآداب بين أيدي الأدباء والمترجمين العرب وطلاب الجامعات والمدارس الثانوية.

الثمن ٢٠,٠٠ دولاراً

المنهل الوسيط

قاموس فرنسي - عربي

(الطبعة السادسة)

تأليف

الدكتور سهيل ادريس

١٠,٠٠ دولار

* * *

المنهل القريب

قاموس عربي - فرنسي

لطلاب المدارس الابتدائية

(الطبعة السادسة)

٤,٠٠ دولار

إلى أكثر من ٨٠٠ عنوان آخر تتضمن :

- ترجمة الأعمال الكاملة لسارتر ، غارودي ، دوبريه ، سيمون دو بفوار ، كولن ولسن البرتومورافيا ، ماركوز ، ألبير كامو ، وغيرهم .
- مؤلفات نوال السعداوي ، حنا مينا ، جبرا إبراهيم جبرا ، إلياس خوري ، سحر خليفة ، عبد العزيز المقالح ، سعد الله ونوس ، علي عقلة عرسان وغيرهم .

دار الآداب ، لبنان ، بيروت . الدكتور سهيل إدريس

العنوان : دار الآداب ، بيروت ص . ب ١٤٢٣ - ١١

SAR AL ADAB. B.P. 11 - 4123 F BEYROUTH - LEBANON